

# تفسير المرآة الخفية

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي  
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية  
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الثالثون

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

---

حقوق الطبع محفوظة

## الجزء الثامن

### سورة النبأ

هي مكية ، وعدد آياتها أربعون ، نزلت بعد سورة المعارج .  
ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) اشتغالها على إثبات القدرة على البعث الذي ذكر في السورة السالفة أن الكافرين كذبوا به .

(٢) أن في هذه وما قبلها تأنيبا وتقريعا للكافرين ، فهناك قال : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » وهنا قال : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِمَّادًا » .

(٣) أن في كل منهما وصف الجنة والنار وما ينعم به المتقون ، ويعذب به المكذبون .

(٤) أن في هذه تفصيل ما أجل في تلك عن يوم الفصل ، فهناك قال : « لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ » . وهنا قال : « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا » إلى آخر السورة .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)  
 كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦)  
 وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩)  
 وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ  
 سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ  
 مَاءً مُجَاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) .

### شرح المفردات

عمّ : أى عن أى شىء ، يتساءلون : أى يسأل بعضهم بعضا ، والنبأ : الخبر الذى يُعنى به ويهتم بشأنه ؛ والمراد به خبر البعث من القبور والعرض على مالك يوم الدين ،  
 كلاً : كلمة تفيد رد ما تقدم من الكلام ونفيه ، والمهاد : ( بكسر الميم ) والمهد فى نحو  
 قوله : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مِهَادًا » : المكان المهدى المذلل ، والأوتاد :  
 واحدها وتد ؛ وهو ما يدق فى الأرض ليربط إليه الجبل الذى تشد به الخيمة ، والأزواج :  
 واحدها زوج ؛ ويطلق على الذكر والأنثى ، والسبات : ( بضم السين ) قطع الحركة  
 لتحصيل الراحة ، واللباس : ما يلبسه الإنسان ليستر به جسمه ويغطيه ، معاشا :  
 أى وقتا لتحصيل أسباب المعاش والحياة ، سبعا شدادا : أى سبع سموات قوية محكمة  
 لا فطور فيها ولا تصدع ، والسراج : ما يضيء وينير ، والوهاج : التلألؤ ، والمراد  
 به الشمس ، والمعصرات : السحائب والغيوم إذا أعصرت : أى حان وقت أن تعصر

الماء فيسقط منها ، والتجاج : كثير الانصباب عظيم السيلان ؛ والمراد به المطر ، والتجج : سيلان دم الهدى ، وفي الحديث « أحب العمل إلى الله التجج والتجج » والعيج : رفع الصوت بالتلبية ، والتجج : إراقة دم الهدى ، والحب : ما يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير ، والنبات : ما تقتات به الدواب من التبن والحشيش ، والجنات : واحدها جنة ، وهي الحديقة والبستان فيه الشجر أو النخل ، والجنات الألفاف : الملتفة الأغصان ، لتقاربها وطول أفنانها ، ولا واحد لها كالأوزاع والأخفاف ، وقيل واحدها لف ( بكسر اللام وفتحها ) وقال أبو عبيدة : واحدها لقيف كشريف وأشرف .

### المعنى الجملى

كان اشركون كلما اجتمعوا فى ناد من أنديتهم أخذوا يتحدثون فى شأن الرسول وفيما جاء به ويسأل بعضهم بعضا ، ويسألون غيرهم فيقولون : أساحر هو أم شاعر أم كاهن أم اعتراه بعض ألفتنا بسوء ؟ ، ويتحدثون فى شأن القرآن : أسحر هو أم شعر أم كهانة ؟ ويقول كل واحد ماشاء له هواه ، والرسول سائر قُدُما فى تبليغ رسالته ، وأمامه مصباحه المنير الذى يضىء للناس سبيل الرشاد ، وهو كتابه الكريم ، كما كانوا يتحدثون فى شأن البعث ، ويأخذ الجدل بينهم كل مأخذ ؛ فمنهم من ينكرونه البتة ، ويزعمون أنهم إذا ماتوا انتهى أمرهم ، وما هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلى ، وما يهلكنا إلا الدهر ؛ ومنهم من كانوا يزعمون أنهم إنما تبعث أرواحهم لأجسامهم بعد أن تأكلها الأرض ، وتبعث بها يد البلى .

وربما لقي أحدهم بعض من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فبساتله عن ذلك

استهزاء وسخرية .

وفى هؤلاء وأشباههم نزلت هذه السورة ردًا عليهم وتكذيبا لهم ، وإقامة للحجة ؛

على أن الله قادر على أن يعيهم بعد موتهم وإن صاروا ترابا ، أو أكلتهم السباع ،

أو اختوتهم البحار فكانوا طعاما للسمك ، أو أحرقتهم النيران فطاروا مع الريح .  
وقد ذكر لهم من مظاهر قدرته أموراً تسعة يشاهدونها بأعينهم لا يخفى عليهم  
شيء منها :

- (١) انبساط الأرض وتمهيدها لتصلح لسير الناس والأنعام .
- (٢) سموق الجبال صاعدة في الجوّ .
- (٣) تنوع الآدميين إلى ذكور وإناث .
- (٤) جعل النوم راحة للإنسان من عناء الأعمال التي يزاؤها عامة نهاره .
- (٥) جعل الليل ساتراً للخلق .
- (٦) جعل النهار وقتاً لشئون الحياة والمعاش .
- (٧) ارتفاع السموات فوقنا مع إحكام الوضع ودقة الصنع .
- (٨) وجود الشمس المنيرة المتوهجة .
- (٩) نزول المطر وما ينشأ عنه من النبات .

فكل ذلك داع لهم أن يعترفوا أن من قدر على كل هذا فلا تعجزه إعادتهم  
إلى النشأة الآخرة .

### الإيضاح

(عمّ يتساءلون ؟) أي عن أي شيء يتساءل المشركون من أهل مكة وغيرهم ؟  
روى عن ابن عباس قال : كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث  
فيما بينها ، ففهم المصدق ومنهم المكذب به ، فنزلت : عمّ يتساءلون .  
ثم أجاب عن هذا السؤال بقوله :

(عن النبي العظيم . الذي هم فيه مختلفون) أي عن الخبر العظيم الشأن الذي  
اختلفوا في أمره ، فمن قائل إنه مستحيل كما حكى الله عنهم بقوله : « إِنْ مِنْهُ إِلَّا

حَيَاتِنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا» ومن شاكَّ فيه بقوله : « مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ » .

وإيراد الكلام بصورة السؤال والجواب أقرب إلى التفهيم والإيضاح ، وتثبيت الجواب فى نفس السائل كما جاء فى قوله : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » . ثم أخذ سبحانه يرد عليهم متوعدا لهم فقال :

( كلا سيعلمون ) أى ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون الذين يذكرون البعث بعد الموت ، ثم توعدهم بأنهم سيعلمون إذا ما عاينوا بأنفسهم حقيقة ما كانوا ينكرون ، وتنقطع عنهم الريبة ، حين يُسأل كل عامل عما عمل ، ويفصل بين الخلائق .

وقصارى ذلك - فلizardجروا عما هم فيه ، فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال ، إذا حلَّ بهم العذاب والنكال ، وأن ما يتساءلون عنه ، ويضحكون منه حق لا شك فيه ولا ريب .

ثم أكد هذا الوعيد بقوله :

( ثم كلا سيعلمون ) وفى تكرير الزجر مع الوعيد إيماء إلى غاية التهديد . ثم شرع يبين عظيم قدرته وآيات رحمته التى غفل عنها هؤلاء المنكرون ، مع أنها بين أعينهم فى كل حين فقال :

( ١ ) ( ألم نجعل الأرض مهاداً ) أى كيف تنكرون أو تشكون فى البعث ، وقد عاينتم ما يدل عليه من قدرة تامة ، وعلم محيط ، وحكمة باهرة تقتضى ألا يكون ما خلق من الخلق عبثاً ، فمن ينعم بهذه النعم لا يهملها سدى .

انظروا إلى الأرض التى جعلت ممهدة موطأة للناس والدواب ، يقيمون عليها ويفترشونها وينتفعون بخيراتها الظاهرة والباطنة .

(٢) (والجبال أوتادا) أى وجعلنا الجبال لها كالأوتاد كى لا تميل بأهلها ، وتضطرب بسكانها ، ولولاها لكانت دائمة الاضطراب لما فى جوفها من المواد الدائمة الحيشان ، فلا تتم الحكمة فى كونها مهادا لهم .

(٣) (وخلقناكم أزواجا) أى وجعلناكم أصنافا ذكورا وإناثا ، ليم الاتناس والتعاون على سعادة المعيشة ، وحفظ النسل وتكميله بالتربية والتعليم .

ونحو الآية قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

(٤) (وجعلنا نومكم سباتا) أى وجعلنا نومكم فى الليل قطعاً للمتعاب التى تكابدونها فى النهار ، سعيًا فى تحصيل أمور المعاش ؛ فالشاهد أن فى نوم بضع ساعات فى الليل راحة للقوى من تعبها ، ونشاطا لها من كسلها ، وإعادة لما فقد منها ، ولولا ذلك لفقدت القوى ، وانقطع المرء عن العمل فى شؤون الحياة المختلفة .

(٥) (وجعلنا الليل لباسا) أى وجعلنا الليل بظلامه ساترا للأجسام ومغطياً لها كاللباس الذى يغطى الجسم ويستتره . ووجه المنة فى ذلك — أن ظلمته تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هربا من عدو، أو إخفاء لما لا يحب أن يطلع عليه غيره ، والله در المنبى :

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ تحب أن المانوية تكذب (١)

(٦) (وجعلنا النهار معاشا) أى وجعلناه وقتنا لتحصيل أسباب المعاش ، لأن الناس يتقبلون فيه فى حوائجهم ومكاسبهم .

(٧) (وبدينا فوقكم سبعا شدادا) أى سبع سموات قوية الأمر ، محكمة النسيج والوضع ، لا يؤثر فيها كثر الغداة ولا من العشى ، ليس بها تصدع ولا فطور .

(٨) (وجعلنا سراجا وسراجا منيرا) أى وأنشأنا الشمس سراجا متلألئا بالغا الغاية فى الضوء والحرارة .

(١) المانوية : طائفة تعتقد أن الخير من النهار والشر من الليل .

وقد جعل الله في هذا الكوكب سر الحياة ؛ فالحرارة والضوء يطردان الأمراض ويُنْعِشان كل حي ، ولا أدل على هذا مما نشاهد من فتك الأمراض بمن يكون بمنأى عن ضوءها وحرارتها ، والجراثيم لاتتوالد إلا حيث يجتذب عنهما السكان ، ويتعدان عن المكان .

(٩) (وأزلنا من المعصرات ماء نجاسا) أى وأزلنا من السحائب والغيوم التى تتحلب بالمطر ماء كثير السيلان ، عظيم الانصباب .  
ثم بين عظيم نفع الماء وجليل فائدته فقال :

(لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا) أى لتبديل بوساطته جذب الأرض خصبا ، فنخرج من الأرض حبا يفتت به الناس كالحنطة والشعير ، ونباتا تفتت به الدواب ، وحدائق ذات أعصان ملتفة .

وقد جمع الله في هذه الآية جميع أنواع ماتنبته الأرض ، فإن ما يخرج منها إما أن يكون ذاساق أولا ؛ والأول إذا اجتمع بعضه إلى بعض وكثر حتى التف فهو الحديقة ؛ والثانى إما أن يكون له أكل فيها حب ، وإما أن يكون بغير ذلك وهو النبات ، وقدم الحب لأنه غذاء أشرف أنواع الحيوان وهو الإنسان ، وأعقبه بذكر النبات ، لأنه غذاء بقية أنواع الحيوان ، وآخر الحدائق لأن الفاكهة مما يستغنى عنها الكثير من الناس .

وقال الفراء : الجنة مافية النخيل ، والفردوس مافية الكرم .

إِنَّ يَوْمَ الْفِصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ  
أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ  
فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَأْبًا (٢٢)  
لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا

وَعَسَاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنْهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧)  
وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا كَذَابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا  
فَلَن تَرِيدَ كُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠).

### شرح المفردات

يوم الفصل : هو يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن الله يفصل فيه بحكمه بين  
الخالق ، ميعاتا : أى حدًا تنتهى عنده الدنيا ، والصور فى الأصل : البوق الذى ينفخ  
فيه فيحدث صوتا ، وقد جرت عادة الناس إذا سمعوه أن يهرعوا إليه ويجمعوا عند  
النافخ ، والأفواج : واحدها فوج وهو الجماعة ، وفتحت السماء : أى انشقت  
وتصدعت ، وسيرت الجبال : أى زالت من أما كتبها وتفتتت صخورها ، سرايا :  
أى كالسراب ، ففى بعد تفتتها ترى كأنها جبال وليست بجبال ، بل غبارا متراكما ،  
المرصاد : موضع يرتقب فيه خزنتها المستحقين لها ، للطاغين : أى للذين طغوا  
فى مخالفة ربهم ومعارضة أوامره ، والمآب : المرجع ، لاثين : أى مقيمين ، أحقابا ،  
واحدها حُقْب ، ووحد الحُقْب حِقْبَةً : وهى مدة مبهمه من الزمان . قال متمم  
ابن نويرة :

وكنا كندمانى جَذِيمَةً حِقْبَةً من الدهرحى قيل لن نتصدعا

فلما تفرقنا كَأبى ومالكاً الطول اجتماع لم نبت ليلة معا

والبرد: برد الهواء ، وقد يراد به النوم ، ومن أمثالهم «منع البردُ البردَ» أى أصابه  
من شدة البرد ما منعه النوم ، ولا سرايا : أى سرايا يسكن عطشهم ويزيل الحرقة  
عن بواطنهم ، والحميم : الماء الحار المُغْلَى ، عساقا : أى قيحا وصديدا وعرقا دأماً  
السيلان من أجسادهم ، وفاقا : أى وفق أعمالهم السيئة ، لا يرجون : أى لا يتوقعون ،

حساباً : أى محاسبة على أعمالهم ، أو ثواب حساب ، كذّاباً : أى تكذيباً ، وقرئ  
 بالتخفيف بمعنى كذبا ، وعليه قول الأعشى :  
 فصدقتُها وكذبَتْها والمرءُ ينفعه كذابه  
 كتاباً : أى إحصاء بالكتابة .

### المعنى الجملى

بعد أن نبه عباده إلى هذه الظواهر الباهرة ، ولفت أنظارهم إلى آياته القاهرة ،  
 أخذ يبين ما اختلفوا فيه ونازعوا فى إمكان حصوله وهو يوم الفصل ، ويذكر لهم  
 بعض ما يكون فيه تخويفاً لهم من الاستمرار على التكذيب بعد ما وضحت الأدلة  
 واستبان الحق ، ثم أبان لهم أن هذا يوم شأنه عظيم ، وأمر الكائنات فيه على غير  
 ماتمهدون ، ثم ذكر منزلة المكذبين الذين جحدوا آيات الله واتخذوها هزواً ، وأن  
 جهنم مرجعهم الذى ينتهون إليه ، وأنهم سيقمّون فيها أحقاباً طويلاً لا يجدون شيئاً  
 من النعيم والراحة ، ولا يذوقون فيها رَوْحاً ينفّس عنهم حر النار ، ولا يذوقون من  
 الشراب إلا الماء الحارّ والصديد الذى يسيل من أجسادهم ، جزاء سيئ أعمالهم ،  
 إذ هم كانوا لا ينتظرون يوم الحساب ، ومن ثم اقترفوا السيئات ، وارتكبوا مختلف  
 المعاصى ، وكذبوا الدلائل التى أقامها الله على صدق رسوله أشدّ التكذيب ، وقد  
 أحصى الله كل شىء فى كتاب علمه ، فلم يغب عنه شىء صدر منهم ، وسيوفهم  
 جزاء ما صنعوا ، وستكون له كلمة الفصل ، فيقول لهم : « ذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَ كُمْ  
 إِلَّا عَذَابًا » .

### الإيضاح

(إن يوم الفصل كان ميقاتاً) أى إن يوم القيامة وقت وميعاد للأولين والآخرين  
 يثابون فيه أو يعاقبون ، ويتمايزون فيه ويكونون مراتب ودرجات بحسب أعمالهم كما  
 قال : « وَامْتَأَنُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ » .

وقد جعله الله حداً تنتهى عنده الدنيا ، وتجتمع فيه الخلائق ، ليرى كل امرئ ما ندمت يده ، فيجازى الحسن بإحسانه ، ويعاقب المسيء بإساءته .

ثم بين هذا اليوم وزاد في تفخيمه وتهويله فقال :

(يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا) أى يوم ينفخ في الصور فتحيون وتبعثون من قبوركم وتأتون إلى الموقف من غير تلبث ، وإمام كل أمة رسولها كما قال سبحانه «يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ» .

(وفتحت السماء فكانت أبواباً) أى وانشقت السماء وتصدعت ، وقد جاء نحو هذا في آيات كثيرة كقوله : «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ» ، وقوله : «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ» وقوله : «وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ» .

ذاك أنه يحصل اضطراب في نظام الكواكب ، فيذهب التماسك بينها ، ولا يكون فيما يسمى سماء إلا مسالك وأبواب ، لا يلتقى فيها شيء بشيء ، وذلك هو خراب العالم العلوى ، كما يخرب الكون السفلى .

(وسيرت الجبال فكانت سراباً) أى إن الجبال لا تكون في ذلك اليوم على ثباتها المعروف ، بل يذهب ما كان لها من قرار وتعود كأنها سراب يرى من بعد ، فإذا قربت منه لم تجد شيئاً ، لتفرق أجزائها وانثاث جواهرها .

والخلاصة — إنه سبحانه ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة ، فذكر أول أحوالها وهو الاندكاك بقوله : «وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً»

ثم ذكر أنها تصير كالمهن المنفوش كما قال : «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْمِهْنِ الْمَنفُوشِ»

ثم ذكر أنها تصير هباء كما قال : «وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا»

ثم ذكر أنها تنسف وتحملها الرياح كما جاء في قوله : «وَوَرَّى الْجِبَالُ تَحْسِبُهَا

جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» ، ثم ذكر أنها تصير سراباً ، أى لاشيء كما في هذه الآية .

و بعد أن عدّد وجوه إحسانه ، ودلائل قدرته على إرساله رسوله ، وذكر أن يوم الفصل بين الرسول ومعانديه سيكون يوم القيامة ، وبين أهوال هذا اليوم ، وامتنياز شؤنه وأحواله عن شئون أيام الدنيا وأحوالها — ذكر وعيد المكذبين و بيان ما يلاقونه فقال :

(إن جهنم كانت مرصدا) أى إن دار العذاب وهى جهنم مكان يرتقب فيه خزئتها من يستحقها بسوء أعماله ، وخبث عقيدته وفعاله .

وروى ابن جرير وابن المنذر عن الحسن أنه قال : لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار ، فإن كان معه جواز نجا ، وإلا احتبس .

(للطاغين مآب) أى إنها مرجع للذين طغوا وتكبروا ولم يستمعوا إلى الداعى الذى جاءهم بالهدى ونور الحق .

و بعد أن ذكر أن جهنم مستقرهم بين مدة ذلك فقال :

(لا يثين فيها أحقابا) أى إنهم سيمكثون فيها دهوراً متلاحقة يتبع بعضها بعضا فكما انقضى زمن تجدد لهم زمن آخر كما قال : « يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » .

ثم بين أحوالهم فيها فقال :

(لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميا وعساقا) أى لا يذوقون فى جهنم بردا يبرد حر السمير عنهم إلا العساق ، ولا شرابا يرويههم من شدة العطش إلا الحميم ، فهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريج باردة ، أو ظل يمنع من نار ، ولا يجذون شرابا فيسكن عطشهم ، ويزيل الحرقه من بواطنهم ، ولكن يجذون الماء الحار المغلى ، وما يسيل من جلودهم من الصديد والقبيح والعرق ، وسائر الرطوبات المستفزة .

والخلاصة — إنهم لا يذوقون فيها شرابا إلا الحميم البالغ الغاية فى السخونة ، أو الصديد المنتمن ، ولا برداً إلا الماء الحار المغلى .

(جزاء وفاقا) أى إنه تعالى ينزل بهم شديد عقابه من جِراء أنهم أتوا بفضيح المعاصى ، فيكون العقاب وَفَقَ الذنب ومقداره كما قال : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » .

قال مقاتل : وافق العذاب الذنب ، فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النار . وقال الحسن وعِكْرِمَةُ : كانت أعمالهم سيئة فأناهم الله ما يسوءهم . وبعد أن بين على طريق الإجمال أن هذا الجزاء الذى أعد لهم كان وَفَقَ جُرْمَهُمْ — فصل أنواع جرائمهم فذكر أنها نوعان فقال :

(١) (إنهم كانوا لا يرجون حسابا) أى لإنهم فعلوا من القبائح ما فعلوا ، واجترحوا من السيئات ما شاءت لهم أهواؤهم ، لأنهم ما كانوا ينتظرون يوم الحساب ولا يتوقعونه .

ورغبة المرء فى فعل الخيرات ، وترك المحظورات ، إنما تكون غالبا لاعتقاده أنه ينتفع بذلك فى الآخرة ، فمن كان منكرا لها لا يقدم على شيء مما يحسن عمله ، ولا يحجم عن أمر مما يقبح .

(٢) (وكذبوا بآياتنا كذبا) أى وكذبوا بجميع البراهين الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد وجميع ما جاء فى القرآن .

والخلاصة — إنهم أقدموا على جميع المنكرات ، ولم يراعوا عن فعل السيئات وأنكروا بقلوبهم الحق واتبعوا الباطل .

وبعد أن بين فساد أحوالهم العملية والاعتقادية — أرشد إلى أنها فى مقدارها وكيفيتها معلومة له تعالى لا يغيب عنه شيء منها فقال :

(وكل شيء أحصيناه كتابا) أى إنا علمنا جميع ما عملوا علما ثابتا لا يعتره تغيير ولا تحريف ، فلا يمكنهم أن يجحدوا شيئا مما كانوا يصنعون فى الحياة الدنيا حين يرون ما أعد لهم من أنواع العقوبات ، لأننا قد أحصينا ما فعلوه إحصاء لا يزول منه شيء ولا يغيب ، وإن غاب عن أذهانهم ونسوه كما قال : « أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ »

وإنما قيل ( كتابا ) دون أن يقال ( إحصاء ) لأن الكتابة هي النهاية في قوة العلم بالشيء ، فبن من يريد أن يحصى كلام متكلم حتى لا يغيب منه شيء عمد إلى كتابته ، فكانه تعالى يقول : « وكل شيء أحصيناه إحصاء يساوى في ثباته وضبطه ما يكتب » .

وبعد أن بين قبائح أفعالهم لكفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات — رتب عليه هذا الجزاء فقال :

( فذوقوا فإن نزيدكم إلا عذابا ) أى فذوقوا ما أتم فيه من العذاب الأليم ، فلن نزيدكم إلا عذابا من جنسه كما قال : « وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » .

روى قتادة عن عبد الله بن عمرو أنه قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » .

ذاك أن فيها تقر بما وتو بيخا لهم في يوم الفصل ، وغضبا من أرحم الراحمين ، وتبئيسا لهم من العفران .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣)  
وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ  
رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا (٣٦) .

### شرح المفردات

مفازا : أى فوزا بالنعيم والثواب ، حدائق : أى بساتين فيها أنواع الثمر والشجر وأعنابا : واحدها عنب ، وكواعب : واحدها كاعب ، وهى التى نهد ثدياها وتكعبها ، والأتراب : واحدهن ترب ، وهى التى سننها من سن صاحبيتها ، والكأس : إناء من بلور للشرب ، دهاقا : أى ممتلئة ؛ يقال أدهق الحوض : أى ملأه . قال خدش ابن زهير :

أَتَانَا عَامِرٌ يَبغِي قِرَانَا فَاتْرَعْنَا لَهُ كَأَسَادِهَاقَا

واللعو: الباطل من الكلام ، والكذاب : التكذيب ، عطاء : أى تفضلا منه وإحسانا ، حسابا : أى كافيا لهم ، تقول أعطاني فلان حتى أحسبني : أى حتى كفاني بعطائه . قال :

فَمَا حَلَلْتُ بِهِ ضَمَنِي فَأَوْلَى جَمِيلًا وَأَعْطَى حِسَابًا  
أَيْ أَعْطَى مَا كَفَى .

### المعنى الجملى

بعد أن بين حال المكذبين ، أردفه ما يفوز به المتقون من الجنات التى وصفها ووصف ما فيها ، وذكر أنها عطاء من الله تعالى ، وفى هذا استنهاض لموالى المهمم ، بدعوتهم إلى المثابرة على أعمال الخير ، وازديادهم من القربات والطاعات ، كما أن فيها إيلا ما لأنفس الضالين المكذبين .

### الإيضاح

( إن للمتقين مفازاً ) أى إن لمن اتقى محارم الله وخاف عقابه فوزاً بالكرامة والثواب العظيم ، فى جنات النعيم .  
ثم فسر هذا الفوز وقضله فقال :

( حدائق وأعناب ) أى بساتين من النخيل والأعناب ومختلف الأشجار ، لها أسوار محيطة بها ، وفيها الأعناب اللذيذة الطعم ، مما تشبهها النفوس ، وتقرّ به العيون .

وقد أفردت بالذكر وهى مما يكون فى الحدائق عناية بأمرها كما جاء فى قوله :  
« مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » .  
ثم وصف ما فى الحدائق والجنات فقال :

(وكواعب أترابا) أى وحوراً كواعب لم تتدلّ تُدثهن ، وهنّ أبكار عُرب  
أتراب .

والتمتع بالنساء على هذه الشاكلة مما يتمله المرء فى الدنيا على نحو من اللذة ، وإن  
كنّا لا نعلم كنهه فى الآخرة ، وعلينا أن نؤمن به ، وأنه تمتع يفوق ما هو مثله من  
لذات هذه الحياة ، وأنه يشا كل أحوال العالم الأخرى .

(وكأسا دهاقا) أى وكأساً من الخمر مترعة ملاءى متتابعة على شاربيها .

(لا يسمعون فيها لعوا ولا كذآيا) أى لا يجرى بينهم حين يشربون — لغو  
الكلام ولا يكذب بعضهم بعضاً ، كما يجرى بين الشرب فى الدنيا ، لأنهم إذا  
شربوا لم تفتر أعصابهم ، ولم تتغير عقولهم كما قال تعالى : « لا يصدعون عنها ولا  
يُنزفون » ، واللغو والتكذيب مما تألم له أنفس الصادقين المخلصين .

ولما ذكر أنواع النعيم بين أن هذا جزاء لهم على ما عملوا ، وتفضل منه  
سبحانه فقال :

(جزاء من ربك عطاء حساباً) أى جاراهم الله به وأعطاهموه بفضله وإحسانه  
عطاء كافياً وافياً .

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ  
خِطَاباً (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ  
لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ  
مَنَابًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ  
وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠) .

## شرح المفردات

الخطاب : المخاطبة والمكلمة ، الروح : جبريل عليه الصلاة والسلام ، والمآب : المرجع ، والإنذار : الإخبار بالمكروه قبل وقوعه ، والمرء : الإنسان ذكراً كان أو أنثى ، ما قدمت يداه : أى ما صنعه فى حياته الأولى .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن يوم القيامة موعده للفصل بين الخلائق ، وتنتهى به أيام الدنيا ، وأن دار العذاب معدة للكافرين ، وأن الفوز بالنعيم للمتقين ؛ أعقب ذلك بأن هذا يوم يقوم فيه جبريل والملائكة صفاءً صفاً لا يتكلمون إلا إذا أذن لهم ربهم وقالوا قولاً صحيحاً .

ثم أتبعه بأن هذا اليوم حق لا ريب فيه ، وأن الناس فيه فريقان : فريق بعيد من الله ومرجعه إلى النار ، وفريق مآبه القرب من الله ومنازل الكرامة ؛ فمن كانت له مشيئة صادقة ، فليتخذ مآباً إلى ربه ، وليعمل عملاً صالحاً يقربه منه ، ويحمله محل كرامته .

ثم عاد إلى تهديد المعاندين وتحذيرهم من عاقبة عنادهم ، وأنهم سيعلمون غداً ما قدمته أيديهم ويرونه حاضراً لديهم ، وحينئذ يندمون ، ولات ساعة مندم ، ويبلغ من أمرهم أن يقولوا : ليتنا كنا تراباً لم نصب حظاً من الحياة .

## الإيضاح

(رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً) أى إنه سبحانه المسالك لشئونهما ، المدير لأمرهما ، ولا يملك أحد من أهلها مخاطبته تعالى بالشفاعة إلا بإذنه .

ثم أكد هذا وقرره بقوله :

(يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) أى إن الملائكة على جلاله أقدارهم ، ورفيع درجاتهم لا يستطيعون أن يتكلموا فى هذا اليوم ، إجلالاً لربهم ، ووقوفاً عند أقدارهم ، إلا إذا أذن لهم ربهم ، وقالوا قولاً صدقاً وصواباً .

وفى الآية دلالة على أنهم مع قربهم من ربهم لا يستطيع أحد منهم أن يشفع لأحد أو يطلب منحة إلا بعد أن يأذن له ربه ، ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب ، لأنه يقول الصواب ، وإنما يكون الكلام ضرباً من التكريم لمن يأذن له ويختص به ، ولا أثر له فيما أرادته البتة .

والملائكة مخلوقات غيَّبها الله عنا ، ولم يجعل لنا قدرة على رؤيتها ، فعلينا أن نؤمن بها وإن لم نرها ، ونصدق بما جاء فى كتابه من أوصافها غير باحثين عن حقيقتها .

وبعد أن ذكر أحوال المكلفين فى درجات الثواب والعقاب ، وبين عظمة يوم القيامة - أردف ذلك بيان أن هذا اليوم حق لا ريب فيه فقال :

(ذلك اليوم الحق) أى ذلك اليوم متحقق لا ريب فيه ولا مفر منه ، وأنه يوم تبلى فيه السمائر ، وتنكشف فيه النضائر ، أما أيام الدنيا فأحوال الخلق فيها مكتوبة ، وضائرهم غير معلومة .

(فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً) أى فمن شاء عمل صالحاً يقربه من ربه ، ويدنيه من كرامته وثوابه ، ويباعد بينه وبين عقابه .

ثم زاد فى تحذير الكفار وإنذارهم فقال :

(إنا أنذرتناكم عذاباً قريباً) أى إنا نحذركم عذاب يوم القيامة وهو قريب ، لأن كل ما هو آت قريب كما قال : « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » .

وإنهم ليجدون مقدماته إذا فارقت الروح البدن ، فإنه يتكشف لهم ما كان ينتظروهم ، ولا يزالون منه في ألم إلى أن يلاقوا ربهم .

(يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) أى هذا العذاب القريب يوم ينظر المرء ما صنعه في حياته الأولى من الأعمال ، فإن كان قد آمن بربه وعمل عمل الأبرار فطوبى له وحسن مأب ، وإن كان قد كذب به وبرسوله فله الويل وأليم العذاب .

ونحو الآية قوله تعالى : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا » .

(ويقول الكافر باليتنى كنت ترابا) أى ويقول الكافر من شدة ما يلقي ومن هول ما يرى: ليتنى كنت ترابا ، يريد: ليتنى لم أكن من المكلفين ، بل كنت حجرا أو ترابا لايجرى عليه تكليف حتى لايعاقب هذا العقاب .

وفي الآية إيماء إلى ما يكون عليه المؤمنون من الاستبشار والسرور بما رأوه .  
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

### ما اشتملت عليه هذه السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على الموضوعات الآتية :

- (١) سؤال المشركين عن البعث ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام .
- (٢) تهديد المشركين على إنكارهم إياه .
- (٣) إقامة الأدلة على إمكان حصوله .
- (٤) أحداث يوم القيامة .
- (٥) ما يلاقيه المكذبون من العذاب .
- (٦) فوز المتقين بمجنات النعيم .
- (٧) إن هذا اليوم حق لا ريب فيه .
- (٨) إنذار الكافرين بالعذاب الأليم وتمنيهم في ذلك اليوم أن لو كانوا ترابا .

## سورة النازعات

هى مكية ، وآياتها ست وأربعون ، نزلت بعد سورة النبأ .  
 ووجه اتصالها بما قبلها أنه هناك أُنذِر بالعذاب يوم القيامة - وهنا أقسم على أن  
 البعث حق لا ريب فيه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣)  
 فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦)  
 تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩)  
 يَقُولُونَ: أَأَنَّا لَمُرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أُنْذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١)  
 قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا  
 هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) .

## شرح المفردات

والنازعات : أى الكواكب الجارية على نظام معين فى سيرها كالشمس  
 والقمر ، يقال نزعت الخليل : إذا جرت ، غرقا : أى مجدة مسرعة فى جريها ، لتقطع  
 مسافة فلكها حتى تصل إلى أقصى المغرب ، والناشطات نشطا : أى الخارجات من  
 برج إلى برج ، من قولهم : نشط النور إذا خرج ، والسابحات سبحا : أى السائرات  
 فى أفلاكها سيرا هادئا لا اضطراب فيه ولا اختلال ، وقد جعل مرورها فى جوائها  
 كالسبح فى الماء كما جاء فى قوله : « وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » والسابقات سبقا :

أى السرعات عن غيرها فى سببها ، فتم دورتها حول ما تدور عليه فى مدة أسرع مما يتم غيرها كالقمر فإنه يتم دورته فى شهر قمرى ، والأرض تتم دورتها فى سنة شمسية ، وهكذا غيرها من السيارات السريعة ، ومنها ما لا يتم دورته إلا فى سنين ، فالمدبرات أصرا : أى فالكواكب التى تدبر بعض الأمور الكونية فى عالمنا الأرضى بظهور بعض آثارها ، فسبق القمر علمنا حساب شهره ، وله الأثر العظيم فى السحاب والمطر وفى البحر من المد والجزر ، ولضياءه حين امتلائه فوائده فى تصريف منافع الناس والحيوان ، وسبق الشمس فى أبراجها علمنا حساب الشهور ، وسبقها إلى تميم دورتها السنوية علمنا حساب السنين ، وخالف بين فصول السنة ، واختلاف الفصول من أسباب حياة النبات والحيوان ، وقد نسب إليها التدبير ، لأنها أسباب ما نستفيد منها ، والمدبر الحكيم : هو الله تعالى جل شأنه .

وترجف : أى تضطرب وتتحرك ، والراجلة : الأرض بمن عليها ، والرادفة : السماء وما فيها تردفها وتتبعها ، فإنها تنشق وتنثر كواكبها ، الواجفة : أى الشديدة الاضطراب ، خاشعة : أى ذليلة ، الحافرة : الحياة الأولى ، أى الحياة بعد الموت وقد ظنوها حياتهم الأولى ، يقال رجع فى حافرته : أى فى طريقه التى جاء فيها ، والنخرة : البالية الجوفاء التى تمر فيها الرياح ، والكرة : الرجعة ، من الكرت ، وهو الرجوع ، والخامرة : هى التى يخمر أصحابها ولا يرحون ، والزجرة : الصيحة ، والمراد بها النفخة الثانية يبعث بها الأموات ، والساهرة : الأرض البيضاء المستوية ، لأن السراب يجرى فيها ، وسميت بذلك لأن شدة الخوف التى تعترى من عليها تُطير النوم من أعينهم فلا يذوقون نوما ، فهى ساهرة : أى ساهر من عليها .

### المعنى الجملى

بدأ سبحانه هذه السورة بالخلف بأصناف من مخلوقاته - إن ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم من أمر البعث وعرض الخلائق على ربهم ، لينال كل عامل

جزاء عمله - حق لاريب فيه في يوم تعظم فيه الأهوال ، وتضطرب القلوب ،  
وتخضع الأبصار ، ويعجب المبعوثون من عودتهم إلى حياتهم الأولى بعد أن كانوا  
عظاما نخرة تمر فيها الرياح ، ويتحتمون أن صفتهم كانت خامسة ، إذ أنهم أنكروا  
في الدنيا معادهم ، ويجابون على تعجبهم بالألحاح أن الإحياء صعب على الله ،  
فما الأمر عنده إلا صيحة واحدة ، فإذا الناس جميعا ظاهرون في أرض المعاد .

لوتدرنا أمر القسّم ببعض المخلوقات في الكتاب الكريم لوجدناه يرجع  
إلى أحد أمرين :

(١) أن تكون هذه المخلوقات قد عظمت في أعين بعض الناس ، وقوى  
سلطانها في نفوسهم ، حتى عبدوها واتخذوها آلهة من دون الله كالشمس والقمر  
في نحو قوله : « وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا » وقد ذكر سبحانه بجانب  
ذلك بعض صفاتها الدالة على أنها مخلوقة له كتغيرها من حال إلى حال ، وما يطرأ  
عليها من الأفول والزوال ، مما لا يكون من شأن الآلهة المستحقة للعبادة .

(٢) أن تكون مما احتقره الناس لفتنهم عن فائدته ، وذهولهم عن موضع  
العبرة فيه ، ولو أنهم تدبروا فيما هو عليه من جليل الصنعة ، وبدع الحكمة لاهتدوا  
إلى معرفة خالقه ، ونعموه بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال .

فأقسم سبحانه على التوحيد في قوله : « وَالصَّافَّاتِ صَفًّا . فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا .  
فالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا . إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ » .

وأقسم على أن الرسول حق بقوله : « وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .  
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

وأقسم إن القرآن حق في قوله : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ  
لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » .

وحلف إن الجزاء حق ، وإن الناس سييمثون إلى ربهم ، وإن كلامهم سيلقى جزاء عمله كما قال : « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا . فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا . فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا . فَالْمُتَسَمِّاتِ أَمْرًا . إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ » .

## الإيضاح

(والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والساجحات سبحا . فالساقات سبحا . فالمدبرات أمرا) افتتح سبحانه هذه السورة بالقسم بالكواكب والنجوم والشموس والأقمار ، إظهارا لعظم شأنها ، وإتقان نظامها ، وغزارة فوائدها ، وأنها مسخرة لبارئها ، خاضعة لأمره - لتبعين بعد الموت ، ويدل على هذا ما حكاه عنهم بعد من قولهم : «أُنْذَا كُنْذًا عِظَامًا نَحْرَةً ؟» أى أنيئت إذا صرنا كذلك ؟ .  
(يوم ترجف الراجفة) أى حين تتحرك الأرض وتضطرب الجبال ، فيسمع لها صوت شديد .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ » .

(تتبعها الرادفة) أى تتلوها السماء بما فيها من كواكب ، إذ تنشق وتنتثر كواكبها إثر اضطراب الأرض وميّدانها .

عن أبي بن كعب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربيع الليل قام فقال : أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وغيرهم .

وعن أبي هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ترجف الأرض رجفا وتزلزل بأهلها ، وهى التى يقول الله فيها - يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ » .

(قلوب يومئذ واجفة) أى قلوب يومئذ مضطربة قلقة خائفة ، والمراد بها

قوب الكفار ، ذلك أنهم بعد أن عاينوا ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكره لهم ويشاهدونه في دنياهم ولم يؤمنوا به ، اضطرب نفوسهم ، مخافة أن يحل بهم ما أُنذروا به ، كما هي حال من تهدده بمقوبة إن لم يُقْلِع عن جرأه - يهلع قلبه إن شاهد بوادر التنفيذ .

( أبصارها خاشعة ) أى أبصار أصحابها خاشعة تظهر فيها الذلة والخوف .

وقد حكى الله عنهم أقوالا ثلاثة استبعدوا بها أمر البعث ، واستهزؤوا فيها بالرسول والمؤمنين :

(١) ( يقولون أننا لمردودون في الحافرة ؟ ) أى يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت : أننا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل المات ، فراجعون أحياء كما كنا قبل مماتنا ؟  
وتقول العرب لكل من كان في أمر ثم خرج منه ثم عاد إليه : قد رجع إلى حافرته : أى إلى أمره الذى كان فيه أولا .

(٢) ( أنذا كنا عظاما نخرجة ؟ ) أى أترد إلى الحياة بعد أن نصير عظاما بالية نولست لتفتت ؟

(٣) و ( قالوا تلك إذا كرة خاسرة ) أى إن صح ما قلتم من البعث يوم القيامة بعد أن نصير عظاما نخرجة ، فمنحن إذا خاسرون ، لأننا كذبنا به ولم نأخذ العدة له ، فياويلنا في هذا اليوم ! .

وهذا منهم استهزاء وتهكم ، اعتقادا منهم أن ذلك لن يكون .

وقد رد الله عليهم مقالهم بقوله :

(فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة) أى لا تستبعدوا ذلك وتظنوه عسيرا شاقاً علينا ، فإنما هي صيحة واحدة ، وهي النفخة الثانية التى يبعث الله بها الموتى فإذا الناس كلهم على سطح الأرض أحياء .

ونحو الآية قوله : « وَمَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَأْتِيهَا مِنْ قَوَاتِي » .

وخلاصة هذا — لا تحسبوا أن هذه الرجعة عسيرة شاقة علينا ، فما إعادتكم التي ظننتموها صعبة إلا أن نأمر ملكاً من ملائكتنا أن يصيح صيحة واحدة ، فإذا أتم جميعاً لدينا محضرون ، لا يتخلف منكم أحد ، ولا يستطيع التخلف إن أراد .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمَقْدَسِ طُوى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَخَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَارُبُكُمْ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦) .

### شرح المفردات

المقدس : أى المبارك المطهر ، والوادي المقدس : هو وادٍ بأسفل جبل طور سيناء من برية الشام ، طوى : وادٍ بين أثينة ومصر ، طغى : أى تجاوز الحد فتكبر على الله وكفر به . هل لك إلى كذا : أى هل ترغب فيه ، وتزكى : أى تتطهر من العيوب ، وأهديك : أى أدلك ، فتخشى : أى فتخاف ، والآية الكبرى : أى العلامة الدالة على صدقه في دعواه النبوة ، وهى انقلاب العصا حية ، أذبر : أى ترك

موسى ، يسمى : أى فى مكابذته ، فحشر : أى لجمع السحرة الذين فى بلاده ،  
والنكال : العذاب ، والآخرة : يوم القيامة ، والأولى : الدنيا .

### المعنى الجملى

بعد أن حكى عن كفار مكة إصرارهم على إنكار البعث وتماديهم فى العتوّ  
والظغيان ، واستهزأهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك يشق عليه ، ويصعب  
على نفسه - ذكر له قصص موسى مع فرعون طاغية مصر ، وبين له أنه قد بلغ  
فى الجبروت حدًا لم يبلغه قومك ، فقد ادعى الألوهية وأب قومه على موسى ، وكان  
موسى مع هذا كله يحتمل المشاقّ العظام فى دعوته إلى الإيمان - ليكون ذلك تسليّة  
لرسوله عما يلاقيه من قومه من شديد العناد وعظيم الإعراض ، يرشد إلى ذلك قوله :  
« فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » .

وفى ذلك عبرة أخرى لقومه - وهى أن فرعون مع أنه كان أقوى منهم شكيمة  
وأشد شوكة وأعظم سلطانا ، لما تمرد على موسى وعصا أمر ربه أخذه الله نكال  
الآخرة والأولى ، ولم يعجزه أن يهلكه ويجمله لمن خلفه آية ، فأنتم أيها القوم  
مهما عظمت حالكم وقوى سلطانكم لم تبلغوا مبلغ فرعون ، فأخذكم أهون على  
الله منه .

وفى هذا تهديد لهم وإنذار بأنهم إن لم يؤمنوا بالله ورسوله ، فسيصيبهم مثل  
ما أصاب فرعون وقومه كما قال فى آية أخرى : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ  
صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ  
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ  
بِهِ كَافِرُونَ » .

## الإيضاح

(هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى) أى ألم يبلغك حديث موسى مع فرعون وقومه ، وقد أمره الله بالتلطف في القول ، واللين في الدعوة إلى الحق ، إقامة للحجة ، والوصول من أقرب محجة ، كما جاء في سورة طه « قَقُولًا لَهُ قَوْلًا لَيْسًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » .

فاتبع نهجه ، واسلك سبيله ، يكن ذلك أقرب للفوز ببغيتك ، وبلوغ مطلبك كما فاز موسى وانتصر .

وكان ذلك حين ناداه ربه بالوادي المطهر المبارك من طور سيناء من برية الشام بعد مضي وقت من الليل .

ثم فصل هذه المناجاة بقوله :

( اذهب إلى فرعون إنه طغى ) أى اذهب له وعظه ، فإنه تجاوز الحد وتكبر على الله وكفر به ، وتجبر على بني إسرائيل ، واستعبدهم حتى بلغ من أمره أن ذبح أبناءهم واستحيا نساءهم .

ثم طلب إلى موسى أن يُبين له القول ليكون ذلك أنجح في الدعوة فقال :

( فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى ) أى فقل له : هل يرغب أن تطهر نفسك من الآثام التي انغمست فيها ، وتعمل بما أدلك عليه من طرق الخير ، وتبعد عما أنت فيه من اجتراح السيئات ، وتخشى عاقبة مخالفة أمر ربك ، حتى تأمن من عقابه ، إذا أدبت ما ألزمتك به من فرائضه ، واجتنبت ما نهاك عنه من معاصيه .

ثم ذكر أنه لم يخضع للدليل والبرهان ، ولم يقنع بما أدلى إليه موسى من حجة ، فاضطر إلى أن يظهر له دليلا يراه ويشاهده فقال :

( فأراه الآية الكبرى ) أى فلما لم يقنع بالدليل القولي أظهر له آية ودليلا يراه بعينه ، وهو انقلاب العصا حية ، ومع ذلك كذب الداعي ، وعصى سلطان البرهان ، وأظهر تمرده عليه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى) أى فكذب موسى ثم ولّى معرضاً عمادناه  
بإليه من طاعة ربه وخشيته ، وطفق يخبّ في المعاصى ويضع ، غير متدبر في عاقبة  
أمره ، ولا مفكر في غده .

(فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى) أى فجمع السحرة الذين هم تحت إمرته  
وسلطانه كما جاء في قوله : « وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَا نُؤُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ  
عَلِيمٍ » فقام فيهم يقول : « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى » فلا سلطان يعلو سلطاني ، ولم يزل  
في عتوه حتى تبع موسى وقومه إلى البحر الأحمر (بحر القلزم) عند خروجهم من  
مصر فأغرق فيه هو وجنوده ، وإلى ذلك أشار سبحانه بقوله :

(فأخذ الله نكال الآخرة والأولى) أى فنكل الله به ولم يكن ذلك النكال  
مقصوراً على ما عذب به في الدنيا من الفرق في البحر ، بل عذبه في الآخرة أيضاً  
في جهنم وبئس القرار .

(إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) أى إن فيها ذكر لموعظة لمن نه عقل يتدبر به  
في عواقب الأمور ومصايرها ، فينظر في حوادث الماضين ، ويقيس بها أحوال  
الحاضرين ليتعظ بها .

ءَأْتُمْ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءَ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨)  
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)  
أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ  
وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) .

### شرح المفردات

أشد خلقاً: أى أصعب إنشاء ، والبناء : ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض  
مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة ، والسك : قامه كل شيء ،

فسواها : أى جعل كل جزء موضوع فى موضعه ، أغطش ليلاها : أى أظلمه ، ضحاها : أى نورها وضياء شمسها ، دحاها : أى مهدها وجعلها قابلة للسكنى ، قال زيد بن عمرو ابن نُفَيْل :

وأسلت وجهى لمن أسلت له الأرض تحمل صخرًا ثقلا  
دحاها فلما استوت شددا بأيد وأرسي عليها الجبالا  
مرعاها : أى نباتها ، متاعا لكم : أى متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم .

### المعنى الجملى

بعد أن قص على المشركين قصص موسى عليه السلام مع فرعون وأوما بهذا القصاص إلى أنهم لا يعجزون الذى أخذ فرعون ونكل به وجعله عبرة للباقيين ، وسلى به رسوله حتى لا يحزن لتكذيب قومه له ، وعدم إيمانهم بما جاءهم به ، أخذ يخاطب منكرى البعث ، وينبئهم إلى أنه لا ينبغى لهم أن يجحدوه ، فإن بعثهم حين إذا أضيف إلى خالق السموات التى تدل بحسن نظامها وجلالها ، على حكمة مبدعها وعظيم قدرته ، وواسع حكمته ، وإلى خالق الأرض التى دحاها بعدها وجعلها معدة للسكنى ، وهياً فيها وسائل المعيشة للإنسان والحيوان ، فأخرج منها الماء الذى به حياة كل شىء وأنبت فيها النبات الذى به قوام الإنسان والحيوان .

### المعنى الجملى

(أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟) أى آأنتم أيها الناس وقد خلقتم من ماء مهين ضعافا عاجزين لا تملكون لأنفسكم نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة — أصعب إبداعا وإنشاء أم هذه السماء التى ترون خلقها ، وبديع تركيبها وعظمة شأنها ؟ .

إنكم لاتنازعون فى أنها أشد منكم خلقا ، ومع ذلك لم تعجز عن إبداعها ، فكيف تظنون أنا نعجز عن إعادتكم بعد موتكم ، يرشد إلى ذلك قوله : « نَخْلُقُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » وقوله : « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ » .

وفي هذا من التقرير والتوبيخ ما لا يخفى .

وبعد أن أشار إلى عظم خلق السموات إجمالاً شرع يبين ذلك تفصيلاً فقال :  
( بناها . رفع سمكها فسواها ) أى ضم أجزاءها المتفرقة وربطها بما يمسكها حتى  
حصل عن جميعها بنية واحدة ، فقد أبدع في خلق الكواكب وجعل كل كوكب  
منها على نسبة من الآخر ، وجعل لكل منها ما يمسكه في مداره حتى كان من مجموعها  
ما يشبه البناء وهو ما نسميه بالسماء .

وقد جعلها ذاهبة في العلوّ صُعُداً ، وعدّها فوضع كل جزء منها في موضعه الذى  
يستحقه ويحسن أن يكون فيه .

( وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ) أى وجعل ليلها مظلمة بمغيب كواكبها ، وأبرز  
نهارها ، وعبر عن النهار بالضحى ، لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وفيه من انتماش  
الأرواح ما ليس في سائرها .

وتعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول التابع لحركة بعض السيارات يهيب  
الأرض للسكنى ومن ثم قال :

( والأرض بعد ذلك دحاها ) أى ومهد الأرض بعد ذلك وبسطها للسكنى ،  
وسير الناس والأنعام عليها ، وقد كانت مخنوقة غير مدحوة قبل ذلك ، فلا تخالف  
هذه الآية ما جاء في سورة السجدة من قوله : « أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ  
الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رِوَابِي  
مِنْ قَوْفِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ . ثُمَّ  
اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا  
أَتَيْنَا طَائِعِينَ » .

فإن هذه الآية تدل على أن خلق السموات كان بعد خلق الأرض ، والآية التي نحن بصدها تشير إلى أن الله تعالى دحا الأرض ومهدا لسكنى الناس بعد أن خلق السماء .

فالأيتان ترشدان إلى أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ثم خلق السموات بعد ذلك ، ثم عاد إلى الأرض فمهدا ودحاها ، فأية السجدة حكاية للخلق الأول ومبدئه وهذه الآية حكاية للإصلاح الذي كان بعد الخلق .

ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتى سكنائها من أمر الماء كل والمشارب وإمكان التقرار عليها فقال :

( أخرج منها ماءها ومرعاها ) أى فَجَّرَ منها العيون والينابيع والأنهار ، وأنبت فيها النبات سواء أكان قوتا لبني آدم كالحب والتمر ، أم قوتا للأنعام والماشية كالغشب والحشيش .

( والجبال أرساها ) أى وثبتت الجبال فى أماكنها وجعلها كالأوتاد ، لثباتها بأهلها وتضطرب بهم .

ثم بين الحكمة فى ذلك فقال :

( متاعاً لكم ولأنعامكم ) أى إنما جعلنا ذلك كله ، ليعتمتع به الناس والأنعام من الإبل والغنم والبقر .

ونحو الآية قوله : « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً نَكُمُ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ » .

أفلا يكون خالقكم وواهبكم ما به تحميون ، ورافع السماء فوقكم ، ومهد الأرض تحتكم - قادراً على بعثكم ؟ وهل يليق به أن يترككم سدى بعد أن دبر أمركم هذا التدبير المحكم ، ووفّر لكم هذا الخير الكثير ؟

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ  
 مَا سَمَى (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧)  
 وَأَمَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ  
 خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ  
 الْمَأْوَى (٤١) .

### شرح المفردات

الطامة الكبرى : أى الداهية العظمى التى تطمّ على الدواهي أى تغلب وتعلو ،  
 وهى النفخة الثانية التى يكون معها البعث فاله ابن عباس ، وبُرِّزَتِ الجحيم : أى  
 كانت فى مكان بارز يراها كل من له عينان ، طغى : أى تكبر وتجاوز الحد ،  
 آثر : أى قدّم وفضل ، المأوى : المستقر ، مقام ربه : أى جلاله وعظمته ، ونهى  
 النفس عن الهوى : أى زجرها وكفها عن هواها المردي لها بميلها إلى الشهوات .

### المعنى الجملى

بعد أن بيّن أنه تعالى قادر على نشر الأموات كما قدر على خلق الأكون ، بين  
 صدق ما أوحى به إلى نبيه من أن ذلك اليوم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين ،  
 كأن لا بد منه ، فإذا جاءت طامته الكبرى التى تفوق كل طامة حين تعرض  
 الأعمال على العالمين ، فيتذكر كل امرئ ما عمل ، ويظهر الله الجحيم وهى دار  
 العذاب للعيان فيراها كل ذى بصر ، فى ذلك اليوم يوزع الجزاء على العالمين ؛ فأما  
 من تجاوز الحدود التى حددها الله فى شرائعه ، وفضل لذائد الدنيا على ثواب الآخرة  
 فدار العذاب مستقره ومأواه ؛ وأما من خاف مقامه بين يدى ربه فى ذلك اليوم ،

وزجر نفسه عن هواها ، فلم تجر وراء شهواتها فالجنة منزله ومأواه ، جزاء ما قدمت يداه .

## الإيضاح

( فإذا جاءت الطامة الكبرى ) أى فإذا حل ذلك اليوم الذى تشيب من هوله الولدان ، وتشاهد فيه النار ، فينسى المرء كل هول دونها — فصل الله بين الخلاق ، فأدخل الطائعين الأبرار الجنة ، وأدخل المتمردين العصاة النار .  
وقد وصف هذا اليوم بوصفين :

(١) ( يوم يتذكر الإنسان ما سعى ) أى حين يرى الإنسان أعماله مدونة في كتابه وكان قد نسيها فتعاوده الذكرى ، كما قال سبحانه : « أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ » .  
(٢) ( وبرزت الجحيم لمن يرى ) أى وأظهرت النار حتى يراها كل ذى عينين سواء منهم المؤمن والكافر ، سوى أنها تكون مقرًا للكافرين ، وينجى الله المؤمنين .

والخلاصة — إذا جاء ذلك اليوم فصل الله بين الخلاق كما فصله بعد بقوله :  
( فأما من ظنى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هى المأوى ) أى فأما من تكبر وتجاوز الحد وآثر لذات الحياة الدنيا ، وشهواتها على ثواب الآخرة ، فالنار مشواه ومستقره .

( وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى )  
أى وأما من حذر وقوفه بين يدى ربه يوم القيامة ، وأدرك مقدار عظمته وقهره ، وغلبة جبروته وسطوته ، وجنب نفسه الوقوع فى محارمه ، فالجنة مشواه وقراره  
وقد ذكر سبحانه من أوصاف السعداء شيئين يضافان لأوصاف الأشقياء :

(١) فقوله : « خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » يقابل قوله : « طَعَى » وقوله : « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى » يضاف قوله : « وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » وقد مدح الحكماء

مخالفة الهوى فقالوا : إذا أردت الصواب فاطر هواك فخالفه . وقيل لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء وبعض الصديقين . وقيل :

نخالف هواها واعصها إن من يطع هوى نفسه تنزع به كل منزع  
ومن يطع النفس اللجوجة تُردّه وترم به فى مصرع أى مصرع

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ  
ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥)  
كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) .

### شرح المفردات

الساعة : هى ساعة يبعث الله الخلائق من قبورهم ، وهى يوم القيامة ، أيان : أى متى ، مرساها : أى إرساؤها ، وإفامتها: أى حصولها ، فيم أنت من ذكراها : أى فى أى شىء أنت من أن تذكر لهم وقت حصولها ، وتبين لهم الزمان المعين لوقوعها ، إلى ربك منتهاها : أى إن منتهى علم حصولها عند ربك لم يؤتة أحدا من خلقه ، واللبث : الإقامة ، والعشية : طرف النهار من آخره ، والضحى : طرفه من أوله .

### المعنى الجملى

كان المشركون يسألون الرسول عنادا واستهزاء عن الساعة ، ويطلبون إليه أن يعجل بها كما يرشد إلى ذلك قوله : « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا » وربما سأله عن تحديد وقتها ، فكان : « صلى الله عليه وسلم يردد فى نفسه مايقولون ، ويتمنى لو أمكن أن يجيب عما يسألون ، كما هو شأن الحريص على الهداية ، المجدد فى الإقناع — فنهاه الله عن تمنى ما لايرجى ، وأبان له أنه لا حاجة لك إلى ذلك ،

فإن علمها عند ربك ، وإنما شأنك أن تنذر من يخافها فتنبهه من غفلته ، حتى يستعد لما يلتاق حينئذ ؛ أما هؤلاء المعاندون فدعهم في غوايتهم ، ولا تشغل نفسك بالجواب عما يسألون ، فإذا جاء هذا اليوم خيّل إليهم أنهم لم يلبثوا من يوم خلقوا إلى يوم البعث إلا طرفا من نهار أوله أو آخره ، ولم يلبثوا نهارا كاملا لمفاجأتها لهم على غير استعداد لوقوعها .

## الإيضاح

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها؟) أى يسألك أيها الرسول هؤلاء الكاذبون بالبعث عن الساعة التي تبعث فيها الموتي من قبورهم ، متى قيامها وظهورها ؟  
(فيم أنت من ذكراها؟) أى ماهذه الذكري الدائمة لها ، وما هذا الاهتمام الذى جعلك لاناؤها فى السؤال عنها ؟ .

روى عن عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت هذه الآية » .

وتلخيص المعنى — لا تشغل نفسك بهذا الأمر ، ولا تكلفها عناء البحث عنه ، واستكنه أسراره ، ومعرفة ما حجبه الله عن خلقه من شأنه .

(إلى ربك منتهاها) أى إلى ربك ينتهى علم الساعة ، فلا يعلم وقت قيامها غيره ، ولم يعطه ملك مكرم ، ولا نبي مرسل .

(إنما أنت منذر من يخشاها) أى إنما أنت رسول مبعوث للإنذار والتخويف ، وتحذير الناس من المعاصى والقبائح ، ولم تكلف علم وقتها ؛ فدع علم مالم تكلف به ، واعمل ما أمرت به من إنذار من أمرت بإنذاره .

ونحو الآية قوله: « إِنَّمَا عَلِمَتْهُمَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّبُهُمَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ » وقوله: « إِنَّ اللَّهَ

عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » ثم قرر ما دل عليه الإنذار من سرعة مجيء النذر به ، فقال :

( كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ) أى إن هذا اليوم الذى لجوا فى إنكاره سيقع البتة ، ويرونه بأعينهم ، فإذا عاينوه حسبوا أنهم لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار ثم انقضت .

والخلاصة — إنهم ظنوا أنهم لم يلبثوا إلا عشية يوم أو ضحى تلك العشية ، وتقول العرب : آتيتك العشية أو غداتها ، وآتيتك الغداة أو عشيتها ؛ والمراد أنهم يستقصرون مدة لبثهم ، ويزعمون أنهم لم يلبثوا إلا قدر آخر نهار أو أوله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

### موضوعات السورة الكريمة :

- (١) إثبات البعث .
- (٢) مقالة المشركين فى إنكاره والردّ عليهم .
- (٣) قصص موسى مع فرعون، وفيه تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم .
- (٤) إقامة الدرهان على إثبات البعث .
- (٥) أهوال يوم القيامة .
- (٦) الناس فى هذا اليوم فريقان : سعداء وأشقياء بحسب أعمالهم فى الدنيا .
- (٧) سؤال المشركين عن الساعة وميقاتها .
- (٨) نهى الرسول عن البحث عنها واشتغاله بأمرها .
- (٩) ذهول المشركين من شدة الهول عن مقدار ما لبثوا فى الدنيا .

## سورة عبس

هي مكية ، وآياتها ثنتان وأربعون ، نزلت بعد سورة النجم .  
ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر هناك أنه منذر من يخشاها — وذكر هنا من  
ينفعه الإنذار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يُزَكِّي (٣)  
أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ اللَّهُ كَرِي (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦)  
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩)  
فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) .

## شرح المفردات

عبس : أى قطب وجهه من ضيق الصدر ، وتولى : أى أعرض ، أن جاءه  
الأعمى : أى لأجل أن جاءه ، وما يدريك : أى أى شئ يعرفك حال هذا الأعمى ؟  
يزكى : أى يتطهر بما يلقن من الشرائع ، يذكر : أى يتعظ ، استغنى : أى بماله  
وقوته عن سماع القرآن ، تصدى : أى تتعرض بالإقبال عليه ، يسعى :  
أى يسرع ، يخشى : أى يخاف من الغواية ، تلهى : أى تتغافل .

## المعنى الجملى

نزلت هذه السورة في ابن أم مكتوم عمرو بن قيس ابن خال خديجة ، وكان أعمى  
وهو من المهاجرين الأوائل . استخلفه صلى الله عليه وسلم على المدينة يصلى بالناس  
مرارا ، وكان يؤذن بعد بلال .

وكان من حديثه أن أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ومعه صناديد قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأممية بن خلف، والوليد بن المغيرة، يدعوم للإسلام، ويذكركم بأيام الله، ويحذرم بطشه وجبروته، ويعدهم أحسن الثوبة إن أسلموا، وهو شديد الحرص على أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه؛ لأنه يعلم أن سيُسلم بإسلامهم خلق كثير، إذ بيدهم مقادة العرب.

فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله أفرئتني وعلمني مما علمك الله، وكر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم، فكره الرسول قطعه لكلامه، وظهرت في وجهه الكراهة، فعبس وأعرض عنه.

وقد عاتب الله نبيه بأن ضعف ذلك الأعمى وفقره لا ينبغي أن يكون باعثاً على كراهة كلامه والإعراض عنه، لأن ذلك يورث انكسار قلوب الفقراء، وهو مطالب بتأليف قلوبهم كما قال: «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ» وقال: «وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا».

ولأنه كان ذكياً الفؤاد إذا سمع الحكمة وعابها، فيتطهر بها من أضرار الآثام، وتصفو بها نفسه، أو يذكركم بها ويتعظ فتتنفعه العظة في مستأنف أيامه.

أما أولئك الأغنياء فأكثرهم جحدة أغنياء، فلا ينبغي التصدي لهم، طمأناً في إقبالهم على الإسلام، لئيبهم غيرهم.

وقوة الإنسان إنما هي في ذكاء لبه، وحياة قلبه، وإذعابه للحق متى لاحت له أماراته؛ أما المال والنشب، والحشم والأغوان فهي عواريج تجمء وترهمل، وتقر حيناً ثم تنتقل.

والخلاصة — إنه سبحانه عاتب نبيه وأمره بأن يُقبِلَ على ذى العقل الذكى،  
ونهاه أن ينصرف عنه إلى ذى الجاه القوى، فان الأول حتى بطبعه، والثانى غائب  
عن حسّه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآيات يُكرِّم ابن أم مكتوم  
ويقبل عليه ويتفقده، ويقول له إذا رآه : أهلا بمن عاتبني فيه ربى، ويسأله هل  
لك حاجة ؟

## الإيضاح

(عسى وتولى. أن جاءه الأعمى) أى قطب الرسول صلى الله عليه وسلم وجهه  
وأعرض، لأن جاءه الأعمى وقطع كلامه .

وفى التعبير عنه بالأعمى إشعار بعذره فى الإقدام على قطع كلامه صلى الله عليه  
وسلم حين تشاغله بالقوم، وقد يكون ذلك لذكر العلة التى اقتضت الإعراض عنه،  
والتعميس فى وجهه؛ فكأنه قيل: إنه بسبب عماء كان يستحق مزيد الرفق والرأفة،  
فكيف يليق بك أن تخصه بالغلظة؟

وهذا كما تقول لرجل جاءه فقير فاتهره وآذاه: أتؤذى هذا المسكين الذى  
يستحق منك الشفقة ومزيد الحنان والمطف؟

(وما يدريك لعله يزكى. أو يذكر فتنتفعه الذكرى؟) أى وأى شئ يعلمك حال  
هذا الأعمى؟ لعله يتطهر بما يسمعه منك، ويتقاه عنك، فتزول عنه أوضار الآثام،  
أو يتمتع فتنتفعه ذكراك وموعظتك .

والخلاصة — إنك لاتدرى ما هو مترقب منه من ترك أو تذكر، ولو دريت  
لما كان الذى كان .

وفى هذا إيماء إلى أن من تصدى لتزكيتهم وتذكيرهم من المشركين لا يرجى  
منهم التزكى ولا التذكر .

ثم ذكر أن أمره مع الحاضرين مجسه المحصر في شيئين :

(١) (أما من استغنى. فأنت له تصدى) أى أما من استغنى بماله وقوته عن الإيمان ، وعا عندك من المعارف التى يشتمل عليها الكتاب المنزل عليك ، فأنت تقبل عليه ، حرصا على إسلامه ، ومزيد الرغبة فى إيمانه .

(وما عليك ألا يزكى ؟) أى وأى عيب عليك فى بقاءه كذلك ، وألا يتطهر من وسخ الجهالة ؟ فما أنت إلا رسول مبالغ عن الله ، وقد أدبت ما يجب عليك ، فما بالك يشدد بك الحرص على إسلامه .

وقصارى ذلك — لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم ، والاشتغال بدعوتهم ، أن تعرض عن الذين سبقت لهم منا الحسنى .

(٢) (وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهى) أى وأما من جاءك مسرعا فى طلب الهداية والقرب من ربه ، وهو يخشاه ويحذر الوقوع فى الغواية ، فأنت تلهى عنه ، وتتغافل عن إجابته إلى مطلبه .

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ  
مُكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ  
بَرَّةٍ (١٦)

### شرح المفردات

كلا : كلمة يقصد بها زجر المخاطب عن الأمر الذى يعاتب عليه ، لئلا يعاوده ، وهنا هو التصدى للمستغنى والتلهى عن المستهدى ، تذكرة : أى موعظة ، ذكره : أى اتعظ به ، فى صحف مكرمة : أى مودعة فى صحف شريفة ، مرفوعة : أى عالية القدر ، مطهرة : أى من النقص لاشوبها الضلالات ، سفرة : واحد منهم سافر ؛ من سفر بين القوم إذا نصب نفسه وسيطا ليصلح من أمورهم مافسد .

قال شاعرهم :

فما أَدع السفارة بين قومي ولا أمشي بفش إن مشيت  
والمراد هنا الملائكة والأنبياء ، لأنهم وسائط بين الله وخلقه في البيان عما يريد ،  
كرام : واحدهم كريم ، بررة : واحدهم بار ، والمراد أنهم كرام على الله ، أطهار  
لا يقارفون ذنبا .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حادث ابن أم مكتوم وَعَتَبَهُ على رسوله فيما كان منه معه ،  
أردف ذلك بيان أن الهداية التي يسوقها الله إلى البشر على السنة رسله ، ليست من  
الأمر التي يُحتمل لتقريرها في النفوس وتثبيتها في القلوب ، وإنما هي تذكرة يقصد  
بها تنبيه الغافل إلى ما جبل الخلق عليه من معرفة توحيدهِ ؛ فمن أعرض عن ذلك  
فإنه معاند يقاوم ما يدعوه إليه حسه ، وتنازعه إليه نفسه .

فما عليك إلا أن تبلغ ما عرفت عن ربك ، لتذكريه الناس ، وتنبه الغافل ،  
أما أن تحبى القوي المعاند ، ظنا منك أن مداجاته ترده عن عناده ، فذلك ليس من  
شأنك ، « فذكري إن نعمت الله كرمي » .

وهذه الهداية أودعها سبحانه في الصحف الإلهية الشريفة القدر ، المطهرة من  
القناص والعيوب ، وأنزلها على الناس بواسطة ملائكته الكرام البررة .

### الإيضاح

( كلا إنها تذكرة ) أى ما الأمر كما تفعل أيها الرسول ، بأن تعبس في وجه  
من جاءك يسعى وهو يخشى ، وتقبل على من استغنى ، بل الهداية المودعة في الكتب  
الإلهية وأجلها القرآن ، تذكري ووعظ وتنبيه لمن غفل عن آيات ربه .

وقد وصف سبحانه تلك التذكرة بأوصاف تدل على مالها من عظيم  
الشأن فقال :

(١) (فمن شاء ذكره) أى إن هذه التذكرة بيّنة ظاهرة ، فلو أن إنساناً أراد أن يتدبرها ، ويتنهم معناها ، ويتعظ بها ، ويعمل بموجبها — لقدّر على ذلك واستطاعه ، ولا يمنعه عن الاهتمام بها إلا عدم المشيئة عنادا واستكبارا .

(٢) (فى صحف مكّرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة) أى وقد أودعت هذه التذكرة فى الكتب الإلهية ذات الشرف والرفعة ، المطهرة من النقائص ولانثوبها شوائب الضلالات ، تنزل بوساطة الملائكة على الأنبياء ، وهم يبلغونها للناس .

وكل من الملائكة والنبي سفير ، وكل منهما رسول ، والملائكة كرام على الله كما قال : « بَلِّغْ عِبَادًا مُّكْرَمُونَ » وأبرار أطهار لا يقارون ذنبا ، ولا يجتريحون إثمًا ، كما قال سبحانه : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » .

قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ؟ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرُهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) .

### شرح المفردات

قدره : أى أنشأه فى أطوار وأحوال مختلفة ، طورا بعد طور ، وحالا بعد حال ، والسبيل : الطريق ، يسره : أى سهل له سلوك سبل الخير والشر ، فأقبره : أى جعل له قبرا يُوارى فيه ، أنشره : أى بعثه بعد الموت ، كلا : زجر له عن ترفعه وتكبره .

### المعنى الجملى

بعد أن بين حال القرآن وذكر أنه كتاب الذكرى والموعظة ، وأن فى استطاعة كل أحد أن ينتفع بعظاته لو أراد — أردف هذا ببيان أنه لا يسوغ للإنسان مهما

كثير ماله ، ونبه شأنه ، أن يتكبر ويتعظم ويعطى نفسه ماتمواه ، ولا يفكر في منتهاه ، ولا فيمن أنعم عليه بنعمة الخالق والإيجاد ، وصوره في أحسن الصور ، في أطوار مختلفة ، وأشكال متعددة ، ثم لا يلبث إلا قليلا على ظهر البسيطة حتى يعود إلى التراب كما كان ، ويوضع في لحده ، إلى أمد قدره الله في علمه ، ثم يبعثه من قبره ، ويحاسبه على ما عمل في الدار الأولى ، ويستوفي جزاءه إن خيرا وإن شرا ، لكنه ما أ كفره بنعمة ربه ، وما أبعدته عن اتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ! .

### الإيضاح

( قتل الإنسان ) هذا دعاء عليه بأشنع الدعوات على ما هو المعروف في لسانهم ، يقولون إذا تعجبوا من إنسان : قاتله الله ما أحسنه ، وأخزاه الله ما أظلمه ! والمراد بيان قبح حاله وأنه بلغ حدا من العتو والكبر لا يستحق معه أن يبقى حيا .

( ما أ كفره ) أى ما أشد كفرانه للنعم التي يتقلب فيها ، وأكثر ذهوله عن مُشديها ، وعن غمره بها من حين إيجادها ، إلى ساعة معاده ! .

ثم شرع يفصل ما أجله ، ويبين ما أفاض عليه من النعم في مراتب ثلاث ، المبدأ والوسط والمنتهى ، وأشار إلى الأولى بقوله :

( من أى شئ خلقه ؟ ) أى من شئ حقير ، فلا ينبغي له التجبر ولا التكبر .

وقد أجاب عن هذا الاستفهام بقوله :

( من نطفة خلقه فقدره ) أى خلقه من ماء مهين ، وقدره أطوارا وأحوالا ، طوراً بعد طور وحالا بعد حال ، وأتم خلقه بأعضاء ثلاثم حاجاته مدة بقائه ، وأودع فيه من القوى ما يمكنه من استعمال تلك الأعضاء وتصريفها فيما خلقت لأجله ، وجعل كل ذلك بمقدار محدود بحسب ما يقتضيه كمال نوعه .

وقد أثر عن بعضهم : كيف يتكبر الإنسان ، وأوله نطفة مَذْرَة ، وآخره جيفة قَدْرَة ، وهو فيما بين الوقتين شمال عَذْرَة .

وروى عن عليّ كرم الله وجهه قوله : كيف يفخر الإنسان وقد خرج من موضع البول مرتين .

وأشار إلى المرتبة الوسطى بقوله :

( ثم السبيل يسره ) أى ثم جعله متمكنا من سلوك سبيل الخير والشر ، فأتاه قدرة العمل ، ووهبه العقل الذى يميزه بين الأعمال ، وعرفه عاقبة كل عمل ونتيجته كما قال : « وَهَدَيْتَاهُ النَّجْدَيْنِ » وبعث إليه الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتب المشتملة على الحكم والمواعظ والدعوة إلى أنواع البر ، والتحذير من الشر ، والحاوية لما فيه سعادة البشر في معاشهم ومعادهم .

وأشار إلى المرتبة الأخيرة بقوله :

( ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره ) أى ثم قبض روحه ولم يتركه مطروحا على الأرض جزرا للسباع ، بل تفضل عليه وجعل في غريزة نوعه أن يوارى ميتة تكريمة له ، ثم إذا شاء بعثه بعد موته للحساب والجزاء فى الوقت الذى قدره فى علمه .

وفى قوله : « إذا شاء » إشعار بأن وقت الساعة لا يعلمه إلا هو ، فهو الذى استأثر بعلمه ، وهو القادر على تقديمه وتأخيرهِ ، وهو القاهر فوق عباده وذو السلطان عليهم فى إحيائهم وإماتتهم ، وبعثهم وحشرهم ، وحسابهم على ما قدموا من عمل ، خيرا كان أو شرا .

ثم أكد كفراته بالنعم فقال :

( كلالا لما يقض ما أمره ) أى حقا إن حال الإنسان لتدعو إلى العجب ، فإنه بعد أن رأى فى نفسه مما عددناه من عظيم الآيات ، وشاهد من جلائل الآثار ،

ما يحرك الأنظار ، ويسير بها إلى صواب الآراء ، وصحيح الأفكار - لم يقض ما أمره به من التأمل في دلائل قدرته ، والتدبر في معالم هذا الكون المنبثقة بوحديته خاقه ، الناطقة بأن لها موجدا يستحق أن يقصده وحده دون سواه ، ويتوجه إليه بالعبادة والامتثال إلى ما يأمره به .

والخلاصة - إن الإنسان قد بلغ في ججده آيات خالقه مبلغا لا ينتهي منه العجب ، إذ قد رأى في نفسه وفي السموات والأرض وسائر ما يحيط به من العوالم ، الآيات الناطقة بوحديته الخالق ، الدالة على عظيم قدرته ، ثم هو لا يزال مستمرا في نكران نعمته عليه ، فإذا ذكر لا يتذكر ، وإذا أرشد إلى الهدى لم يسلك سبيله الأقوم ، ولا يزال يرتكب ما نهى عنه ، ويترك ما أمر به .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَيْنًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ (٣٢) .

### شرح المفردات

القضب : الرطبة وهي ما يؤكل من النبات غضا طريا ؛ وسمى قضبا لأنه يقضب أي يقطع مرة بعد أخرى ، غلبا : واحدها غلباء أي ضخمة عظيمة ، والأب : المرعى لأنه يُؤب : أي يُؤم وينتجع ، متاعا لكم ولأنعامكم : أي أنبتناه لكم لتتمتعوا به وتنتفعوا وتنتفع أنعامكم .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر الدلائل على قدرته تعالى وهي كامنة في نفسه ، يراها في يومه بعد أمسه - أردفها ذكر الآيات اللدنية في الآفاق الناطقة ببديع صنعه ، وباهر حكمته .

## الإيضاح

( فلينظر الإنسان إلى طعامه ) أى فليتدبر الإنسان شأن نفسه ، وليفكر في أمر طعامه وتدبيره وتهيئته حتى يكون غذاء صالحا تقوم به بنيته ، ويجد في تناوله لذة تدفعه إليه ، ليحفظ بذلك قوته مدى الحياة التي قدرت له .

وقد فصل ذلك بقوله :

( أنا صبينا الماء صبا ) أى أنزلناه من المزن إنزالا بعد أن بقى حيناً في جو

السماء مع ثقله .

( ثم شققنا الأرض شقا ) أى ثم شققنا الأرض شقا مشاهدا مرئيا لمن نظر

إليها بعد أن كانت متماسكة الأجزاء .

وقد اقتضت حكمته ذلك ، ليدخل الهواء والضياء في جوفها ، ويهيئانها

لتغذية النبات .

ثم ذكر سبحانه ثمانية أنواع من النبات :

( ١ ) ( فأنبثنا فيها حبا ) كالحنطة والشعير والارز وهو الأصل في الغذاء .

( ٢ ) ( وعنبا ) وهو من وجه غذاء ، وفاكهة من وجه آخر .

( ٣ ) ( وقضبا ) وهو كما قال ابن عباس والضحاك ومقاتل واختاره الفراء

وأبو عبيدة والأصمعي - الرطبة : هي ما يؤكل من النبات غصا طريا .

( ٤ ، ٥ ) ( وزيتونا ونخلا ) وقد تقدم بيان منافعهما ، وسيأتى أيضا .

(٦) (وحدات غلبا) أى وبساتين ذات أشجار ضخمة مشجرة ذات حوائط تحيط بها ، وعظم الحدائق إما بالتغاف أشجارها وكثرتها ، وإما بعظم كل شجرة وغظها وكبرها .

وفى ذكرها بهذا الوصف إيماء إلى أن النعمة فى الأشجار بجملتها ، وليست فى ثمرها خاصة ، فمن حُشْبها يتخذ أرقى أنواع الأثاث وأدوات العمل وآلاته لمختلف الحرف والصناعات ، وكذا الوقود لتدبير الطعام والخبز على ضروب شتى ، وتستعمل فى صهر الحديد وأنواع المعادن المختلفة .

(٧) (وفاكهة) يتمتع بلذتها الإنسان خاصة كالتين والتفاح والخوخ وغيرها .

(٨) (وأبنا) أى مرعى للحيوان خاصة .

ثم ذكر الحكمة فى خلق هذه الأشياء فقال :

(متاعا لكم ولأنعامكم) أى أنبتنا ذلك ، لتتمتعوا به وتنتفعوا به أنتم وأنعامكم ،

منه ما ينتفع به الإنسان ، ومنه ما يأكله الحيوان .

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ  
وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ  
يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩)  
وَوُجُودٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ  
الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) .

### شرح المفردات

الصخّ : الضرب بالحديد على الحديد ، وبالعصا العُثْبِيَّة على شئ مصمت ،

فيسمع إذ ذاك صوت شديد ؛ والمراد هنا بالصاخة هو المراد بالقارعة فى سورتها ،

وهى الطامة الكبرى ، ويكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذى يحدث من تخريب الكون ووقع بعض أجرامه على بعض ، ومن ثمّ سميت صاخة وقارعة ، شأن : أى شغل ، يعنيه : أى يصرفه ويصده عن مساعدة ذوى قرابته ، قال شاعرهم :

سيفنيك حربُ بنى مالك عن الفُحش والجهل فى الخُمل

مسفرة : أى مضيئة مشرقة ؛ يقال : أسفر الصبح إذا أضاء ، مستبشرة : أى فرحة بما نالت ، والغبرة : ما يصيب الإنسان من الغبار ، ترهقها : أى تغشاها ، والقترة : سواد كاللدخان ، والفجرة : واحد فاجر ، وهو الخارج عن حدود الله المنتهك لحرّماته .

### المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه آلاءه على عباده ، وذكرهم بإحسانه إليهم فى هذه الحياة ، وبين أنه لا ينبغى للماقل بعد كل ما رأى أن يتمرد عن طاعة صاحب هذه النعم الجسام - أعقب هذا بتفصيل بعض أحوال يوم القيامة وأهوالها التى توجب الفزع والخوف منه ، ليدعوه ذلك إلى التأمل فيما مضى من الدلائل التى ترشد إلى وحدانيته وقدرته ، وصحة البعث وأخبار يوم القيامة التى جاءت على أسنة رسله ، ويتزود بصالح الأعمال التى تكون نبراسا يضى . أمامه فى ظلمات هذا اليوم .

وذكر أن الناس حينئذ فريقان : فريق ضاحك مستبشر ، فرّح فرّح المحب يلقى حبيبه ، وهو من كان يعتقد الحق ويعمل للحق ، وفريق تعلق وجهه الغبرة ، وترهقه القترة ، وهو الذى تمرد على الله ورسوله ، وأعرض عن قبول ما جاءه من الحق ، ولم يعمل بما أمر به من صالح الأعمال .

### الإيضاح

( فإذا جاءت الصاخة ) أى فإذا جاء يوم القيامة حين يحدث ذلك الصوت الهائل الذى يصتخ الأسماع ويصكها بشدته - فما أعظم أسف الكافرين ، وما أشد ندمهم .

ثم فصل بعض أهوال هذا اليوم فقال :

( يوم يفرّ المرء من أخيه . وأمّه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ) أى يوم يشغل كل امرئ ما يصيبه من الأهوال ، فيفر من يتوهم أنه يتعلق به ، ويطلب معاونته ، على ما هو فيه ، فيتوارى من أخيه ، بل من أمه وأبيه ، بل من زوجه التي هي ألصق الناس به ، وقد كان في الدنيا يبذل النفس والنفيس في الدفاع عنها ، بل من بنيه وهم فلذات كبدته ، وقد كان في الحياة الأولى يفتديهم بماله وروحه ، وهم ربحانة الدنيا ونور الحياة أمام عينه .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا » .

وإنما كان الأمر كذلك ، لأن لكل امرئ منهم من الرهب ، وما يُرهب من الهول ، وما يخشى من مناقشة الحساب - شأننا يغنيه ، ويصدّه عن ذوى قرابته ، فليس لديه فضل ففكر ولا قوة يُمدّ بها غيره .

وقد يكون المعنى - يغنيه ذلك الهم الذي ركبّه بسبب نفسه ، وشغله حتى ملأ صدره ، فلم يبق فيه متسع لهم آخر .

وبعد أن ذكر الأهوال التي تعرض للناس في ذلك اليوم ، وأنها لا تسعف أحدا بمواساة أحد ولا الالتفات إليه مهما يكن عطفه عليه واتصاله به - أردفه بيان أن الناس في ذلك اليوم سعداء وأشقياء ، وأشار إلى الأولين بقوله :

( وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة ) أى وجوه يومئذ متهلة ضاحكة فرحة بما تجد من برد اليقين بأنها ستوفى ما وعدت به جزاء إيمانها وما قدمت من عمل صالح ، وبشكرها لنعم ربها وآلائه ، وإيثارها ما أمرها به على ما تهواه .

وأشار إلى الآخرين بقوله :

( ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها فترة . أولئك هم الكفرة الفجرة ) أى ووجوه يعملوها غبار الذل وسواد الغم والحزن ، وهى وجوه الكفار الذين لم يؤمنوا

بالله ، وبما جاء به أنبياءه ، وخرجوا عن حدود شرائعه ، واجتروا السيئات ، واقترفوا المعاصى .

وقصارى ما سلف — إن الناس إذ ذاك فريقان :

(١) فريق كان فى دنياه يطلب الحق وينظر فى الحجة ، ويعمل ما استقام عليه الدليل ، لا يثنيه عن الأخذ به قلة الآخذين ، ولا قوة المعاندين ، وهؤلاء سيطمشون إلى ما أدركوا ، ويفرحون بما نالوا ، وتظهر على أسارير وجوههم علامات البشر والسرور .

(٢) فريق احتقر عقله ، وأهمل النظر فى نعم الله عليه ، وارتضى الجهل ، وانصرف عن الاستدلال إلى اقتفاء آثار الآباء والأجداد ، وظل يحب ويضع فى أهوائه الباطلة ، وعقائده الزائفة — وهؤلاء سيجدون كل شىء على غير ما كانوا يعرفون ، فتظهر عليهم آثار الخيبة والفشل ، وتملأ وجوههم الغبرة ، وترهقها القفرة ، لأنهم كانوا فى حياتهم الدنيا كفرة فجرة .

اللهم احشرننا يوم القيامة ووجوهنا مسفرة ضاحكة مستبشرة ، وصل ربنا على نبيك وآله وصحبه .

### ما جاء فى هذه السورة الكريمة من مقاصد

- (١) عتاب الرسول صلى الله عليه وسلم على ما حدث منه مع ابن أم مكتوم الأعمى .
- (٢) أن القرآن ذكرى وموعظة لمن عقل وتدبر .
- (٣) إقامة الأدلة على وحدانية الله بخلق الإنسان والنظر فى طعامه وشرابه .
- (٤) أهوال يوم القيامة .
- (٥) الناس فى هذا اليوم فريقان: سعداء وأشقياء ، وذكر حال كل منهما حينئذ .

## سورة التكوير

هي مكية ، وآياتها تسع وعشرون ، نزلت بعد سورة المسد .

ومناسبتها لما قبلها — أن كليهما تشرح أحوال يوم القيامة وأهوالها . أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سرته أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ) » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ  
سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُضِرَتْ (٥) وَإِذَا  
الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨)  
بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ  
كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣)  
عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ (١٤) .

## شرح المفردات

تكوير الشمس : لغها كتكوير العمامة ؛ والمراد منه اخفائها عن الأعين  
وذهاب ضوءها ، وانكدار النجوم : انتثارها وتساقطها حتى تذهب ويمحي  
ضوءها ، وتسيير الجبال يكون حين الرجفة التي ترزله الأرض ، فتقطع أوصالها ،  
وتفصل منها أجزالها ، وتقذفها في الفضاء ، والعشار : واحدا عشراء ( بضم العين

وفتح الشين ) وهى الناقة التى مضى على حملها عشرة أشهر ، وهى أكرم مال لدى  
الحاطبين وقت التنزيل ، قال الأعشى فى المدح :

هو الواهب المائة المصطفىة إما مخاضا وإما عشارا

وتعطيلها : إهمالها وذهابها حيث تشاء ، لعظم المول وشدة الكرب ، حشرت :  
أى ماتت وهلكت ، وتسجير البحار : تفجير الزوال ما بينها حتى تختلط وتعود بحرا  
واحدا ، زُوِّجت : أى قرنت الأرواح بأجسادها ، انوودة : هى التى دفنت وهى  
صغيرة ، وقد كان ذلك عادة فاشية فيهم فى الجاهلية ، وكان ذوو الشرف منهم ينعون  
من هذا حتى افتخر بذلك الفرزدق فقال :

ومنا الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم توءد

يريد جدّه صَمْعَةَ ، وكان يشترين من آبائهن ، نجاء الإسلام وقد أحيا سبعين  
موءودة ، والمراد بالصحف صحف الأعمال التى تنشر على العباد حين يقفون للحساب ،  
كشطت : أى كشفت وأزيلت عما فوقها كما يكشط جلد الذبيحة عنها ، سمرت :  
أى أوقدت إيقادا شديدا ، أزانت : أى أدنبت من أهلها وقربت منهم ، ما أحضرت :  
أى ما أعدت لها من خير أو شر .

### المعنى الجملى

بدأ سبحانه هذه السورة الكريمة بذكر يوم القيامة ، وما يكون فيه من حوادث  
عظام ، ليفخّم شأنه ، وبين أنه حين تقع هذه الأحداث تعلم كل نفس ما قدمت من  
عمل خير أو شر ، ووجدت ذلك أمامها مائلا ، ورأت ما أعدت لها من جزاء وتمنت  
إن كانت من أهل الخير أن لو كانت زادت منه ، وإن كانت من أهل الشر أن لو لم  
تكن فعلته ، واستبان لها أن الوعيد الذى جاء على السنة الرسل كان وعيدا صادقا ،  
لاتهويل فيه ولا تضليل .

## الإيضاح

(إذا الشمس كورت) أى إذا كورت الشمس واحمى ضوءها وسقطت حين خراب العالم الذى يعيش فيه الحى فى حياته الدنيا ، ولا يبقى فى عالمه الآخر الذى ينقلب إليه شىء من هذه الأجرام .

(وإذا النجوم انكدرت) أى وإذا النجوم تناثرت وذهب لألاؤها كما جاء فى قوله : « وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ » .

(وإذا الجبال سيرت) أى وإذا الجبال قلعت عن الأرض وسيرت فى الهواء حين زلزلة الأرض ، فتقطع أوصالها وتقذف فى الفضاء ، وتمر على الزموس مر السحاب ونحو الآية قوله : « وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ كَأَنَّ سَرَابًا » وقوله : « وَيَوْمَ نَسْفِرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » .

(وإذا المشار عطلت) أى وإذا النوق العشار وهى أكرم الأموال لديهم ، وأعرضا عندهم — أهملت ولم يُعْنِ بشأنها لاشتداد الخطب ، وفداحة الهول . وهذا على وجه التمثيل ، لأن يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عسراء ، ولكن مثل هول يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عسراء لمعطلها واشتغل بنفسه قاله القرطبي .

(وإذا الوحوش حشرت) أى مانت وهلكت ، تقول العرب إذا أضرت السنة بالناس وأصابتهم بالقطط والجذب ، حشرتهم السنة : أى أهلكتهم ، وهلاكها يكون من هول ذلك الحادث العظيم

(وإذا البحار سجرت) أى سجر الزلزال ما بينها حتى اختلطت وعادت بحراً واحداً ، وهذا على نحو ما جاء فى قوله : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ »

وقد يكون المراد من تسجيرها إضرامها نارا ، فإن مافى باطن الأرض من النار يظهر بنشقها وتمزق طبقاتها العليا ، وحينئذ يصير الماء بخارا ، ولا يبقى إلا النار .

وقد أثبت البحث العلمى غليان البراكين ، وهى جبال النار التى فى باطن الأرض ، وتشهد لذلك الزلازل الشديدة التى تشق الأرض والجبال فى بعض الأطراف كما حدث فى مسينا بإيطاليا سنة ١٩٠٩م ، وحدث فى اليابان بعد ذلك .

وجاء فى بعض الأخبار « إن البحر غطاء جهنم » .

وبعد أن عدد ما يحدث من مقدمات الفناء وبطلان الحياة فى الأرض وامتناع الميثة فيها - أخذ يذكر ما يكون بعد ذلك من البعث والنشور فقال :  
( وإذا النفوس زوجت ) أى وإذا زوجت الأرواح بأبدانها حين النشأة الآخرة ، قاله عكرمة والضحاك والشعبي .

وفى هذا إيماء إلى أن النفوس كانت باقية من حين الموت إلى حين المعاد ، فبعد أن كانت منفردة عن البدن تعود إليه .

( وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت ؟ ) أى وإذا سئلت الموءودة بين يدي وأنها عن السبب الذى لأجله قتلت ، ليكون جوابها أشد وقعا على الوائد ، فإنها ستجيب أنها قتلت بلا ذنب جهنم .

وقد افتن العرب فى الواد ، فمنهم من كان إذا ولدت له بنت وأراد أن يستحيها ولا يقتلها ، أمسكها مهانة إلى أن تقدر على الرعى ، ثم ألبسها جبة من صوف أو شعر وأرسلها فى البادية ترعى إبله ، وإن أراد أن يقتلها تركها حتى إذا كانت سداسية قال لأمها : طيبها وزينها حتى أذهب بها إلى أحماها ، وقد حفر لها بئرا فى الصحراء حتى إذا بلغها قال لها انظري فيها ، ثم يدفعها من خلفها ويهبل عليها التراب حتى نسوى البئر بالأرض ، ومنهم من كان يفعل ما هو أنكى وأقسى من ذلك .

فيا لله ، ما أعظم هذه القسوة بقتل البريئات بغير جرم سوى خوف الفقر أو العار ، وكيف استبدلت الرحمة بالفظاظة ، والرأفة بالغلظة ، بعد أن خالط الإسلام قلوبهم ، ومحا وصمة هذا الخنزى عنهم .

( وإذا الصحف نشرت ) أى وإذا صحف الأعمال ظهرت للعاملين فى موقف الحساب حتى لا يرتابوا فيها ، ولا ينبغي أن نبحث عن تلك الصحف ، لنعلم أهى على مثال الأوراق التى نكتب فيها فى الدنيا ، أم تشبه الألواح أو نحو ذلك مما جرى استعماله فى الكتابة ، فإن ذلك مما لا يصل إليه علمنا ، ولم يحن نص قاطع عن المعصوم صلى الله عليه وسلم يفسر ذلك .

( وإذا السماء كَشُطَّت ) فلم يبق غطاء ولا سماء ، ولم يوجد ما يطبق عليه اسم الأعلى والأسفل

( وإذا الجحيم سعرت ) أى وإذا جهنم التى يعاقب فيها أهل الكفر والظنيان أوقدت إيقاداً شديداً ، فيكون ألم من يدخل فيها من أشد الآلام التى تحدث عن مسّ النيران لأجسام الحية ، وقد جاء فى سورة البقرة : « وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ » .

( وإذا الجنة أزلقت ) أى وإذا الجنة أذنت من أهلها : أى أعدت لنزولهم .  
ونحو الآية قوله تعالى : « وَأَزَلِقَتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ » .

( علمت نفس ما أحضرت ) أى إذا حصل كل ماتقدم من الأحداث السالفة ، تعلم كل نفس ما كان من عملها متقبلاً وما كان منه مردوداً عليها ، فكثير من الناس كانوا فى الحياة الدنيا مغرورين بما تزينه لهم الشياطين ، وسيجدون أعمالهم يوم القيامة غير مقبولة ولا مرضى عنها ، بل هى مبعدة من الله مستحقة غضبه ؛ فالذين يعملون أعمالهم رياء الناس ليس لهم من عملهم إلا الجهد والمشقة ، ولا تكون مقبولة عند ربهم ، فعلمينا أن ننظر إلى الأعمال بمنظار الشرع ، ونزنها بميزانه الصحيح .

والله لا يتقبل من الأعمال إلا ما صدر عن قلب ملىء بالإيمان ، عامر بحبه والرغبة فى رضاه ، والحرص على أداء واجباته التى فرضها عليه .

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا  
 عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩)  
 ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ  
 بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)  
 وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَآيَنَ تَذْهَبُونَ؟ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ  
 لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ  
 يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) .

### شرح المفردات

الخنس : واحدها خانس ، وهو المنقبض المستخفي ؛ يقال خنس فلان بين القوم  
 إذا انقبض واختفي ، والكنس : واحدها كانس أو كانس من قولهم : كنس الظبي  
 إذا دخل كناسه وهو بيته الذي يتخذه من أغصان الشجر ؛ والمراد بالخنس  
 الجوار الكنس : جميع الكواكب ، وخنوسها : غيبوبتها عن البصر نهاراً ،  
 وكنوسها : ظهورها للبصر ليلاً ، فهي تظهر في أملاكها ، كما تظهر الظباء في كنسها ،  
 وعسس : أي أدبر ، وتنفس : أسفر وظهر نوره ، قال علقمة بن قُرط :  
 حتى إذا الصبح لها تنفساً وانجاب عنها ليلاً وعسساً

والرسول : هو جبريل عليه السلام ، وكريم : أي عزيز على الله ، ذى قوة :  
 أي في حفظه ، مكين : أي ذى مكانة وجاه عند ربه يعطيه مأسأله ؛ يقال مكن فلان  
 لدى فلان إذا كانت له عنده حُظوة ومنزلة ، ثمَّ ( بفتح التاء ) أي هناك ، أمين :  
 أي على وحيه ورسالاته ، صاحبكم : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، بالأفق المبين :

أى بالأفق الواضح ، وضنين : أى بخيل ، وجيم : أى مرجوم مطرود من رحمة الله ،  
فأين تذهبون : أى أى مسلك تسلكون وقد قامت عليكم الحجة ، أن يستقيم :  
أى على الطريق الواضح .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر من أحوال يوم القيامة وأهوالها ما ذكر ، وبين أن الناس حينئذ  
يقفون على حقائق أعمالهم فى النشأة الأولى ، ويستبين لهم ما هو مقبول منها وما هو  
مردود عليهم — أردف ذلك بيان أن ما يحدثهم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو  
القرآن الذى أنزل عليه وهو آيات بينات من الهدى ، وأن ما رميتوه به من العايب  
كقولكم: إنه ساحر أو مجنون ، أو كذاب ، أو شاعر ما هو إلا محض افتراء ، وأن  
لجأكم فى عداوته وتآلبكم عليه ما هو إلا عناد واستكبار ، وأنكم فى قرارة نفوسكم  
عالمون بحقيقة أمره ، ودخيلة دعوته .

### الإيضاح

(فلا أقسم) تقدم أن قلنا إن هذه عبارة للعرب فى القسم تريد بها تأكيد الخبر  
كأنه فى ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم ، وكأنه يقول : أنا لا أقسم بكذا وكذا  
على إثبات ما أذكره ، ولا على وجوده فهو واضح جلى ليس فى حاجة إلى الحلف ؛  
وللإيراد به القسم المؤكد .

(بالنفس . الجوار الكس) أى بالكواكب جميعها ، وهى تخشى بالنهار  
فتغيب عن العيون ، وتكس بالليل : أى تطلع فى أما كنها كالوحش فى كنفها ؛  
وقد أقسم بها سبحانه ، لما فى حركاتها وظهورها طوراً واختفائها طوراً آخر من  
الدلائل على قدرة مصرفها ، وبديع صنعه ، وإحكام نظامه .

ويرى بعض العلماء أن المراد بها الدراري الحسة وهي : عطارد ، والزهرة ،  
والمرّيخ ، والمشتري ، وزُحل ، لأنها تجرى مع الشمس ، ثم ترى راجمة حتى تختفي  
في ضوءها ؛ فرجوعها في رأى العين هو خنوسها ، واختفاؤها هو كنوسها .  
(والليل إذا عسعس) أى والليل إذا أدبر وولى ، وفي إدباره زوال النعمة التى  
نعمر الأحياء ، بانسدال الظلمة والحسارها .

(والصبح إذا تنفس) أى والصبح إذا أسفر وظهر نوره ، وفى ذلك بشرى  
للأنفس بحياة جديدة فى نهار جديد ، إذ تنطلق الإرادات ، لتحصيل الرغبات .  
وسدّ الخجّات ، واستمدراك ما فات ، والاستعداد لما هو آت .  
ثم ذكر الخلوف عليه فقال :

(إنه لقول رسول) أى إن ما أخبركم به محمد صلى الله عليه وسلم من أمر  
لساعة ليس بكهانة ولا اختلاق ، بل هو قول نزل به جبريل وحياً من ربه ، وإنما  
كان قونه لأنه هو الذى حمّله إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقد وصف هذا الرسول  
خمسة أوصاف :

(١) (كريم) أى عزيز على ربه ، إذ أعطاه أفضل العطايا ، وهى الهداية  
والإرشاد ، وأمره أن يوصلها إلى أنبيائه ليبلغوها لعباده .  
(٢) (ذى قوة) فى الحفظ والبعد عن النسيان والخطأ ، وقد جاء فى آية أخرى :  
(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) .

(٣) (عند ذى العرش مكين) أى ذى جاهٍ ومنزلة عند ربه يعطيه ما سأل .  
(٤) (مطاع ثم) أى هو مطاع عند الله فى ملائكته المقربين ، فهم يصدرون  
عن أمره ، ويرجعون إلى رأيه .

(٥) (أمين) على وحى ربه ورسالاته ، قد عصمه من الخيانة فيما يأمره به .  
وجتبه الزلل فيما يقوم به من الأعمال .  
وبعد أن وصف الرسول وصف المرسل إليه فقال :

(وما صاحبكم بمجنون) أى وايس محمد صلى الله عليه وسلم بالمجنون كما كانت ترميه قريش بذلك حين كانت تسمع منه غريب الأخبار عن اليوم الآخر مما لم يكن معروفا لهم كما حكى عنهم فى قوله : « أُنَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ » وقوله : « أَوَّلَمَ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ » وقوله : « قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى قَوْمِي وَفِرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » .

وفى التعبير (بصاحبكم) استدلال عليهم ، وإقامة للحجة على كذبهم فى دعواهم ، فإنه إذا كان صاحبهم ، وكانوا قد خالطوه وعاشروه ، وعرفوا عنه ما لم يعرفه سواهم من استقامة ، وصدق لهجة ، وكال عقل ، ووفور حلم ، وتفوق على جميع الأنداد والأتراب فى صفات الخير — لم يكن ادعائهم عليه ما يناقض ذلك إلا باطلا من القول وزورا .

(ولقد رآه بالأفق المبين) أى وإن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى جبريل بالأفق الأعلى ، وقد تمثل له جبريل فى مثال يظهر ويُبصر ، فتجلى لعينيه ، وأعلم أنه جبريل فعرفه .

وقد ذكرت هذه الرؤية فى سورة النجم فى قوله : « مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُحْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ » .

(وما هو على الغيب بضنين) أى وايس محمد بالتمهم على القرآن وما فيه من قصص وأنباء وأحكام ، بل هو ثقة أمين لا يأتى به من عند نفسه ، ولا يبدل منه حرفا بحرف ، ولا معنى بمعنى ، إذ لم يعرف عنه الكذب فى ماضى حياته ، فهو غير متهم فيما يحكيه عن رؤية جبريل وسماع الشرائع منه .

ثم نفى عنه فرية أخرى كانوا يتوَلَّونها عليه فقال :

(وما هو بقول شيطان رجيم) أى وما هذا الذى يتكلم به محمد بقول ألقاه

الشیطان على لسانه حين خالط عقله كما تزعمون ، فإنه قد عرف بصحة العقل ، وبالأمارة على الغيب ، فلا يكون ما يحدث به من خبر الآخرة والجنة والنار من قول الشياطين .

وقد حكى الله سبحانه عن الأمم جميعاً أنهم رموا أنبياءهم بالجنون فقال :  
( كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ . )

ثم ذكر أنهم قوم قد ضلوا طريق التدبر ، وجعلوا سبيل الحكمة فقال :  
( فأين تذهبون ) أى فأى سبيل تسلكونها وقد سُدَّتْ عليكم السبل ، وأحاط بكم الحق من جميع جوانبكم ، وبطلت مفترياتكم ، فلم يبق لكم سبيل تستطيحون الهرب منها .

ثم بين حقيقة القرآن فقال :

( إن هو إلا ذكر للعالمين ) أى وما هذا القرآن إلا عظة للخلق كافة يتذكرون بها ما غرر في طباعهم من حب الخير ، وإنما أنساهم ذكره مطراً عليهم بمقتضى الإلف والعادة من ملكات السوء التى تحدثها أمراض البيئة والمجتمع ، والقذوة السيئة .  
ثم بين أنه لا ينتفع بهذه النظم كل العالمين فقال :

( لمن شاء منكم أن يستقيم ) أى إنه ذكر يتذكر به من وجه إرادته ، للاستقامة على جادة الحق والصواب ؛ أما من انحرف عن ذلك فلا يؤثر فيه هذا الذكر ولا يخرج من غفلته .

والخلاصة — إن على مشيئة المكلف تتوقف الهداية ، وقد فرض عليه أن يوجه فكره نحو الحق ويطلبه ، ويجتهد في كسب الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .  
ثم دفع توهم أن إرادة الإنسان مستقلة في فعل ما يريد ، وله الاختيار التام فيما يفعل ، وهو منقطع العلاقة في إرادته من سلطان ربه فقال :

( وما شاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ) أى إن إرادتكم الخير لا تحصل لديكم إلا بعد أن يخلقها الله فيكم بقدرته ، الموافقة لإرادته ، فهو الذى يودع فيكم

إرادة فعل الخير فتصرف هممكم إليه ، ولو شاء لسلبكم هذه الإرادة وجعلكم كالحیوانات لا إرادة لها .

وقى قوله : « رب العالمين » بيان لعلة هذا ، فإنه لما كان رب العالمين ، وهو الذى منحكم كل ما تتمعون به من القوى كالإرادة وغيرها ، وهو صاحب السلطان عليكم — كانت إرادتكم مستندة إلى إرادته ، وخاضعة لسلطانه ، فلو شاء أن يوجهها إلى غير ما وجهت له توجهت ، ولو شاء أن يحوها محيت ، فله الأمر وله الحكم وهو على كل شئ قدير .

### موضوعات هذه السورة الكريمة

- (١) أهوال يوم القيامة .
- (٢) الإقسام بالنجوم وبالليل وبالصبح إن القرآن منزل من عند الله بواسطة ملائكته .
- (٣) إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
- (٤) بيان أن القرآن عظة وذكرى لمن أراد الهداية ، وتوجهت نفسه إلى فعل الخير .
- (٥) مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب سبحانه ، وليس لها استقلال بالعمل .

## سورة الانفطار

هي مكية ، وآياتها تسع عشرة ، نزلت بعد سورة النازعات .  
وهي كسابقها مبدوءة بوصف أهوال يوم القيامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ  
فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ  
وَأَخَّرَتْ (٥) .

## شرح المفردات

انفطرت : أى انشقت ، انتثرت : أى تساقطت متفرقة ، فُجِّرَتْ : أى فتحت  
وشققت جوانبها فزال ما بينها من الحواجز واختلط عذبها بملحها ، بُعْثِرَتْ : أى قلب  
ترابها الذى حثى على موتاتها ، وأزِيل وأُخْرَج من دفن فيها ، ما قدمت : أى من  
أعمال الخير ، وما أخرت : أى منها بالكسل والتسويف .

## المعنى الجملى

افتتح سبحانه هذه السورة بمثل ما افتتح به سابقتها من ذكر أمور تحدث حين  
خراب هذا العالم ، وتكون مقدمة ليوم العرض والحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة ،  
منها أمران علويان هما : انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وأمران سفليان هما تفجير  
البحار وبعثرة القبور ، ثم أبان أنه فى ذلك اليوم تتجلى للنفوس أعمالها على حقيقتها ،  
فلا ترى خيرا فى صورة شر ، ولا تفخيل شرا فى مثال خير ، كما يقع فى الدنيا لأغلب

النفوس ، فيعرف أهل الخير أنهم وإن نجوا مقصرون ، فيأسفون على ما تركوا  
ويستبشرون بما عملوا ، ويعضّ أهل سوء بنان الدم ، ويوقنون بسوء المنقلب ،  
ويتمنون أن لو كانوا ترابا .

## الإيضاح

( إذا السماء انفطرت ) أى إذا انشقت السماء وتغير نظامها ، فلم يبق نظام  
الكواكب على ما ترى ، عند خراب هذا العالم بأسره .

وجاء نحو الآية قوله : « وَيَوْمَ نَشَقُّ السَّمَاءَ بِالنِّفَامِ » وقوله : « فَإِذَا انشَقَّتِ  
السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ » وقوله : « وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا » .

( وإذا الكواكب انتثرت ) أى سقطت وتفرقت ، وهذا يحىء تاليا لما قبله ،  
إذ متى انشقت السماء وانتقض تركيبها ، واختل نظامها - انتثرت كواكبها .

( وإذا البحار فجرت ) أى أزيل ما بينها من حواجز ، فاختلط عذبها بملحها ،  
وقاضت على سطح الأرض حينئذ من الدهر كما قال : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ » أى  
ملئت وقاض ماؤها ، لاضطراب الأرض ووزلاها الشديد ، ووقوع الخلل  
فى جميع أجزائها .

والخلاصة - إن هذا العالم تزول صفاته ، وتبديل أحواله ، فتكون الأرض  
غير الأرض ، والسماء غير السماء كما قال : « يَوْمَ نَبْدِلُ الْأَرْضَ بِغَيْرِ الْأَرْضِ  
وَالسَّمَوَاتِ » .

( وإذا القبور بعثرت ) أى أثيرت وقلب أسفنها أعلاها ، وباطنها ظاهرها ،  
ليخرج من فيها من الموتى أحياء .

قدومه رأخرس  
 (علمت نفس ما أخصرت) أى علم كل أحد ما قدم لنفسه من عمل ولم يقصر فيه ، وعلم ما أخره وتكاسل عن أدائه .

وفى هذا ترغيب فى الطاعة ، وزجر عن المعصية .

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ؟ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ  
 فَعَدَّلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)

### شرح المفردات

ما غرك : أى أى شئ خدعك وجرّك على العصيان ؟ الكريم : أى العلي العظيم ، فسواك : أى جعل أعضائك سوية سليمة معدة لمناقها ، فمدلك : أى جعلك معتدلا متناسبا الخلق ، فى أى صورة ما شاء ركبك : أى ركبك فى صورة هى من أعجب الصور وأحكمها ، وكلمة ( ما ) جاءت زائدة لتفخيم المعنى وتعظيمه ، وهى طريقة متبعة فى كلامهم عند إرادة التهويل ، وسلوك سبيل التعظيم .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى صدر السورة أنه فى يوم القيامة يبدّل نظام هذا العالم ، ويسأل الخلائق عما قدمت أيديهم ، ويحاسبهم على ما اقترفوا من آثام ، ويقرّعهم على تكاسلهم فى أداء ما أمروا به ، ويجزئهم أحسن الجزاء على ما قدموا من عمل صالح - أردف هذا بخطاب الإنسان واستفساره عما دعاه إلى مخالفة خالقه، وتماديه فى فجوره وظغيانه ، واسترساله مع دواعى النفس الأمارة بالسوء ، مع أنه لو تدبّر فى نفسه وفى خلقه لوجد من شواهد ربوبية خالقه ما هو جدير بشكرانه ، ومدامته على

طاعته ، وهو الذى خلقه فسواه وجعله على أحسن صورة ، وكله بالعقل والفهم والتدبر فى عواقب الأمور ومصايرها .

## الإيضاح

( يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الذى خلقك فسواك فعدلك ) أى أيها الإنسان العاقل الذى أوتى من قوة الفكر ، وبسطة القدرة ما أوتى ، حتى صار بذلك أفضل المخلوقات - أى شئ خدعك وجراك على عصيان ربك الكريم الذى أنعم عليك بنعمة الوجود والعقل والتدبر ، ولا تزال أياديه تتوالى عليك ، ونعمه تترى لديك ؟ ألا تشكر من برأك وصورك فأحسن صورتك ، وجعلك معتدل القائمة ، تام الخلق ؟

ووصف نفسه بالكريم دون القهار ، إيدانا بأن ذلك مما لا يصلح أن يكون مدارا لاغتراره ، وإغواء الشيطان له بنحو قوله : افعل ما شئت فإن ربك كريم قد تفضل عليك فى الدنيا وسيفعل مثل ذلك فى الآخرة ، بل هذا يصلح للمبالغة فى الإقبال على الإيمان والطاعة .

والخلاصة — كأنه قيل ما حملك على عصيان ربك الذى من صفاته الكرم ، الزاجر لك عن عصيانه ومخالفة أمره ؟

قال عمر بن الخطاب وقد تلا الآية: غرّه جهله وقرأ: «إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا». وقال قتادة: غرّه عدوه المسلط عليه .

ثم أجل ما فصله أو لا بقوله :

( فى أى صورة ما شاء ربك ) أى ربك فى صورة هى من أبهى الصور وأجلها ، وأدلها على بقائك الأبدى فى نشأة أخرى بعد هذه النشأة ، فإن الكريم يوفى كل مرتبة من الوجود حتمها ، فمن خص بهذه المنزلة الرفيعة لا ينبغي أن يعيش

كما يعيش سائر الحيوان ، ويموت كما يموت الوحش وصغار الذرّ ، وإنما الذى يليق بعقله وقوة نفسه أن تكون له حياة أبدية لاحد لها ، ولا فناء بعدها ، يوفى فيها كل ذى حق حقه ، وكل عامل جزاء عمله .

كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ (٩) وَإِنَّ عَيْنَكُمْ لِحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا  
كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ  
الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَاهُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦)  
وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٧) مُّمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ؟ (١٨) يَوْمَ  
لَا تَلَمَّكَ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)

### شرح المفردات

كلا : كلمة تفيد نفي شيء قد تقدم وتحقيق غيره ، والدين : الجزاء ، حافظين أى يحصون أعمالكم خيرا كانت أو شرا ، والأبرار : واحدهم برّ؛ وهو من يفعل البر ( بكسر الباء ) ويتقى الله فى كل أفعاله ، والفجار : واحدهم فاجر؛ وهو التارك لما شرعه الله وحده لعباده ، يصلونها : أى يقاسون حرها ، يوم الدين : أى يوم الجزاء ، ما أدراك : أى ما أعلمك وعرفك .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن من دلائل نعمه على الإنسان خفته على أحسن صورة ، وأن ذلك يدل على أن له حياة أخرى غير هذه الحياة ، فيها يجازى بما عمل من خير أو شر - أعقب هذا بيان أنه لا شيء يفته عن التصديق بهذا اليوم إلا العناد

والتكذيب ؛ فالشعور النفسى يوحى به ، والدليل النقلى الذى أتى به الرسول يصدقه ، والله لم يترك عملاً لعباده إلا أحصاه وحفظه ، ليوفى كل عامل أجره ؛ فقد وكل الكرام الكاتبين المطهرين عن الغرض والنسيان بكتابته وضبطه .

ثم ذكر أن الناس فى هذا اليوم فريقان ، بررة مطيعون لربهم فيما به أمر وعنه نهى ، وهؤلاء يتقلبون فى النعيم ، وبخيرة يتركون أوامر الدين ، وأولئك يكونون فى دار العذاب والهوان يقاسون حر النار ، وأنه فى هذا اليوم لا يجد المرء ما يعول عليه سوى ما قدمت يداه ، فيجنوه الأولياء ، ويخذه الشفعاء ، ويتبرأ منه الأقرباء ، فلا شفع ولا نصير ، ولا وزير ولا مشير ، والحكم لله وحده ، وهو المهيم على عباده ، ويده تصريف أمورهم ، وهو الصادق فى وعده ، العدل الحكيم فى وعيده ؛ فلا هرب لعامل مما أعد له من الجزاء على عمله .

### الإيضاح

( كلاب تكذبون بالدين ) أى ارتدعوا عن الاغترار بكرمى لكم ، فإنكم لانستقيمون على ما توجبه نعمى عليكم ، ويدعوه إرشادى لكم ، بل تجترئون على ما هو أعظم منه ، فتكذبون بيوم الجزاء والحساب على التليل والكثير ، يوم تبعثون للفصل بينكم ، فتجازى كل نفس بما عملت ، وما قدمت وأخرت .

ثم حذرهم من تماديهم فى غيهم ببيان أن أعمالهم محصاة عليهم فقال :

( وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تعملون ) أى إن أعمالكم محصاة عليكم ، فقد وكل بكم ملائكة حفظة ، كرام كاتبون ، يحصون كل ما تعملون من خير وشر .

وقد ذكر ذلك فى غير موضع من الكتاب الكريم كقوله : « عَنِ اليمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَنْظُرُ مِنْ قَوْلِ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وقوله : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَرَقَّ عِبَادَهُ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً » .

وليس علينا أن نبحت عن كنه هؤلاء الحفظة ، ولا أن نعرف من أى شىء خلقوا ، وما عملهم ، وكيف يحفظون الأعمال ، وهل عندهم أوراق وأقلام ، أو هناك ألواح ترسم فيها الأعمال ، أو هم أرواح تتجلى فيها تلك الأعمال ، فتبقى فيها بقاء المداد في القرباس - كل ذلك لم يكلف العلم به ، وإنما تكلف الإيمان بصدق الخبر ، وتقويض الأمر في حقيقته إلى الله .

ثم ذكر نتيجة الحفظ والكتابة من الثواب والعقاب ، وبين أن العاملين في ذلك اليوم فريقان ، وبين مآل كل منهما فقال :

( إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم . يصلونها يوم الدين ) أى وإن أهل الثواب وهم الأبرار يكونون في دار النعيم ، وإن أهل العقاب وهم الفجار يكونون في دار الجحيم ، دار العذاب الأليم يقاسون أهوالها .

ثم بين أن هذا العذاب حتم لا منجاة لهم منه ولا مهرب فقال :

( وما هم عنها بغائبين ) أى إنهم لا يغيبون عن الجحيم ، ولا ينفكون عن عذابها ، بل هم ملازمون لها .

ثم عاد إلى تفخيم ذلك اليوم وتهويل أمره فقال :

( وما أدراك ما يوم الدين ) أى إن أمرك أيها الإنسان لعجيب ، فأنت لاه عن هذا اليوم غير مبال به ، وقد كنت خليقا أن تتعرف حقيقة حاله ، لتأخذ نفسك الخيطة ، وتتدبر أمرك ، ولا تركز إلى عفورك بكرمه وصفحه ، فإنك لاتدرى ما قدر لك .

ثم زاده توكيدا وتعظيما فقال :

( ثم ما أدراك ما يوم الدين؟ ) أى ثم عجيب منك أن تتهاون بنبأ هذا اليوم ، كأنك قد أدركت كنهه ، وعرفت وجه الخلاص مما يلائك فيه من الأهوال ، ولوعرفته حق معرفته للآت قناتك ، ورجعت إلى ربك تائباً ، وعلت إليه مستغفراً ، طالبا الصفح عما قدمت يداك .

ثم بين حقيقة أمره فقال :

( يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ) أى يوم لا نستطيع دفعا عنها ولا نفعا لها بوجه  
ولا أمر إلا لله وحده ، فكل امرئ مشغول بما هو فيه ، كما قال : « وَاتَّبَعُوا يَوْمَآ  
لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » وقال : « يَوْمَ يَغِيْرُ الرَّءُ مِنْ أُخِيْرِهِ . وَأُمَّرِهِ  
وَأَبِيْهِ . وَصَاحِبِيْهِ وَبَنِيْهِ . لِكُلِّ أَمْرِيْ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيْهِ » .

ثم أكد ما سبق بقوله :

(والأمر يومئذ لله) وحده ، فلا أحد يحصى أحدا ، ولا يقنى أحد عن أحد شيئا .  
وقد استأثر الله بالأمر كله ، فبيده تصرفه ، وإليه المرجع والمآب ..  
ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إلك لا تخلف الميعاد .

### ما فى هذه السورة من مقاصد

- (١) وصف بعض أهوال يوم القيامة .
- (٢) تقصير الإنسان فى مقابلة الإحسان بالشكران .
- (٣) بيان أن أعمال الإنسان موكل بها إكرام كاتبون .
- (٤) بيان أن الناس فى هذا اليوم : إما بررة . نعمون ، وإما فجرة معذبون .

## سورة المطففين

آياتها ست وثلاثون ، نزلت بعد سورة العنكبوت ، وهي آخر سورة نزلت بمكة .

ومناسبتها لما قبلها . أنه قال هناك : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ » وذكر هنا ما يكتبه الحافظون : « كِتَابٌ مَرْقُومٌ » يجعل في عليين أو في سبعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢)  
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوَّزَوْا نُهُهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَتَنَبَّأُونَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤)  
لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) .

## شرح المفردات

ويل : أى هلاك عظيم ، والتنطيف : البخس فى الكيل والوزن ؛ وسمى بذلك لأن ما يبخس شىء حقير طفيف ، اکتالوا على الناس : أى اکتالوا من الناس حقوقهم ، يستوفون : أى يأخذونها وافية كاملة ، كالوم : أى كالوا لهم ، يخسرون : أى ينقصون الكيل والميزان ، يقوم الناس لرب العالمين : أى يقف الناس للعرض على خالقهم ، و يطول بهم الموقف إجلالاً لعظمة ربهم .

## المعنى الجملى

فصل سبحانه فى هذه السورة ما أجمله فى سابقها ، فذكر فيها نوعاً من أنواع الفجور وهو التنطيف فى المكيال والميزان ، ثم نوعاً آخر وهو التكذيب بيوم الدين ثم أعقبه بذكر جزأهم على هذا التكذيب وتوبيخهم عليه .

## الإيضاح

( ويل للمطففين ) أى عذاب وخزى شديد يوم القيامة لمن يطفف في المكيال والميزان .

وقد خص سبحانه المطففين بهذا الوعيد ، من قبل أنه كان فاشيا منتشرا بمكة والمدينة ، فكأوا يطففون المكيال ويبخسونه ولا يوفون حق المشتري .

روى أنه كان بالندبينة رجل يقال له أبو جهينة له كيلان أحدهما كبير والثاني صغير ، فكان إذا أراد أن يشتري من أصحاب الزروع والحبوب والثمار يشتري بالكيل الكبير ، وإذا باع للناس كال المشتري بالكيل الصغير .

هذا الرجل وأمثاله ممن امتلأت نفوسهم بالطمع ، واستولى على نفوسهم الجشع - هم المقصودون بهذا الوعيد الشديد ، وهم الذين توعدهم النبي صلى الله عليه وسلم وتهتددهم بقوله : « خمس بخمس : ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طمقوا الكيل إلا منعوا النبات ، ولا منعوا الزكاة إلا خيس عنهم المطر » .

وقد بين سبحانه عمل المطففين الذى استحقوا عليه هذا الوعيد بقوله :

( الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون : وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون )  
أى إذا كان لهم عند الناس حق فى شيء من المكيالات لم يقبلوا أن يأخذوه إلا وافيها كاملا ، وإذا كان لأحد عندهم شيء وأرادوا أن يؤدوه له أعطوه ناقصا غير واف .  
واقصر النظام على الاكتيال حين الاستيفاء ، وذكر الكيل والميزان فيه حين الإخسار ، لأن المظنن فى الكيل يكون بشيء قليل لا يعما به فى الأغلب ، دون التطفيف فى الوزن ، فإن أدنى حيلة فيه يفضى إلى شيء كثير ، ولأن ما يوزن أكثر

قيمة في كثير من الأحوال مما يكال ، فإذا أخبرت الآية بأنهم لا يبقون على الناس ما هو قليل مهين من حقوقهم ، علم أنهم لا يبقون عليهم والكثير الذي لا يتسامح فيه إلا نادرا بالطريق الأولى .

وكما يكون التطفيف في الكيل والميزان يكون في أشياء أخرى ، فمن استأجر عاملا ووقف أمامه يراقبه ويطلبه بتجويد عمله ، ثم إذا كان هو عاملا أجيرا لم يراقب ربه في العمل ولم يقيم به على الوجه الذي ينبغي أن يقوم به - يكون واقعا تحت طائلة هذا الوعيد ، مستوجبا لأليم العذاب ، مهما يكن عمله ، جل أو حقر ؛ وإذا كان هذا الإنذار لمطففين الراضين بالقليل من السحت ؛ فما ظمك بأولئك الذين يأكلون أموال الناس بلا كيل ولا وزن ، بل يسلبونهم ما بأيديهم ، ويفلبونهم على ثمار أعمالهم ، فيحرمونهم التمتع بها ، اعتمادا على قوة الملك أو نفوذ السلطان أو باستعمال الحيل المختلفة .

لاجرم أن هؤلاء لا يحسبون إلا في عداد الجاحدين المنكرين ليوم الدين ، وإن زعموا بالسنتهم أنهم من المؤمنين الخبيثين .

ثم هوّل في شأن هذا العمل فقال :

(ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم) أى إن تطفيف الكيل والميزان واختلاس أموال الناس بهذه الوسيلة - لا يصدر إلا عن شخص لا يظن أنه سيبعث يوم القيامة ويحاسب على عمله ، إذ لو ظن ذلك لما طفف الكيل ولا بخش الميزان .

والخلاصة - إنه لا يجسر على فعل هذه القبائح من كان يظن بوجود يوم يحاسب الله فيه عباده على أعمالهم ، فما بالك بمن يستيقن ذلك .

ثم وصف هذا اليوم فقال :

( يوم يقوم الناس لرب العالمين ) أى هذا اليوم هو اليوم الذي يقف فيه الناس للعرض والحساب ، ويطول بهم الموقف إعظاما لجلاله تعالى .

ولا يخفى ما في الوصف برب العالمين من الدلالة على عظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف ، إذ أن الميزان هو قانون العدل الذي قامت به السموات والأرض .  
وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول : اتق الله تعال وأوف السكيل ، فإن المطمئنين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن ، حتى إن العرق ليلجهم .  
وعن عكرمة أنه قال : أشهد أن كل كيال ووزان في النار ، فقيال له : إن ابنك كيال ، فقال : أشهد إنه في النار ، وكأنه أراد المبالغة وبيان أن الغالب فيهم التطفيف .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ؟ (٨)  
كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ لِمُكْذِبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكْذِبُونَ  
بِیَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلٌّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ  
آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ (١٣) .

### شرح المفردات

سجّين : اسم للكتاب الذي دوّنت فيه أعمال الفجرة من الثقلين ، مرقوم : من رقم الكتاب إذا جعل له علامة ، والعلامة تسمى رقماً ، معتد : أى متجاوز منهيح الحق ، أثيم : أى يكتر من ارتكاب الآثام : وهى المعاصى ، أساطير الأولين : أى أخبار الأولين أخذها محمد عن بعض السابقين .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لا يقيم على التطفيف إلا من يفكر ما أوعده الله به من العرض والحساب وعذاب الكفار والمعصاة - أمرهم بالكف عما هم فيه ، وذكر أن الفجار

قد أعد لهم كتاب أحصيت فيه جميع أعمالهم ليحاسبوا بها ، فويل للكاذبين بيوم  
الجزاء ، وما يكذب به إلا كل من تجاوز حدود الدين وانتهك حرمانه ، وإذا تليت  
عليهم آيات القرآن قالوا ما هي إلا أقاصيص الأولين نقلها محمد عن السابقين ، وليست  
وحيا يوحى كما يدعى .

### الإيضاح

( كلا ) أى ازدجروا عما أنتم عليه من النطيف والغفلة عن الحساب .  
ثم قال هذا بقوله :

( إن كتاب العجار لنى سجين ) أى كفوا عما أنتم عليه ، فإن العجار  
سيحاسبون على أعمالهم ، وقد أعد الله لهم كتابا أحصى فيه أعمالهم يسمى ( سجينا ) .  
( وما أدراك ما سجين ؟ ) أى ليس ذلك مما تعلمه أنت ولا قومك .  
ثم فسره له فقال :

( كتاب مرقوم ) أى كتاب قد جعلت له علامة بها يعرف من رآه أنه  
لاخير فيه .

وقصارى ما سأل — إن للشر سجلا دونت فيه أعمال الفجار وهو كتاب  
مسطور بين الكتابة ، وهذا السجل يشتمل عليه السجل الكبير المسمى بسجين ،  
كما نقول : إن كتاب حساب قرية كذا فى السجل الفلانى المشتمل على حسابها  
وحساب غيرها من القرى .

فلكل فاجر من الفجار صحيفة ، وهذه الصحف فى السجل العظيم  
المسمى بسجين .

( ويل يومئذ للكاذبين . الذين يكذبون بيوم الدين ) أى شدة وعذاب لمن  
يكذب بيوم الجزاء ، سواء كان يجحد أخباره أو بعدم اللبالة بما يكون فيه من  
عقاب وعذاب .

وأعظم دليل على عدم المبالاة هو الإصرار على الجرائم ، والمداومة على  
اقتراح السيئات .

ثم بين أوصاف من يكذب بهذا اليوم فقال :

(وما يكذب به إلا كل معتد أثيم) أى وما يكذب بهذا اليوم إلا من اعتدى  
على الحق ، وعصى عن الإنصاف ، واعتاد ارتكاب الجرائم ، إذ يصعب عليه الإذعان  
بأخبار الآخرة ، لأنه يأبى النظر في أدلتها ، وتدبر البيئات المرشدة إلى صدقها ، إلى  
أنه يعمل نفسه بالإنكار ، ويهون عليها الأمر بالتعاقب أو التعلق بالأمانى من نصرة  
الأولياء ، أو توسط الشفعاء .

أما من كان ميالا إلى العدل ، واقفا عند ما حدى الله لعباده في شرائعه وسننه  
في نظام الكون ، فأبصر شىء عليه التصديق باليوم الآخر ، وهو أعون له على  
ماتيل إليه نفسه .

(إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) أى وإذا قرئ عليه القرآن أنكر  
كونه منزلا من عند الله ، وزعم أنه أخبار الأولين ، أخذها محمد من غيره  
من السابقين .

ومحو الآية قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ  
عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ  
تُمَثَّلُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أُنزِلَتْ الْوَحْيُ الَّذِي يُعَلِّمُ الْسَّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » .

وقد يكون المعنى — إنها أباطيل ألنيت على آباؤهم الأولين فكذبوها ولم تجز  
عليهم ، فلسنا أول من يكذب بها حتى تزعمون أن تكذبتنا بها يعتبر عجلة منا ،  
فإنا إنما نأسئنا في تكذبتنا بها بآبائنا الأولين الذين سبقونا .

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) .

### شرح المفردات

ران على قلبه : أى غطى عليه ، قال الزجاج : الرين كالصدأ يفسى التلب كالغبر الرقيق . وقال أبو عبيدة : ران على قلوبهم غلب عليها ، قال الفراء : كثرت منهم المعاصى والذنوب ، فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها ، لمحجوبون : أى مطرودون عن أبواب الكرامة ، لصالوا الجحيم : أى لداخلوا النار وملازموها .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم قالوا : إن القرآن أساطير الأولين وليس وحياً من عند الله - أردف ذلك بيان أن الذى جرأهم على ذلك هى أفعالهم القبيحة التى صرنا عليها ، فعصيت عليهم وجوه الآراء حتى صاروا لا يميزون بين الأسطورة والحجة الدامغة .

ثم رد عليهم فرية كانوا يقولونها ، ويكثرون من ترادها - وهى ، إن كان ما يحدث به محمد صحيحاً فنحن سنكون فى منزلة الكرامة عند ربنا ، فأبان لهم أنهم كاذبون ، فإنهم سيطرودون من رحمته ولا ينافون رضاه ، ثم يؤمر بهم إلى النار فيدخلونها ويصلون سعيها ، ويقال لهم هذا العذاب جزاء ما كنتم به تكذبون مما أوعدكم به الرسول .

### الإيضاح

( كلاً ) زجر لكل معتد أنهم يقول الزور ويزعم أن القرآن أساطير الأولين .

ثم بين السبب الذي حملهم على ذلك فقال :

( بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ) أى ليس الأمر كما يقولون من أنه أساطير الأولين ، بل الذى جرأهم على ذلك هو أفعالهم التى دربوا عليها واعتادوها فصارت سببا لحصول الرين على قلوبهم ، فالتبست عليهم الأمور ولم يدركوا الفرق بين الكذب الفاضح ، والصدق الواضح ، والدليل الأملح .

وبعد أن بين منزلة الفجار والمكذبين بيوم الدين - دحض ما كانوا يقولون من أن لهم الكرامة والمنزلة الرفيمة يوم القيامة فقال :

( كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ) أى ارتدعوا عما تقولون من أنكم يوم القيامة تكونون مقرين إلى الله ، فإنكم ستطردون من رحمته ولا تقالون رضاه ، ولا تدركون ما زعمتم من القرب والزلفى عنده كما قال : « وَلَا يَسْكأَهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ » .

ثم ذكر ما يكون لهم فوق ذلك فقال :

( ثم إنهم لصالوا الجحيم ) أى وبعد أن يجحبوا فى عرصات القيامة عن الدنوء من ربهم ، وإدراك أمانهم التى كانوا يفتنونها - يقذف بهم فى النار ويصلون سعيها ويقاسون حرها .

ثم أرشد إلى أنهم حينئذ ييكنون ويوجنون فوق ما بهم من الآلام فقال :

( ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون ) أى هذا الذى عوقبتم به - هو جزاء ما كنتم تكذبون به من أخبار الرسول الصادق ، كزعمكم أنكم لن تبعثوا ، وأن القرآن أساطير الأولين ، وأن محمدا ساحر أو كذاب ، إلى نحو ذلك من مقالاتكم ؛ وكان قد تبين لكم حقيقة أمركم ، وعانيتم بأنفسكم أن ما كان يقوله نبيكم هو الحق الذى لا شك فيه .

وما أشد على الإنسان إذا أصابه مكروه أن يُدَّكَّر وهو يتألم، بأن وسائل نجاته من مصابه كانت في متناول يديه وقد أهملها وأتى بها وراءه ظهرياً .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلْيُون (١٩)  
 كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) بِشَهَادَةِ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢)  
 عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)  
 يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ  
 الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَنِزَاجُهُ مِنَ التَّسْنِيمِ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا  
 الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) .

### شرح المفردات

عاليين : أى فى مكان عال وقد تقدم أن سجيننا مكان فى نهاية السفلى ، فهما مكانان أودع فيهما أعمال الناجين وأعمال الخاسرين ، وليس علينا أن نعرف ماها ؟  
 أمن أوراق أو أخشب أو معادن أخرى ، والأرائك : هى الأسرة فى الحجال ( والحجال واحدها حجلة وهى مثل القبة ) وحجلة العروس بيت : أى خيمة تزين بانثياب والأسرة والستور ، ونضرة النعيم : بهجته ورويقه ، ورحيق : أى شراب خالص لاغش فيه ، مختوم : أى ختمت أوانيه وسدت . ختامه مسك : أى ما يتختم به رأس قارورته هو المسك مكان الطين ، وأصل التنافس : التشاجر على الشئ والتمنازع فيه بأن يجب كل واحد أن ينفرد به دون صاحبه ، والمراد فليستبق المتسابقون وليجاهدوا النفوس ، ليلحقوا بالعاملين ، والنزاج والنزج : الشئ الذى يمزج بغيره ، والنزج : خلط أحد الشيئين بالآخر ، والتسليم : عين من ماء تجرى من أعلى

إلى أسفل ، وهو أشرف شراب في الجنة ، ويكون صرفا للمقربين ممزوجا لأصحاب  
اليمين وسائر أهل الجنة ، والمقربون : هم الأبرار الذين سلف ذكركم .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال الفجار وحال المطففين ، وبين منزلتهم عند الله يوم  
القيامة - أتبعه ذكر حال الأبرار الذين آمنوا برهيم وصدقوا رسولهم فيما جاء به  
عن خالقهم ، وعملوا الخير في الحياة الدنيا ، فذكر أن الله قد أحصى أعمالهم في كتاب  
مرقوم اسمه عليون يشهده المقربون من الملائكة .

وبعدئذ عدد ما ينالون من الجزاء على البر والإحسان .

وفي ذلك ترغيب في الطاعة ، وحفز لعزائم الحسنيين ، ليزدادوا إحسانا ،  
ويدعوا الطرق المشتبهة المنتبسة ويقوموا على الطريق المستقيم .

### الإيضاح

( كلا ) أى ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار من إنكار البعث ، ومن أن  
كتاب الله أساطير الأولين .

( إن كتاب الأبرار لفي عليين ) أى إن كتاب أعمال الأبرار مودع في أعلى  
الأمكنة ، بحيث يشهده المقربون من الملائكة ، تشريفا لهم وتعظيما لشأنهم .

كما أن الغرض من وضع كتاب الفجار في أسفل سافلين - إذلالهم وتحقير  
شأنهم ، وبيان أنه لا يؤبه بهم ولا يُعنى بأمرهم .

ثم عظم شأن عليين ونخم أمره فقال :

( وما أدراك ما عليون ) أى وما أعلمك أى شئ هو ؟ .

ثم فسره و بين المراد منه فقال :

(كتاب مرقوم . يشهده المقربون ) أى إن كتابهم فى هذا السجل الكبير الذى يشهده المقربون من الملائكة ، فكما وكل سبحانه أمر اللوح المحفوظ إليهم ، وكل إليهم حفظ كتاب الأبرار .

وقد يكون المراد — إنهم ينقلون ما فى تلك الصحائف إلى ذلك الكتاب الذى وكوا بحفظه ، ويصير عليهم شهادة لهؤلاء الأبرار .

و بعد أن بين منزلة كتاب الأبرار — أخذ يفصل حال الأبرار فقال :

( إن الأبرار فى نعيم ) أى إن البررة لمضيعين لربهم ، الذين يؤمنون بالبعث والحساب ، ويصدقون بما جاء على لسان رسوله — لى لذة ، وخفض عيش ، وراحة بال ، واطمئنان نفس .

ثم ذكر أوصاف هذا النعيم ونعم شأنه فقال :

( على الأرائك ينظرون ) أى على الأمرة فى حجالها ينظرون إلى أنواع نعيمهم فى الجنة من الحور العين والولدان وأنواع الأطعمة والأشربة والمراكب الفارهة إلى نحو ذلك .

ثم بين أثر هذا النعيم على أهل الجنة فقال :

( تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ) أى إنك إذا نظرت إليهم أدركت أنهم أهل نعمة ، لما ترى فى وجوههم من الأمارات الدالة على ذلك ؛ فمن ضحك ، إلى هدوء بال ، إلى استبشار كما قال : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ » . ( يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك ) أى يسقون خرا لاغش فيها ، ولا يصيب شاربها خمرا ولا يناله منها أذى كما قال تعالى : « لَآ فِىهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ » .

وقد ختمت أوانبها بختم من مسك بدل الطين ، تكرىما وصونا لها عن الابتذال على ما جرت به العادة من ختم الإنسان على ما يكرّم ويصان .

وهذا النوع من الخمر غير النوع الآخر الذي يجري في الأنهار الذي أشار إليه سبحانه بقوله : « وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ » .

ثم رغب في العمل لذلك النعيم فقال :

( وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ) أى وفي ذلك النعيم فليتنافس المتسابقون ، وليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة ربهم باتباع أوامره ، واجتنباب نواهيه .

وفي هذا إيحاء إلى أن التنافس يجب أن يكون في مش ذلك النعيم العظيم الدائم ، لا في النعيم الذي يشوبه السكر وهو سريع الفناء .

( ومزاجه من تسنيم ) أى ومزاج هذا الرحيق ينصب عليهم من الأعلى ، وقد سئل ابن عباس عن هذا فقال : هذا مما قال الله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » .

ثم بين هذا التسنيم فقال :

( عينا يشرب بها المقربون ) أى أمدح عينا يشرب منها الأبرار الرحيق مزاجا إذا أرادوا ، وقد وصفهم الله بالمقربين تكريرا لهم وزيادة في مدحهم .

وقد اعتاد أهل الدنيا إذا شربوا الخمر أن يمزجوها بالماء ونحوه . فبين لهم أنهم في الآخرة يشربون رحيقا قد وصف بما يجعل النفوس تشوق إليه ، وأنهم يمزجونه ماء تبيخهم به العين العالية القدر ، إذا شاءوا أن يمزجوه .

وقصارى ماسلف — أنه سبحانه وصف النعيم الذي أعدّه للأبرار في دار كرامته بما تتطلع إليه النفوس ، وبما يشوقها إليه ، ليكون حضا للذين يعملون الصالحات على الاستزادة من العمل والاستدامة عليه ، وحضا لهم المقصرين ، واستنهاضا لعزائمهم أن يحرصوا على التزود منه ليكون لهم مثل ما لأولئك .

إلى ما فيه من تحزين العصاة المصرين على عصيانهم ، ونبوغ الغاية في إيلاهم ، فإن العدو يسوءه أن يرى عدوه في نعمة ، أو يسمع أن النعمة تفتقر .

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا  
 مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١)  
 وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)  
 فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ  
 يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤِثُّونَ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) .

### شرح المفردات

الغمز : الإشارة بالظن والحاجب استهزاء وسخرية ، وقد يراد به العيب فيقال  
 غمز فلان فلانا إذا عابه وذكره بسوء . ويقال فلان لامغمز فيه : أى ليس فيه ما يعاب  
 به ، فكهين : أى معجبين بما هم فيه من الشرك والضلالة والعصيان ، حافظين :  
 أى رقباء يتفقدونهم ويهيمنون على أعمالهم ، والشويب والإثابة : المجازاة ؛ يقال  
 ثوبه وأثابه إذا جزاه كما قال :

سأجزيك أو يجزيك عنى مؤثوب وحسبك أن يثنى عليك وتحمدى

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه النعيم الذى هياه للذين آمنوا به وبرسوله ، وعملوا بما  
 كانوا به من أعمال البر ، وأرشد إلى ما أعدده للفجار جزاء ما اجترحوا من السيئات  
 - أخذ يبين ما كان الكفار يقابلون به المؤمنين فى الحياة الدنيا ، وما سيقابل به المؤمنون  
 الكفار يوم القيامة ، كفاء ما صنعوا معهم فى الحياة الأولى .

روى أن صناديد قریش كأبى جهل والموليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمى  
 وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأممية بن خلف وأضرابهم ، كانوا يؤذون رسول الله

صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويستهزئون بهم ويحرضون عليهم سفهاءهم وغلمانهم .  
 وهم الذين قال الله فيهم : « إِنَّا كَمْيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ »

وروى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه جاء في نفر من المسلمين فرآه بعض  
 هؤلاء الكفار فسخروا منه ومن دعبه وضحكوا منهم وتغامزوا بهم ، ثم رجعوا إلى بقية  
 شيعتهم من أهل الشرك فحدثوهم بما صنعوا به وبأصحابه .

### الإيضاح

( إن الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ) أى إن المعتدين الائمة  
 الذين ضريت نفوسهم على الشر ، وضمت آذانهم عن سماع دعوة الحق - كانوا  
 في الدنيا يضحكون من الذين آمنوا .

ذاك أنه حين رحم الله العالم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم كان كبار القوم  
 وعرفاؤهم على رأى الدهماء من عبادة الأوثان والأصنام ، وكانت دعوة الحق خافتة  
 لا يرتفع بها إلا صوته عليه السلام ، ثم يهمس بها بعض من يلقى دعوته من الضعفاء ،  
 فيسرى بها إلى من يرجو الخير فيه ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه .

ومن شأن القوى المعتز بقوته وكثرة ماله وعزة نعره أن يضحك ممن يخالفه  
 في المذبح ويدعوه إلى غير ما يعرف ، كما كان ذلك شأن جماعة من قریش كأبي جهل  
 وشيعته ، وأمثالهم كثيرون في كل زمان ومكان ، متى عمت البدع وخفي طريق الحق ،  
 وتحكمت الشهوات ، وذهب النافص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل . وإذا  
 صار الناس إلى هذه الحال ، ضعف صوت الحق ، وازدرى السامعون منهم  
 بالداعى إليه .

( وإذا مروا بهم يتغامزون ) أى وإذا مر المؤمنون بهم يميمونهم . ويذكرونهم  
 بالسوء ، ويشيرون إليهم مستهزئين .

( وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ) أى وإذا رجعوا إلى ذوى قرابتهم وبنى جلدتهم وأشياهم من أهل الشرك والضلالة — رجعوا معجبين بما فعلوا من العيب على أهل الإيمان ورميهم بالشُخف وقلة العقل ، ويقولون : عجبا لهم ، إذ يقولون لا تدعوا إلا إلهاً واحداً ، ولا تتوجهوا بانطاب إلا إليه ، فأين الأوياء والشفعاء ، فكم ضررنا وكم نفعنا — إلى نحو ذلك مما يتندرون به ويعدونه فكاهة وتاذنون بحكايته .

( وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ) أى وإذا رأوا المؤمنين قالوا إن هؤلاء ضالون ، إذ نبذوا ما عليه الكافة ، وذهبوا يمينون العقائد الموروثة والمناسك التى نقلها الخلف عن السلف ، كإبراهيم عن كابر ، وجيلاً بعد جيل .

فرد سبحانه على هؤلاء الكفار فقال :

( وما أرسلوا عليهم حافظين ) أى إن الله لم يرسل الكفار رقباء على المؤمنين ، ولم يؤتهم سلطة محاسبتهم على أفعالهم ، وتعريف باطلها من صحيحها ، فلا يسوغ لهم أن يعيبوا عليهم ما يعتقدونه ضلالاً بعقولهم الفاسدة ، وإنما كلفهم أن ينظروا شئون أنفسهم ، فيعدّلوا منها ما اعوجّ ، فإذا فعلوا ذلك قاموا بما يجب عليهم فى هذه الحياة . ثم شرع يذكر معاملة المؤمنين لهم يوم القيامة ، تسلياً لهم على ما ينالهم منهم من أذى وتقوية لقلوبهم ، وشدة لعزائهم على التذرع بالصبر فقال :

( فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون ) أى إنهم فى يوم الدين يضحك المؤمنون ضحك من وصل به يقينه إلى مشاهدة الحق فسرّ به ، وينكشف لهم ما كانوا يرجون من إكرام الله لهم وخذلان أعدائهم ، فضحكوا من أولئك المغرورين الجحدة الذين تجلت لهم عاقبة أعمالهم ، وظهر لهم سفه عقولهم وفساد أقوالهم .

( على الأرائك ينظرون ) إلى ما صنع الله بأعدائهم ، وتفكيكه بمن كانوا يفخرون

عليهم ويهزون بهم .

ثم ذكر ما ينظرون إليه ليستيقنوا من حصوله فقال :  
 ( هل توب الكفار ما كانوا يفعلون ) أى إنهم ينظرون ليتحققوا : هل جوزى  
 الكفار بما كانوا يفعلون بهم فى الدنيا .  
 وإنما سمى الجزاء على العمل ثوابا ، لأنه يُرجع إلى صاحبه نظير ما عمله من  
 خير أو شر .  
 والله الحمد على إنعامه ، والشكر على إحسانه وإفضاله .

### مقاصد هذه السورة

- (١) وعيد المطففين .
- (٢) بيان أن صحائف أعمال الفجار فى أسفل سافلين .
- (٣) الإرشاد إلى أن صحائف أعمال الأبرار فى أعلى عليين .
- (٤) وصف نعيم الأبرار فى ما كلهم ومشاربهم ومسكنهم .
- (٥) استهزاء المجرمين بالمؤمنين فى الدنيا ونغازم بهم وحكمهم عليهم بالضلال .
- (٦) تضاحك المؤمنين منهم يوم القيامة .
- (٧) نظر المؤمنين إلى المجرمين وهم يلقون جزاءهم وما أعد لهم من النكال .

## سورة الانشقاق

هى مكية ، وآياتها خمس وعشرون ، نزلت بعد سورة الانفطار .  
ومناسبتها لما قبلها — أنه فى السابقة ذكر مقر كتب الحفظة ، وفى هذه ذكر  
عرضها يوم القيامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ  
مَدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا  
الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَأْتَهُ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ  
كِتَابَهُ يَمِينًا (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ  
مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو  
تُبُورًا (١١) وَيَصْنَعُ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ  
أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) .

## شرح المفردات

انشقت : أى انشقت بالتمام كما جاء فى قوله : « وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالنِّعَمِ »

وأذنت لربها : أى استمعت له كما قال :

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ وَإِنْ ذُكِرَتْ شَرًّا عِنْدَهُمْ أُذِنُوا

وحقَّت : أى وحق لها أن تتمثل ذلك أى يجدر بها أن تكون كذلك ،

قال كثير :

فإن تكن العتبي فأهلاً ومرحباً وحقت لها العتبي لدينا وقتلت  
مدت : أى بسطت بزوال جبالها ونسفها حتى صارت قاعاً صنفصفا لا ترى فيها  
عوجاً ولا أمناً ، وأتقت مافيها : أى ألتقت مافي جوفها من الموتي والكنوز ، وتخلت :  
أى خلعت مما فيها فلم يبق فيها شيء ، كادخ : أى جاهد مجد . قال شاعرهم :  
ومضت بشيشة كل عيشٍ وبقيمتُ أكدح للحياة وأنصبُ  
فملاقيه : أى فملاق له عقب ذلك ، ينقلب : أى يرجع ، أهله : أى عشيرته  
المؤمنين ، وراء ظهره : أى يؤتاه بشماله من وراء ظهره ، والتبور : الهلاك أى ينادى  
ويقول : واثبوراها أفيل فهنا أوانك ، ويصلى : أى يقاسى ، وسعيراً : أى ناراً  
مستعرة ، مسروراً : أى فرحاً ، يحور : أى يرجع قال لبيد :  
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطعُ  
والمراد أنه لن يرجع إلى الله ، بلى : أى بلى يحور ويرجع .

### المعنى الجملى

بين سبحانه في أوائل هذه السورة أهوال يوم القيامة ، فذكر أنه حين انشقاق  
السماء واختلال نظام العالم ، وانبساط الأرض بنسف مافيها من جبال ، وتخليها  
عما في جوفها — يلاق المرء ربه فيوفيه حسابه ، وينقسم الناس حينئذ فرقتين :  
(١) فريق الصالحين البررة ، وهؤلاء يحاسبون حساباً يسيراً ويرجعون  
مسرورين إلى أهلهم .

(٢) فريق الكفرة والعصاة ، وهؤلاء يؤتون كتبهم وراء ظهورهم ، ثم يصلون  
حر النار لأنهم كانوا فرحين بما يتمتعون به من اللذات والجري وراء الشهوات ،  
إذ كانوا يظنون أن لا بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب .

## الإيضاح

( إذا السماء انشقت ) لفساد تركيبها واختلال نظامها ، حينما يريد الله خراب هذا العالم يحدث من الأحداث ، كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من كوكب آخر ، فيتجاذبان ويتصادمان . فيضطرب نظام العالم العلوي بأسره ، ويحدث من ذلك غمام يظهر في مواضع متفرقة من هذا الفضاء الواسع .

( وأذنت لربها ) أى استمعت وانقادت لتأثير قدرته ، وفعلت فعل المطواع الذى إذا أمر أنصت وأذعن وامتل ما أمر به ، وفى الحديث : « ما أذن الله لشيء إذنه لنبي يتفنى بالقرآن »

( وحقت ) أى وحق لها أن تتمثل لأنها مخلوقة من مخلوقاته وهى فى قبضته ، فإن أراد تبديد نظامها فعل ولم يكن لها أن تعصى إرادته .

( وإذا الأرض مدت ) أى وإذا اضطربت الأرض ودكت جبالها ، وتقطعت أوصالها ، وفقدت ما بينها من التماسك ، فليس لها هذا الاندماج المشاهد الآن بل تمدد مدّة الأديم المكافئ كما روى عن ابن عباس (والأديم : الجلد ، والمكافئ : المدبوغ فى عكاز ) والمراد أنه لا انشقاق فيها ولا اعوجاج .

( وألقت ما فيها ) أى رمت ما فى جوفها من الناس والمعادن ، وأخرجت كل ذلك إلى ظاهرها .

ومحو هذا قوله : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » وقوله : « وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثِرَتْ » وقوله : « إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ » .

( وتخلت ) أى خلت من جميع ما فى جوفها ، ور بما قدفته الحركة العنيفة إلى ما يبعد عن سطحها ، فيخلو منه باطن الأرض وظاهرها ، وهى فى ذلك خاضعة لأوامر ربها ، منفادة لمشيئته .

(وأذنت لربها وحقت) أى واستمعت وأطاعت وأمره، لأنها فى قبضة القدرة الإلهية تصرّفها فى الفناء، كما صرّفها فى الابتداء .

وجواب إذا الذى صدرت به السورة محذوف لإرادة التهويل على المخاطبين، فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذا وكذا مما تقدم ذكره -- ترون ما عملتم من خير أو شر، فاكدحوا لذلك اليوم، تفوزوا بالنعيم .

وقصارى ذلك — وصف أحوال العالم يوم القيامة «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» وأنه يكون على غير حاله التى هو عليها فى هذه الحياة، فتبدل الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات، ويبرز الناس للحساب على ما قدموا فى حياتهم من عمل فيجازيهم على الإحسان إحساناً، وعلى الإساءة السوءى، وعلينا أن نؤمن بذلك كله، ونكل علم حقيقته، ومعرفة كنهه إلى الله تعالى الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاقية) أى أيها الإنسان، إنك عامل فى هذه الحياة ومجدد فى عملك، ومبالغ فى إدراك الغاية إلى أن تنتهى حياتك، وإن كنت لا تشعر بجدك، أو تشعر به وتلهو عنه، وكل خطوة فى عملك فهى فى الحقيقة خطوة إلى أجلك، وهناك لقاء الله، فالمتى يكشف عن الروح غطاء الغفلة ويحلوها وجه الحق، فتعرف من الله ما كانت تشكره، ويوم البعث يرتفع الائتباس، ويعرف كل عامل ماجراً بإيه عمله .

والناس حينئذ صنفان :

(١) فأما من أوتى كتابه يمينه. فسوف يحاسب حساباً يسيراً، وينقلب إلى أهله مسروراً) أى فأما من عرض عليه سجل أعماله وتناوله يمينه، فإنه يحاسب أيسر الحساب، إذ تعرض عليه أعماله فيعرف بطاعته وبمعاصيه، ثم يثاب على ما كان منها طاعة، ويتجاوز له عما كان منها معصية .

وقد روى عن عائشة أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :  
« اللهم حاسبني حسابا يسيرا ، قلت وما الحساب اليسير؟ قال : يُفطر في كتابه ويتجاوز  
عن سيئاته ، فأما من نوقس الحساب فقد هلك » .

ومن حوسب هذا الحساب اليسير رجع إلى أهله المؤمنين مسرورا مبتهجا قائلا :  
« هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ » .

(٢) (وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ . فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا . وَيَصْلَى سَعِيرًا)  
أى وأما الذين أكثروا من ارتكاب الجرائم ، واجتراح المعاصي ، فيؤتون كتبهم  
بشئائهم من وراء ظهورهم ، ومد اليسار إلى الكتاب دليل الكراهة ، وأظهر  
في الدلالة على الكراهة والنفور أن يستدبره ويعرض عنه فيكون من وراء ظهره .  
وقصارى ماسلف — إن من عرض عليه كتابه وقدم إليه ليأخذه ، فاندفع إليه  
بعزيمة صادقة ، لشعوره بأنه مستودع الصالحات ، وسجل البر والكرامات ، فشأنه  
كذا وكذا .

ومن قَدَّم إليه كتابه وعرض عليه عمله ، فخرت نفسه وخارت عزيمته ،  
فدَّأ إليه يساره أو أعرض عنه فولاه ظهره لشعوره بأنه ديوان السيئات ، وسجين  
الحجازي فأمره كيت وكيت .

يرشد إلى ذلك ماورد من التفصيل في سورة الحاقة « فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ  
بِئَمِّينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ » . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ . فَهُوَ  
فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ » ودعوة الناس إلى القراءة علامة الفرح والنشاط وقوة العزيمة .

« وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ شِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا أَيْتَنِّي لِمَ أُوتِ كِتَابِيَهٗ . وَلَمْ أَدْرِ  
مَا حِسَابِيَهٗ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أُغْنِي عَنِّي مَالِيَهٗ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ »  
ولا شك أن هذا قول الخذول الكاره لما عرض عليه .

والخلاصة — إن إيتاء السكتاب باليمين ، أو باليسار أو من وراء الظهر تصوير لحال المطلع على أعماله في ذلك اليوم ؛ فمن الناس من إذا كشف له عمله ابتهج واستبشر وتناول كتابه بيمينه ، ومنهم من إذا تكشفت له سوابق أعماله عبس وبسر وأعرض عنها وأدبر ، وتمنى لو لم تكشف له ، وتناولها باليسار أو من وراء الظهر ، وحينئذ يدعو واثبورا ، أى يهلك أقبل فإنى لا أريد أن أبقى حيا ، علما منه بأن ذلك داع إلى طول العذاب ، وأنه سيدخل النار ويقاسى سعيرها .

ثم ذكر سبحانه سببين في استحقاقه للعذاب في الآخرة فقال :

(١) (إنه كان في أهله مسرورا) أى لأنه كان في حياته الدنيا فرحا بطرا لا يفكر في أمور الآخرة ، ويقدم على المعاصى ظنا منه أن لذاتها لا توجب الحسرة ، ولا تورث التردى في نار الجحيم ، ومن ثم أبدله الله بهذا النعيم الزائل عذابا لا ينقطع ، وآلاما لا تنفد .

(٢) (إنه ظن أن لن يحور) أى إنه ظن أن لن يرجع إلى ربه ، وأنه لن يبعث انخلق لحسابهم على ما قدموا ، ولو علم أن الله سيدبل سروره ها ، وفرحه حزنا ونحما — لأقلع عما هو فيه ، وترك هذا السرور العاجل السريع الفناء ، وطالب من السرور ما يبقى ما بقيت الجنة التي لا يفنى نعيمها ، ولا يزول سرور أهلها .

وفي الآية إيماء إلى أن المسخرين لشهواتهم ، الساعين وراء لذاتهم ليسوا بظانين فضلا عن أن يكونوا مستيقنين بأنهم يرجعون إلى ربهم ليحاسبهم ، بل الراجع عندهم أنهم لا يحاسبون ، وأن الله يخلف وعده ، وهذا هو الذى ينسبهم ذكره عند كل جرم يُجرّمونه ، فهم وإن كانوا يزعمون الإيمان بالله ووعده ووعيده ، فهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

ثم رد عليه ظنه الخاطى فقال :

(بلى إن ربه كان به بصيرا) أى بلى ليحوركن وليرجنن إلى ربه ، وإيحاسبنه على عمله ، فيجزى على الخير خيرا وعلى الشر شرًا ، فإن الذى يخدق الإنسان مستعدًا

لما لا يتناهى من السكال، بما وهبه من العقل، لا ينشئه هذه النشأة الرفيعة لتكون غاية غاية سائر الحيوان، بل تقضى حكمته أن يجعل له حياة بعد هذه الحياة يثمر فيها أعماله، ويرافى فيها كماله.

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨)  
لَتَرَ كُيُوبًا طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ  
الْقُرْآنُ لَا يُسْجِدُونَ (٢١) بِلِلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ  
بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥).

### شرح المفردات

الشفق: هو الحمرة التي تشاهد في الأفق الغربى بعد الغروب، وأصله رقة الشئ؛  
يقال ثوب شفق: أى لا يتماثل لرقته، ومنه أشفق عليه: أى رق له قلبه قال:  
تهوى حياتى وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم  
وسق: أى ضم وجمع؛ يقال وسقه فانسق واستوسق: أى جمعه فاجتمع، وإبل  
مستوسقة: أى مجتمعة قال:

إن لنا قلائصاً حقائقاً مستوسقاتٍ لم يحذن سائقاً  
وانسق: أى اجتمع نوره وصار بدراً، لتركبن: أى لتلاقن، والطبق: الحال  
المطابقة لغيرها، قال الأقرع بن حابس:

إني امرؤٌ حلبت الدهرَ أشطره وسبني طبق منه إلى طبق  
والمراد لتركبن أحوالاً بعد أحوال هي طبقت في الشدة بعضها أرفع من بعض

وهي الموت وما بعده ، لا يسجدون : أى لا يخضعون ولا يستكينون ، يعون : أى يجتمعون فى صدورهم من الإعراض والجحود والحسد والبغى ، والبشارة : الإخبار بما يسر ؛ واستعملت فى العذاب تهكاً ، وممنون : أى مقطوع من قلوبهم من فلان الحبل إذا قطعه .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الإنسان راجع إلى ربه فملاقيه ومحاسبه ، إما حساباً سيراً إن كان قد عمل الصالحات ، أو حساباً عسيراً إن كان قد اجترح السيئات ، أقسم بآيات له فى الكائنات ، ظاهرات باهرات ، إن البعث كائن لا محالة ، وإن الناس يلقون شدائد الأحوال حتى يفرغوا من حسابهم ، فيصير كل أحد إلى ما أعد له من جنة أو نار .

ونحو الآية قوله : « بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِيتُمْ » وتوله : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا » فمن عجيب أمرهم أنهم لا يؤمنون به ، وأعجب منه أنه إذا قرئ عليهم القرآن لا يخضعون له ولا يستكينون ، لأن العناد صدمهم عن الإيمان ، ومنعهم من الإذعان ، والله أعلم بما تكنه صدورهم ، وسيجازيهم بشديد العذاب ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم ثواب عند ربهم لا ينقطع .

### الإيضاح

( فلا أقسم ) تقدم أن قلند : إن العرب اعتادت أن تأتي بمثل هذا القسم حين يكون المقسم عليه أمراً ظاهراً لا يحتاج إلى التوكيد ، فكأنه سبحانه يقول : لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات ما أذكره لكم لأن أمره ظاهر ، وثبوتها غير محتاج إلى الحلف عليه .

ويرى بعض العلماء أنه إنما يستعمل حين يكون الحلف على أمر جليل القدر ، عظيم الشأن لا يكفي القسم لإثباته ، فكأنه سبحانه يقول : لا أقسم بهذه الأشياء

على إثبات ما أريد ، لأن إثباته أعظم وأجلّ من أن يقسم عليه بهذه الأمور الهينة ،  
والغرض على هذا الوجه تعظيم المقسم عليه وتفخيم شأنه .

(بالشفق . والليل وما وسق . والقمر إذا انسق ) أى أقسم بهذه الأشياء التى إذا  
تدبر الإنسان أمرها ، استدل بجلالها وعظمة شأنها على قدرة مبدعها .

( اتركبنّ طبقاً عن طبق ) أى لتلاقنّ أيها الناس أموراً بعد أمور وأحوالاً بعد  
أحوال ، إلى أن تصيروا إلى ربكم وهناك الخلود فى جنة أو نار .

ويدخل فى هذه الأحوال جميع الأطوار التى مرت به منذ أن كان نطامة فى بطن  
أمه إلى أن صار شخصاً ، وما مرّ به فى حياته الأولى من طفولة وشيخوخة ثم موته  
ثم حشره للحساب ، ثم مصيره إلى الجنة أو النار .

والخلاصة — لتركبنّ حالاً بعد حال والحال الثانية تطابق الأولى ، أى لتكوننّ  
فى حياة أخرى تماثل هذه الحياة التى أنتم فيها وتطابقها من حيث الحس والإدراك ،  
والألم واللذة ، وإن خالفت فى بعض شؤونها الحياة الأولى .

وبعد أن ذكر الأدلة القاطعة على صحة البعث والحساب أنكر عليهم استبعادهم  
له فقال :

( فما لهم لا يؤمنون ؟ ) أى فأى شىء حدث لهم حتى جحدوا قدرة الله وأنكروا  
صحة البعث ، وكل شىء أمامهم ينادى بباهر قدرته ، ويرشد إلى عظيم سلطانه ؟  
وقصارى ذلك — إنه لاشبهة لهم يصح أن يستمسكوا بها على إنكار  
البعث والحساب .

( وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ) أى وماذا حدث لهم حتى صاروا إذا  
قرئ عليهم القرآن لا يعترفون بإعجازه ، وبلوغه الغاية التى لا يمكن البشر أن يصلوا  
إليها فأمرهم عجيب ، فهم أهل اللسان وأرباب البلاغة والبراعة ، وذو يقتضى أن يعلموا  
إعجازه ، ومتى علموه استكانوا وخضعوا له ، وأدركوا صحة نبوة الرسول الذى جاء به ،  
ووجبت عليهم طاعته .

ثم بين السبب في عدم إيمانهم به وانقيادهم له فقال :  
 (بل الذين كفروا يكذبون) أى إن الدلائل الموجبة للإيمان جلية واضحة ،  
 لسكنهم قوم معاندون مصّون على التكذيب ، إما لأنهم يحسدون الرسول صلى الله  
 عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله ، وإما لخوفهم من قوت المناصب الدينية ،  
 والرياسات التقليدية ، وإما لأنهم يأبون أن يخالفوا ما وجدوا عليه آباءهم من عقائد  
 زائفة ، وأفعال مستهجنة .

(والله أعلم بما يعنون) أى والله سبحانه مطلع على منفي قلوبهم من أسباب  
 الإصرار على الشرك ودواعي العناد والاستمرار على ما هم عليه .  
 (فيشرهم بذياب اليم) جزء إعراضهم على التكذيب والجحود ، وإصرارهم  
 على سبب العمل ، وناسد الاعتقاد .

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى لسكن الذين آمنوا  
 بالله ورسوله وخضعوا للقرآن الكريم وعملوا بما جاء فيه ، فأولئك لهم أجر لا ينقطع  
 مدده ، ولا ينقص منه .

وفي هذا ترغيب في الطاعة ، وزجر عن المعصية ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة  
 والسلام على سيد المرسلين .

### مقاصد السورة

تشتمل هذه السورة على مقصدين :

(١) أن الإنسان يلاقى نتائج أعماله يوم القيامة ، فيأخذ كتابه بيمينه أو من  
 وراء ظهره .

(٢) أن الناس في الدنيا يتنقلون في أحوالهم طبقة بعد طبقة إما في نعيم مقيم ،  
 وإما في عذاب أليم .

## سورة البروج

هي مكية ، وآياتها ثنتان وعشرون ، نزلت بعد سورة الشمس .

مناسبتها لما قبلها :

(١) اشتغالها كالتى قبلها على وعد المؤمنين ووعد الكافرين ، مع التنويه بشأن

القرآن ونخامته .

(٢) أنه ذكر في السورة السابقة أنه عليم بما يجمعون للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من المكر والخداع وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذى كالضرب والقتل والإلقاء فى حمارة القيظ ، وذكر هنا أن هذه شئسنة من تقدمهم من الأمم ، فقد عذبوا المؤمنين بالنار كما فعل أصحاب الأخدود .

وفى هذا عظة لقريش ، وتثبيت من يعذبون من المؤمنين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودِ (٣)  
 قَتِيلِ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦)  
 وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا  
 بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ  
 شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) .

## شرح المفردات

البروج : واحدها برج ؛ ويطلق على الحصن والقصر العالى وعلى أحد بروج السماء  
 الاثنى عشر ، وهى منازل الكواكب والشمس والقمر ؛ فيسير القمر فى كل برج منها

يومين وثلاث يوم فذلك ثمانية وعشرون يوما ثم يستتر ليلتين ؛ وتسير الشمس في كل برج منها شهرا ، ستة منها في شمال خط الاستواء ، وستة في جنوبه ؛ فالتى في شماله هى : الحَمَل والثور والجوزاء والمَرَطان والأسد والسَنَبَلَة ، والتى في جنوبه هى الميزان والعقرب والقوس والجذى والدَّو والحوت ؛ وتقطع الثلاثة الأولى في ثلاثة أشهر ، أوّلها اليوم العشرون من شهر مارث ، وهذه المدة هى فصل الربيع ، وتقطع الثلاثة الثانية في ثلاثة أشهر أيضا أوّلها اليوم الحادى والعشرون من شهر يونيه ، وهذه المدة هى فصل الصيف ؛ وتقطع الثلاثة الأولى من الجنوبية في ثلاثة أشهر أيضا ، أوّلها اليوم الثانى والعشرون من شهر سبتمبر ، وهذه المدة هى فصل الخريف ؛ وتقطع الثلاثة الثانية من الجنوبية في ثلاثة أشهر أيضا أوّلها اليوم الثانى والعشرون من شهر ديسمبر ، وهذه المدة هى فصل الشتاء ، واليوم الموعود : هو يوم القيامة ، لأن الله قد وعده به ، والشاهد والمشهود : جميع ما خلق الله تعالى في هذا العالم ، فإن كل ما خلقه شاهد على جليل قدرته ، وعظيم حكيمته .

وفي كل شىء له آية تدل على أنه واحد

وهو مشهود أيضا لكل ذى عينين ، والأخدود : الشق في الأرض يجفر مستطيلا ، وجمعه أخايد ، وأصحاب الأخدود: قوم كافرون ذور بأس وقوة رأوا قوما من المؤمنين فناظهم إيمانهم فملوهم على الكفر فأبوا فشقوا لهم شقا في الأرض وحشوه بالنار والقوم فيه ، وكان هؤلاء الغلاظ الأكياد على جوانب الشق يشهدون الإحراق ، وما تقمرا مهمم : أى ما عابوا عليهم ، العزيز : أى الذى لا تُغلب قوته ، الحميد : أى الذى يحمد على كل حال .

### المعنى الجملى

أقسم سبحانه بما فيه غيب وشهود ، وهو السماء ذات البروج ، فإن كواكبها مشهود نورها ، مرئىّ صورها ، معروفة حركاتها في طلوعها وغروبها ، وكذلك البروج

نشاهدها وفيها غيب لانعرفه بالحس ، وهو حقيقة الكواكب وما أودع الله فيها من القوى وما فيها من عوالم لانراها ولا ندرك حقيقتها .

وأقسم بما هو غيب صرّف ، وهو اليوم الموعود وما يكون فيه من حوادث البعث والحساب والعقاب والثواب .

وأقسم بما هو شهادة صرفة وهو الشاهد : أى ذو الحس ، والمشهود : وهو ما يقع عليه الحس .

أقسم سبعانه بكل ما سلف إن من قبهم من المؤمنين الموحدين ابتلوا ببطش أعدائهم بهم ، واشتدادهم في إيذائهم ، حتى خدّوا لهم الأخاديد وملثوها بالنيران وقدفونهم فيها ولم تأخذهم بهم رافة ، بل كانوا يتشفون بروية ما يحل بهم ، وهم مع ذلك قد صبروا وانتقم الله من أعدائهم ؛ ومن أوقع بهم ، وأخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر ، ولئن صبرتم أيها المؤمنون على الأذى ليوفينكم أجركم ، وليأخذن أعداءكم ولينزّلن بهم ما لا قبيل لهم به .

وقد حكى الله هذا القصص ، ليكون تثبيتاً لقلوب المؤمنين ، ووعدا لعباده الصالحين ، وحلا لهم على الصبر والمجاهدة في سبيله ، ووعيدا للكافرين وأنه سيحلّ بهم مثل ما حلّ بمن قبلهم : « سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ - فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا » .

## الإيضاح

( والسماء ذات البروج ) أى قسما بالسماء ذات الكواكب العظيمة التي لم يُستطع لها إحصاء ولا عدّ ، منها ما لا يصل ضوءه إلينا إلا في ألف ألف سنة وخمسمائة ألف ، مع أن الضوء يسير في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو ، ويصل في سيره إلى القمر في قدر ثانية وثلاث الثانية ، ولو جرى حول الكرة

الأرضية لدار حولها في الثانية الواحدة نحو ثمان مرات ، ولو أطلق مدفع فإن قنبلته تجرى نحو سنة ونصف سنة حتى تقطع المسافة التي يقطعها الضوء في ثانية واحدة .  
فما أبعد الكواكب التي يصل ضوءها إلينا بعد مليون سنة ونصف المليون ،  
وإلى أي حد هي عظيمة بالنسبة إلى شمسنا .

وقد أقسم الله بهذه الكواكب لما فيها من عجيب الصنعة ، وباهر الحكمة ،  
ولما فيها من مصالح ومنافع للناس في هذه الحياة تدل على أن لها صناعا حكما مدبرا ،  
إلى أنه يحثنا على البحث عن هذه العوالم ، لنستدل بذلك على عظيم قدره ،  
وجليل حكمته .

( واليوم الموعود ) وهو يوم الفصل والجزاء الذي وعد الله به على السنة رسله ،  
وفيه يتفرد ربنا بالملك والحكم .

( وشاهد ومشهود ) أي وبجميع ما خلق الله في هذا الكون مما يشهده الناس  
ويرونه رأى العين ، فمنهم من يتدبر ويستفيد من النظر إليه ، ومنهم من لا يستفيد  
من ذلك شيئا .

وقصارى ذلك — إنه سبحانه أقسم بالعوالم كلها ليلفت الناظرين إلى ما فيها  
من العظم والفخامة ، وليعتبروا بما حضر ، ويبدلوا جهدهم في درك حقيقة ما استقر .  
( قتل أصحاب الأخدود ) أي أخذوا بذنوبهم ، ونزل بهم نكال الدنيا  
وعذاب الآخرة .

ومن حديث ذلك أنه قد وقع إلى نجران من أرض اليمن رجل ممن كانوا على  
دين عيسى بن مريم فدعا أهلها إلى دينه وكانوا على اليهودية ، وأعلمهم أن الله بعث  
عيسى بشريعة ناسخة لشريعتهم ، فأمن به قوم منهم ، وبلغ ذلك ذا نوس  
ملكهم وكان يتمسك باليهودية ، فسار إليهم بجنود من حجير ، فلما أخذهم خيرهم  
بين اليهودية والإحراق بالنار ، وحفر لهم حفيرة ثم أضرم فيها النار ، وصار يُوقئ

بالرجل منهم فيخيره ، فمن جزع من النار وخاف العذاب ورجع عن دينه ورضى اليهودية تركه ، ومن استمسك يدينه ولم يبال بالعذاب الدنيوى لثقتة بأن الله يجزيه أحسن الجزاء - ألقاه في النار وكان حولها يشرف على هلاكه .

تم بين من هم أصحاب الأخدود فقال :

( النار ذات الوقود ) أى إن أصحاب الأخدود هم أصحاب النار التى لها من الحطب الكثير ما يشتد به لهيبها ، لاجرم يكون حريقها عظيما ، ولهبها متطائرا .  
 ( إذ هم عليها قعود ) أى قتلوا وامنوا حين أحرقوا المؤمنين بالنار وهم قاعدون حولها يشرفون عليهم وهم يعذبون بها - ويحرقون فيها كما أشار إلى ذلك بقوله :  
 ( وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ) أى إن أولئك الجبابرة الذين أسروا بإحراق المؤمنين كانوا حضورا عند تعذيبهم ، يشاهدون ما يفعله بهم أتباعهم .  
 وفى هذا إيماء إلى قسوة قلوبهم ، وتمكن الكفر منهم ، إلى ما فيه من إشارة إلى قوة اصطبار المؤمنين وشدة جلدهم ، ورباطة جأشهم ، واستمسككم بدينهم .  
 وقد يكون المعنى - يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنه لم يقصر فى التنكيل بالمؤمنين .

( وما نعموا معهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ) أى إن هؤلاء الكفار يعاقبوا المؤمنين إلا على شئ لا يجوز العقاب عليه ، بل ينبغى لكل أحد أن يكون عليه ، ويدعو غيره إلى التمسك به ، وهو الإيمان بالله تعالى العزيز الغالب الذى يخشى عقابه ، وتهاب صوته ، المنعم الذى يرجى ثوابه ، وترتقب نعمائه .

ثم أكد استحقاقه للعزة والجد بقوله :

( الذى له ملك السموات والأرض ) أى لأنه مالك الأمر كله فيهما ، فلا مفرّ لأولئك الظالمين من سلطانه ، وأن ما يلاقيه المؤمنون ليس إلا امتحانا وابتلاء مما يحص الله به أهل طاعته ، ليعلمهم أنهم أحسن عملا .

ثم وبجهم على ما صنعوا بالمؤمنين وأوعدهم بأنهم سيلاقون جزاء ما فعلوا فقال :  
( والله على كل شيء شهيد ) فهو عليم بما يكون من خلقه ومجازيهم عليه .

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ  
جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ  
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) .

### شرح المفردات

فتنوا : أى ابتلوا وامتحنوا ، عذاب الحريق : هو عذاب جهنم ذكر تفسيرها  
وبيانها له ، الفوز الكبير : أى الذى تصغر الدنيا بأسرها عنده ، بما فيها من  
رغائب لا تقنى .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصة أصحاب الأخدود وبين ما فعلوه من الإيذاء والتنكيل بالمؤمنين  
وذيّل ذلك بما يدل على أنه لو شاء لمنع بعزته وجبروته أولئك الجبابرة عن هؤلاء  
المؤمنين ، وأنه إن أمهل هؤلاء الفجرة عن العقاب فى الدنيا فهو لم يهملهم ، بل أجل  
عقابهم ليوم تشخص فيه الأبصار - ذكر ما أعد للكفار من العذاب الأليم ، جزاء  
ما اجترحت أيديهم من السيئات التى منها إيذاء المؤمنين ، وما أعد للمؤمنين من  
جميل الثواب ، وعظيم الجزاء .

### الإيضاح

( إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب  
الحريق ) أى إن الذين امتحنوا المؤمنين والمؤمنات بالتعذيب ، ليردوهم عن دينهم ،

وثبتوا على كفرهم وعنادهم ولم يتوبوا حتى أخذهم الموت - أعدّ الله لهم عذاباً في جهنم بالحريق .

وقد كان الضالون من كل أمة يؤذون أهل الحق والدعاة إليه ، حرصاً على ما ألفوا من الباطل ، وتشميتاً لما وجدوا عليه أنفسهم وآباءهم الأقربين ، على غير بصيرة ، ولا استشارة للعقل السليم ، ولا يزال هذا شأنهم إلى يوم الدين .

أنظر إلى أصحاب الأخدود تجدهم قد عرضوا المؤمنين على النار وأحرقوهم بها ، وإلى كفار قریش ترمهم قد فتنوا المؤمنين بالكثير من الإيذاء ، فعذبوا آل ياسر بفنون من العذاب ، وعذبوا بلالاً بما لا يحصى من ضروب الأذى ، وفعّلوا مثل هذا بكثير من أكابر المؤمنين ، حتى لقد آذوا الرسول الأكرم وألحقوا به كثيراً من العنت والأذى ، فرموه بالحجارة حتى أدموه ، بل فعلوا معه أكثر من هذا فخرجوا بمخيلهم ورجلهم يقاتلونه وأصحابه ، ويتمنون لو يتمكنون منه ليقتلوه ، ولكن الله منعه منهم : « وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » .

وفي قوله : « ثم لم يتوبوا » إيماء إلى أنهم لو تابوا قبل موتهم غفر الله لهم ما قدموا قبل التوبة من ذنب .

وبعد أن ذكر ما أعد لأعدائه من النكال والعذاب الأليم - أرشد إلى ما يكون لأوليائه من النعيم المقيم ، ليكون ذلك أنكى للأعداء ، وأشد في غيظهم ، وأبعث للآسمى والحزن في نفوسهم فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) أى إن الذين أقروا بوحداية الله وعملوا صالح الأعمال التمارا بأوامره وكفوا عن نواهيه ابتغاء رضوانه - لهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ، وهذا هو الظفر الكبير لهم ، كفاء ما قدموا من إيمان وطاعة لهم .

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ  
الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَمَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) .

### شرح المفردات

البطش : الأخذ بالنعف والشدة ، يبدي ويعيد : أى هو الذى يبدأ الخلق ثم يفيهم ثم يعيدهم أحياء مرة أخرى ، ليجازيهم بما عملوا فى حياتهم الأولى ، الغفور : أى الذى يغفو ويستر ذنوب عباده بمغفرته ، الودود : أى الذى يحب أوليائه ويتودد إليهم بالغفو عن صغير ذنوبهم ، ذو العرش : أى صاحب الملك والسلطان والقدرة النافذة ، المجيد : أى السامى القدر المتناهى فى الجود والكرم ، تقول العرب : « فى كل شجر نار ، واستمجد المرئخ والغفار » : أى تناهيا فى الاحتراق حتى يفتبس منهما .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ووصف ما أعد لهم من الثواب كغناء أعمالهم - أردف ذلك كله بما يدل على تمام قدرته على ذلك ، ليكون ذلك بمثابة تأكيد لما سبق من الوعيد والوعد . فالملك لا يحظم سلطانه وهيبته فى النفوس إلا بأمرين :

- (١) الجود الشامل والإينام الكامل ، وبذا يرجى خيره .
- (٢) الجيوش الجرارة والأساطيل العظيمة التى توقع بأعدائه وتكمل بهم ، وبذلك يهاب جانبه ، وإليهما معا أشار بقوله فيما سلف : « العَزِيزِ الْحَمِيدِ » وهنا زاد الأمر إيضاحا بقوله : « إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » الآية .

## الإيضاح

(إن بطش ربك لشديد) أى إن انتقامه من الجبابرة والظلمة ، وأخذه إياهم بالمقوبة - هو الغاية فى الشدة ، والتهية فى الأذى والألم .

وفى هذا إرهاب لقريش ومن معها ، وتعزية لرسوله صلى الله عليه وسلم ولبن معه .

وقد زاد سبحانه أمر قدرته تأكيداً فقال :

(إنه هو يبدى ويبيد) أى إنه يخلق الخلق ابتداء ، ثم يعيدهم بعد أن صيرهم تراباً ، وإذا كان قادراً على البدء والإعادة فهو قادر على شديد البطش بهم ، لأنهم تحت قبضته ، وخاضعون لسلطانه

فكانه سبحانه يقول : إن مرجعكم إلى ربكم ، فإذا لم يعقبكم فى هذه الحياة على ما تعملون مع أوليائه فلا تظنوا أن ذلك إهمال منه أو تقصير فى شأنهم ، بل آخر ذلك ليوم ترجعون إليه ، وهو اليوم . نذى سيكون فيه البطش والانتقام منكم .

ثم ذكر سبحانه خمسة أوصاف من صفات الرحمة والجلال فقال :

(١) (وهو الغفور) لمن يرجع إليه بالتوبة ، فيتجاوز عن سيئاته .

(٢) (الودود) لمن حلصت نفسه بالحجة له .

(٣) (ذو العرش) أى ذو الملك والعظمة ، والسلطان والقدرة النافذة ، والأمر

الذى لا يرد .

(٤) (الحديد) أى العظيم الكرم والفضل .

(٥) (فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ) أى لا يريد شيئاً إلا فعله وفق إرادته ، فإذا أراد هلاك

الجاحدين المعاندين ونصر أهل الحق الصادقين لم يعجزه ذلك ، وأين هم ممن سبقهم

ممن كانوا أضل منهم وأشد قوة ؟

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ  
 مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢) .

### شرح المفردات

الجنود: تطلق تارة على العسكر، وتطلق أخرى على الأعوان؛ والمراد بهم هنا  
 الجماعات الذين تجندوا على أنبياء الله واجتمعوا على أذاهم، فرعون: هو طاغية مصر،  
 ثمود: قبيلة بائنة من العرب لا يعرف من أخبارها إلا ما قصه الله علينا، محيط: أى هم  
 فى قبضته وحوزته كمن أحيط به من ورائه فانسدت عليه المسالك، مجيد: أى  
 شريف، محفوظ: أى مصون من التحريف، والتغيير والتبديل .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص أصحاب الأخدود وبين حالهم، ووصف ما كان من  
 إيذائهم للمؤمنين - أردف ذلك بيان أن حال الكفار فى كل عصر، وشأنهم  
 مع كل نبيّ وشيعته جارٍ على هذا النهج، فهم دائماً يؤذون المؤمنين ويمادونهم، ولم  
 يرسل الله نبيا إلا لقي من قومه مثل ما لقي هؤلاء من أقوامهم .  
 والغرض من هذا كله تسلية النبيّ وحبه، وشد عزائمهم على التدرّع بالصبر،  
 وأن كفار قومه سيصيبهم مثل ما أصاب الجنود: فرعون، وثمود .

### الإيضاح

(هل أتاك حديث الجنود) أى هل بلغت ماصدر من أولئك الجنود من التماذى  
 فى الكفر والضلال، وما حل بهم من العذاب والنكال .

والمعنى — إنه قد أتاك خبرهم وعرفت ما فعلوا ، وما جازاهم ربهم به ، فذكَر قومك بأيام الله ، وأندركم أنه سيصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم من أهل الضلال .  
ثم بيّن من هم أولئك الجنود فقال :

( فرعون وثمود ) وحديث هذين مشهور متعارف بينهم ، فقد كانوا يعرفون من يهود المدينة وغيرهم ما كان من فرعون مع كليم الله موسى من العناد والإصرار على الكفر ، وما كان من عاقبة أمره وأن الله أغرقه في اليمّ هو وقومه ، وأذاقه الوبال في الآخرة والأولى .

كما كانوا يعرفون قصة ثمود مع صالح عليه السلام وأنهم عقروا الناقة التي جعلها الله لهم آية ، فدمر بلادهم وأهلكهم ولم يترك لهم من باقية ، وهم يمرّون على ديارهم في أسفارهم ويسمعون أخبارهم .

وخلاصة ذلك — إن الكفار في كل عصر متشابهون ، وأنّ حالهم مع أنبيائهم لا تتغير ولا تتبدل ، فهم في عنادهم واستكبارهم سواسية كأسنان المشط ، فقومت أيها الرسول ليسوا ببدع في الأمر ، فقد سبقتهم أمم قبلهم وحلّ بهم من النكال ما سيحلّ بقومك إن لم يؤمنوا ، « فَأَصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ » .

وقد أشار إلى أن هذه شئشئتهم في كل عصر ومصر فقال :

( بل الذين كفروا في تكذيب ) أي إن الكفار في كل عصر غارقون في شهوة التكذيب حتى لم يدع ذلك لعقلهم مجالاً للنظر ، ولا متسعاً للتدبر ، ولا يزالون في غمرة حتى يؤخذوا على غرّة .

ثم سلى رسوله من وجه آخر فقال :

( والله من ورائهم محيط ) أي إنه سبحانه مقدر عليهم وهم في قبضته لا يجدون مهرباً ، ولا يستطيعون الفرار ، إذا أرادوا .

فلا تجزع من تكذبيهم واستمرارهم على العناد ، فلن يفوتوني إذا أردت الانتقام منهم .

ثم رد على تماديهم في تكذيب القرآن وادعائهم أنه أساطير الأولين فقال :  
 (بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ) أى إن هذا الذى كذبوا به كتاب شريف  
 متفرد فى النظم والمعنى ، محفوظ من التحريف ، مصون من التغيير والتبديل .  
 واللوح المحفوظ شىء أخبرنا الله به ، وأنه أودعه كتابه ، ولكن لم يعرفنا  
 حقيقته ، فعلمنا أن نؤمن به ، وليس علينا أن نبحث فيما وراء ذلك ، لم يأت به خبر  
 من المعصوم صلوات الله عليه وسلامه .

### مفاسد هذه السورة

- (١) إظهار عظمة الله وجبيل صفاته .
- (٢) إنه يبئد الأمم الطاغية فى كل حين ، ولا سيما الذين يفتنون المؤمنين  
 والمؤمنات .

## سورة الطارق

هي مكية ، وآياتها سبع عشرة . نزلت بعد سورة البلد .  
مناسبتها لما قبلها :

- (١) أنه ابتداء هذه بالخلف بالسوء كانسورة قبلها .  
(٢) أنه ذكر في السابقة تكذيب الكفار للقرآن ، وهنا وصف القرآن بأنه  
القول الفصل ، وفيه رد على أولئك المكذبين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ؟ (٢) النَّجْمِ الثَّاقِبِ (٣)  
بِ لَمَّا عَلِيهَا حَافِظٌ (٤) .

## شرح المفردات

نساء : كل ماعلاك فأظلك ، الطارق : هو الذي يجيئك ليلا ، النجم الثاقب :  
هو الذي يتقب ضوءه الظلام كأن الظلام جند أسود والنجم يتقبه ، حافظ : أي  
رقيب يراقبها في أطوار وجودها ، وهو الله تعالى .

## المعنى الجملي

أقسم سبحانه في مستهل هذه السورة بالسوء ونجومها الثاقبة - إن النفوس لم تترك  
سدى ولم ترسل مهمة ، بل قد تكفل بها من يحفظها ويحصى أعمالها وهو الله سبحانه .  
وفي هذا وعيد للكافرين ونسبية للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فكأنه يقول  
لهم : لا تحزنوا لإيذاء قومكم لكم ، ولا يضق صدوركم لأعمالهم ، ولا تظن أنا هم لهم  
ونتركهم سدى ، بل سنجازيهم على أعمالهم بما يستحقون ، لأننا نحصى عليهم أعمالهم

ونحاسبهم عليها ، يوم يعرضون علينا « فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا » والعدّ إنما يكون للحساب والجزاء .

## الإيضاح

(والسما) أكثر في القرآن الحلف بالسما وبالشمس وبالقمر وبالليل ، لأن في أحوالها وأشكالها وسيرها ومطانعها ومغارها من عجائب وغرائب - دلائل لمن يتدبر ويفكر بأن لها خالقا مدبرا يقوم بشئونها ويحصى أمرها ، لا يشركه سواه في هذا الإبداع والصنع .

(والطارق) أى الكوكب البادى ليلا .

(وما أدراك ما الطارق؟) يقولون : وما أدراك ما كذا أى وأى شيء يعلمك حقيقته؟ ، وهو أسلوب من كلامهم يراد به التفتيح والتعظيم ، كأنه فى نغامة أمره لا يمكن الإحاطة به ولا إدراكه .

ثم فسر هذا الطارق بقوله :

(النجم الثاقب) أى لا أقسم بكل طارق من الكواكب ، بل أقسم بطارق معين هو النجم المضى الذى يتقب الظلام وتهتدى به فى ظلمات البر والبحر ، ونقف به على أوقات الأمطار وغيرها من أحوال يحتاج إليها الإنسان فى معاشه ، وهو الثريا عند جمهرة العلماء ، ويرى الحسن أن المراد كل كوكب لأن له ضوءا ثاقبا لا محالة .

ثم ذكر المقسم عليه فقال :

(إن كل نفس لما عليها حافظ) أى أحلف بالسما وبالنجم الثاقب إن للنفس رقيباً يحفظها ويدبر شئونها فى جميع أطوار وجودها حتى ينتهى أجلها ، وذلك الحافظ والرقيب هو ربها المدبر لشئونها ، المصروف لأموورها فى معاشها ومعادها .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ؟ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يُخْرَجُ مِنْ  
 بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)  
 فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) .

### شرح المفردات

دافق: أى منصبّ بدفع وسيلان وسرعة ، والصلب: الظهر ، والترائب: عظام صدر المرأة ، والمراد من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، وقال الحسن وروى عن قتادة: يخرج من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة ، وترائب كل منهما وهو الموافق لما أثبتته العلم حديثنا كما سيأتى ، ورجعه: أى إعادته ، تبلى: أى تختبر وتمتحن ؛ والمراد تظهر، والسرائر: مايسرّ في القلوب من العقائد والنيات وما خفي من الأعمال ، واحدها سريرة ، قال الأحوص:

سببق لها في مضمهر القلب والحشا سريرةٌ ودِّ يومَ تُبلى السرائرُ

### المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن الإنسان لم يترك سدى ، ولم يخلق عبثاً نبيه إلى الدليل الواضح على صحة معاده ، وأنه لا بد أن يرجع إلى ربه ليجازيه على ما عمل ، فذكره بنفسه ، ولفت نظره إلى كيفية خلقه ومنشئه ، وأنه خلق من الماء الدافق الذى لاتصوير فيه ، ولا تقدير للآلات التى يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء وغيرها ، ثم أنشأه خلقاً كاملاً مملواً بالحياة والعقل والإدراك ، قادراً على القيام بالخلافة فى الأرض .

فالذى خلقه على هذه الأوضاع قادر أن يميده إلى الحياة فى يوم تتكشف فيه المستورات ، وتبين الخفايا ، فيكون إبدأؤها زيناً فى وجوه بعض الناس ، وشيناً

في وجوه بعض آخرين ، وليس للمرء حينئذ قوة يدفع بها عن نفسه ما يحل به من العذاب ، ولا ناصر يعينه على الخلاص من الآلام .

## الإيضاح

( فليُنظَرِ الْإِنْسَانَ مِمَّ خُلِقَ ؟ ) أى فليُنظَرِ بعقبه ، ويمتدبر في مبدأ خلقه ليتضح له قدرة واهبه ، وأنه إذا قدر على إنشائه من مواد لم تشم رائحة الحياة قط فهو على إعادته أقدر فليعمل بما به يُسرُّ حين الإعادة .

ثم أجاب عن هذا السؤال بقوله :

( خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب ) أى خلق من ماء مدفوق يخرج من الظهر والترائب لسلك من الرجل والمرأة ، فهو إنما يكون مادة لخلق الإنسان إذا خرج من بين الرجل والمرأة ووقع في رحم المرأة .

والخلاصة — إن الولد يتكوّن من منى مدفوق من الرجل ، فيه جرثومة حية دقيقة لا ترى إلا بالآلة المعظمة (الميكروسكوب) ، ولا تزال تجرى حتى تصل إلى جرثومة نظيرتها من جراثيم المرأة وهي البويضة ، ومتى التقت الجرثومتان التحدتا وكوّنتا جرثومة الجنين .

وقد استفتيت في نظرية الحمل وكيفية تكوين الجنين النطاسى البارع عبد الحميد العرابى بك وكيل مستشفى الملك سابقا ، فأجابنى حفظه الله بما يأتى :

## كيفية حصول الحمل ونمو الجنين فى الرحم

قال الله تعالى : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّبِّ وَالتَّرَائِبِ » وقال أيضا : « وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى » .

اعلم أختى وقتك الله أن فى هاتين الآيتين وما شا كلهما من الآيات سرّاً من أسرار التنزيل ووجها من وجوه إعجازه ، إذ فيها معرفة حقائق علمية تأخر العلم بها والكشف عن معرفتها وإثباتها ثلاثة عشر قرناً .

بيان هذا : أن صلب الإنسان هو عموده الفقري (سلسلة ظهره) وترائبه هى عظام صدره ، ويكاد معناها يقتصر على حافة الجدار الصدرى السفلى .

وإذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا فى منشأ خُصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات التى حيرت الألباب ، وذهب فيها المفسرون مذاهب شتى على قدر ما أوتى كل منهم من علم ، وإن كان بعيداً عن الفهم الصحيح والرأى السديد .

ذاك أنه فى الأسبوع السادس والسابع من حياة الجنين فى الرحم ينشأ فيه ما يسمى (جسم وولف وقنانة) على كل جانب من جانبي العمود الفقري ، ومن جزء من هذا تنشأ الكلى وبعض الجهاز البولى ، ومن جزء آخر تنشأ الخُصية فى الرجل والمبيض فى المرأة .

فكل من الخُصية والمبيض فى بدء تكوينا يجاور الكلى ويقع بين الصلب والترائب . أى ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلوع .

ومما يفسر لنا صحة هذه النظرية أن الخُصية والمبيض يعتمدان فى نموها على الشريان الذى يمدّها بالدم ، وهو يتفرع من الشريان الأورطى فى مكان يقابل مستوى الكلى الذى يقع بين الصلب والترائب ، ويعتمدان على الأعصاب التى تمد كلا منهما وتصل بالضفيرة الأورطية ثم بالعصب الصدرى العاشر ، وهو يخرج من النخاع من بين الضلع العاشر والحادى عشر ، وكل هذه الأشياء تأخذ موضعها فى الجسم فيما بين الصلب والترائب .

فإذا كانت الخُصية والمبيض فى نشأتها وفى إمدادها بالدم الشريانى وفى ضبط شئونهما بالأعصاب قد اعتمدتا فى ذلك كله على مكان فى الجسم يقع بين الصلب

والترائب فقد استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم ، وجاء به رب العالمين ، ولم يكشفه العلم إلا حديثاً بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول ذلك الكتاب .

هذا ، وكل من الخصية والمبيض بعد كمال نموه يأخذ في الهبوط إلى مكانه المعروف قهبط الخصية حتى تأخذ مكانها في الصّفن ، ويهبط المبيض حتى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم .

وقد يحدث في بعض الأحيان ألا تتم عملية الهبوط هذه ، فتقف الخصية في طريقها ولا تنزل إلى الصّفن ، فتحتاج إلى عملية جراحية حتى تصل إلى وضعها في الموضع الطبيعي .

هذا ، والإنسان يبداً حياته جنيناً ، والجنين يتكوّن من تلقيح بويضة تخرج من المبيض مندقة نحو بوق الرحم بالحيوان المنوى الذي تفرزه خصية الرجل ، ويكون التلقيح في الغالب في داخل أحد البوقين أو فيهما معا ، ثم تسير البويضة في طريقها إلى الرحم حتى تستقر في قرار مكين إلى أجل مسمى .

هذا إذا صادفها أحد الحيوانات المنوية ، أما إذا أخطأها التلقيح فتكون ضمن الإفرازات الرحمية التي تطرد في خارج الجسم .

ومما يلاحظ أن إفراز البويضات عند المرأة هو عملية فسيولوجية شهرية لاعلاقة لها بالاجتماع الجنسي ، غير أن هذا الاجتماع ضروري لعملية التلقيح بالحيوان المنوى الذي يسبح في ماء الرجل .

ومما سبق تعلم أن الماء الدافق يكون من كل من الرجل والمرأة ؛ أما ماء الرجل فيتكون من الحيوانات المنوية وسوائل أخرى تفرزها الخصية والبروستاتة والحويصلات المنوية ، وهذه السوائل كلها جعلت مباءة ومستقراً للحيوان المنوى الذي بدونه لا يتم التلقيح .

وهكذا الحال في البويضات التي يفرزها مبيض المرأة ، فإنها بعد أن تكون في المبيض على شكل حويصلة صغيرة تسمى حويصلة ( جراف ) تنمو وتبلغ أشدها في نحو شهر حتى تقترب من المبيض ثم تنفجر كما تنفجر الفقاعة وتدفع منها البويضات مع السائل الذي خرج من الفقاعة إلى البوق حيث يقابلها حيوان منوى يقوم بعملية التلقيح — وكلا المائين ماء الرجل وماء المرأة دافق ، أى ينصب مندفعاً ، وهذا هو الحاصل فعلاً .

ومن هذا يتبين بوضوح أن الإنسان خلق ونشأ من الماء الدافق ( ماء الرجل وأمه ما به الحيوان المنوى ؛ وماء المرأة وأمه ما فيه البويضة ) الذى ينصب مندفعاً من عضوين هما الخصية والمبيض ، ومنشؤهما وغذاؤهما وأعصابهما كليهما بين الصلب والترائب . وقد ثبت في علم الأجنة أن البويضة ذات الخلية الواحدة تصير عنقمة ذات خلايا عدّة ، ثم تصير الملقحة مضغفة ذات خلايا أكثر عدداً ، ثم تصير المضغفة جنيناً صغيراً وزعت خلاياه إلى طبقات ثلاث يخرج من كل طبقة منها مجموعة من الأنسجة المتشابهة في أول الأمر ، فإذا تمّ نموها كونت جسم الإنسان .

وإذا هدى الفكر إلى كل هذا في مبدأ خلق الإنسان ، سهل أن نصدق بما جاء به الشرع وهو البعث في اليوم الآخر ، لأن خلق الإنسان من أجزاء منتشرة متفرقة في الكون ؛ فالماء متولد من الأطعمة التي يتناولها الإنسان ، فجمعها الله ، ثم جمع الأبوين ، ثم جمع ماءهما في مكان واحد ، ثم خلق منه الولد ، وليس في إعادته مثل ذلك ، فهي أهون ، ومن ثم قال :

( إله على رجهه تقادر ) أى إن الذى قدر على خلق الإنسان ابتداء من هذه المادة — قادر أن يردّه حياً بعد أن يموت .

ونحو الآية قوله : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » وأصرح منهما قوله : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

ثم بين وقت الرجوع فقال :

(يوم تبلى السرائر) أى هو قادر على أن يعيد الإنسان إلى الحياة فى اليوم الذى تنكشف فيه السرائر ، وتتضح الضمائر ، ويتميز الطيب من الخبيث ، فلا يبقى فى سريرة سرّ ، بل تنقلب كل خفيّة إلى الجهر ، ولا يكون جدال ولا حجاج ، ولا يبقى لذوى الأعمال إلا انتظار الجزاء على ما قدموا ، فإما حلول فى نعم ، وإما مصير إلى عذاب أليم .

(فما له من قوة ولا ناصر) أى فلا تكون لأحد قوة على الإفلات مما قدر له جزاء عمله إن كان مسيئاً ، ولا ناصر ينصره فيحميه مما حتم أن يقع عليه .  
والخلاصة — إن القوة التى بها يدافع الإنسان عن نفسه ، إما من ذاته وقد نفاها بقوله : « فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ » وإما من غيره وقد نفاها بقوله : « وَلَا نَاصِرٍ » .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ  
فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ  
كَيْدًا (١٦) فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُؤِيدًا (١٧) .

### شرح المفردات

الرجع : إعادة الشئ إلى حال أو مكان كان فيه أولاً ، والمراد به المطر ، وسمى بذلك لكونه يعاد إلى الأرض من السماء ، والصدع : الشق الناشئ من تفرق بعض أجزاء الأرض وانفصال بعضها من بعض بالنبات ، فصل : أى يفصل بين الحق والباطل ، ويقطع الجدل والراء ، يكيدون كيدا : أى يعملون للمكايد فى إبطال أمره ، وإطفاء نوره ، وأكيد كيداً : أى أقبلهم بكيدى فى إعلاء أمره ، وانتشار نوره ، رويدا : أى قرباً .

## المعنى الجملى

بعد أن بين قدرته تعالى على إعادة الإنسان بعد الموت ، وفتت النظر إلى التدبر في برهان هذه القدرة — شرع يثبت صحة رسالة رسوله الكريم إلى الناس ، وصحة ما يأتينهم به من عند الله ، وأهم ذلك القرآن الكريم الذى كانوا يقولون عنه : إنه أساطير الأولين ، فأقسم بالسماء التى تفيض بمائها ، والأرض التى تقيم أمور المعاش للناس والحيوان بنبأتها ، إنه أقول حق لا ريب فيه .

ثم بين أنه عليم بأن الذين يدافعون عن تلك الأباطيل التى هم عليها — قوم ما كرون لا يريدون بك إلا السوء ، وسيأتينهم العذاب من حيث لا يشعرون ، فلا يحزنك ما ترى منهم ، ولا تستبطن حلول النكال بهم ، بل أمهلهم قليلا وسترى ما سيحل بهم .

ولا يخفى ما فى هذا من وعيد شديد بأن ما سيصيبهم قريب ، سواء أ كان فى الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت ، ووعد للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولكل داع إلى الحق بأنهم سيبلغون من النجاح ما يستحقه عملهم ، وأن المناوئين لهم هم الخاسرون .

## الإيضاح

(والسما ذات الرجع) أى قسما بالسماء ذات المطر ، وهو أنفع شيء ينتظره الحاطبون من السماء ، إذ يبدل جذبهم خصبها ، ويعيد موات أرضهم حيا ، ويصير به هب صحرائهم هواء عليلا .

(والأرض ذات الصدع) أى والأرض التى تتصدع بالنبات والشجر والثمار مما به حياتهم وحياة أنعامهم ، وهم فى بلاد قفراء جدياء .

ونظير هذا قوله : « ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا » الآية .

ثم ذكر المقسم عليه فقال :

(إنه لقول فصل . وما هو بالهزل) أى قسما بالسماء والأرض إن هذا القول الذى

جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم لقول حق لا مجال للريب فيه ، وهو جِدٌّ لا هزل فيه ؛ فمن حقه أن يهتدى به الفؤاد ، وتخضع له رقاب العتاة .

أخرج الترمذى والدارمى عن على كرم الله وجهه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنها ستكون فتنة ، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ فيه الأهواء ، ولا تشيع منه العلماء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجايبه ، هو الذى لم تنته الجن لما سمعته أن قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ » من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجِر ، ومن هدى به هدى إلى صراط مستقيم .

ثم بين ما يدبرونه للمؤمنين وما تحو به صدورهم من غلٍ لهم فقال :

(إنهم يكيدون كيدا) أى إنهم يَمَكُرُونَ بالناس بدعوتهم إلى مخالفة القرآن بالقاء الشبهات كقولهم : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » . قولهم : « مَنْ يُحْسِبِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » أو بالظن فيه بكون الرسول ساحرا أو مجنونا أو شاعرا ، أو تبويتهم قتله ، كما جاء فى قوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ » .

بعدئذ ذكر ما قابلهم ربه به وما جازاهم عليه كفاء عملهم فقال :

(وأكيد كيدا) أى وأقابل كيدهم بنصر الرسول وإعلاء دينه ، وجعل كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وقد سمي مجازاتهم كيدا منه ، للتجانس فى اللفظ كما قال : « نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » . وقال عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ثم أمر رسوله أن يتأني عليهم ، ليرى أخذه تعالى لهم فقال :  
 (فهل الكافرين) أى سر فى دعوتك ولا تستعجل عذابهم ، فإننا سنمهلهم  
 ليزدادوا إثماً ، حتى إذا أخذناهم لم يبق لهم من راحم .  
 ثم أكد طلب الإمهال وأقنته بوقت قريب فقال :  
 (أمهلهم رويداً) أى إننا سنمهلهم قليلاً ، وسترى ما يحل بهم من العذاب  
 والنكال .

وفى هذا بعث للظلمة إلى قلوب المؤمنين الذين كانوا يخشون صولة الكفار  
 ويحذرون اعتداءاتهم التى لاحد لها ، وتخويف لهم من عاقبة إصرارهم على ما هم فيه  
 من الكفر والمشاقة لله ورسوله وللمؤمنين .

ونحو الآية قوله - « مُتَمِّعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضَهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ » .  
 وصل ربنا على محمد وآله ، وقنا عذاب الجحيم .

### مقاصد السورة

- (١) إن كل نفس عليها حافظ .
- (٢) إقامة الأدلة على أن الله قادر على بعث الخلق كرة أخرى .
- (٣) إن القرآن منزل من عند الله وأن محمداً رسول الله .
- (٤) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالانتظار حتى يحل العقاب بالكافرين .

## سورة الأعلى

هي مكية ، وآياتها تسع عشرة ، نزلت بعد سورة التكوير .  
ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر في تلك خلق الإنسان ، وأشار إلى خلق  
النبات بقوله : « وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » . وذكر هنا خلق الإنسان في قوله :  
« خَلَقَ فَسَوَّى » . وخلق النبات في قوله : « أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى »  
وقصة النبات هنا أوضح وببسط أكثر ، وخلق الإنسان هناك أكثر تفصيلاً .  
أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن النعمان بن بشير « أن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة (سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى -  
وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) وإن وافق يوم الجمعة قرأها جميعاً » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ  
فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)

## شرح المفردات

التسبيح : التنزيه ، خلق : أى خلق الكائنات ، فسوى : أى فسواها ووضع  
خلقها على نظام كامل ، لا تفاوت فيه ولا اضطراب ، قدر : أى قدر لكل حى  
ما يصلحه مدة بقائه ، هدى : أى هداه وعرفه وجه الانتفاع بما خلقه ، والمرعى :  
كل ما تنخرجه الأرض من النبات والثمار والزرع المختلفة ، والغثاء : ما يقذف به  
السيول إلى جانب الوادى من الحشيش والنبات ، والأحوى : الذى يضرب لونه إلى  
السواد . قال ذو الرمة :

لَمِيَاءٌ فِي شَفْتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسَ وَفِي اللَّثَاتِ وَفِي أُنْيَابِهَا شَنْبٌ

## المعنى الجملى

أمر سبحانه رسوله أن ينزه اسمه عن كل ما لا يليق به ، واسم الله ما يعرف به ،  
والله إنما يعرف بصفاته من نحو كونه عالماً قادراً حكماً ، وهذا الاسم هو الذى  
يوصف بأنه ذو الجلال والإكرام ، وهو المراد بالوجه فى قوله : « وَيَبْسُقِ وَجْهُ  
رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وهو المذكور فى قوله : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ  
كُلَّهَا » أى علمه رسوم الأشياء وما تعرف به .

فإنه يأمرنا بتسبيح هذا الاسم أى تنزيهه عن أن نصفه بما لا يليق به من  
شبه الخبوقات ، أو ظهوره فى واحد منها بعينه ، أو اتخاذه شريكاً أو ولداً له ،  
فلا نتجه عمولنا إليه إلا بأنه خالق الكائنات وهو الذى أوجدها وسواها ، وأنه  
هو الذى أخرج المرعى ثم جعله جافاً حتى لفظه السيل بجانب الوادى .

## الإيضاح

( سبىح اسم ربك الأعلى ) أى نزه اسم ربك عن كل ما لا يليق بجلاله فى ذاته  
وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه فلا تذكره إلا على وجه التعظيم له ، ولا تطلق  
اسمه على غيره زاعماً أنه يشاركه فى صفاته .

ثم وصف ذلك الاسم الأعلى فقال :

(١) ( الذى خلق فسوى ) أى الذى خلق الكائنات جميعاً فسوى خلقها  
وجعلها منسقة محكمة ولم يأت بها متفاوتة غير ملتزمة ، دلالة على أنها صادرة عن عالم  
حكيم مدبّر أحسن تدبيرها ، فأحكم أسرها .

(٢) ( والذى قدر فهدى ) أى الذى قدر كل واحد منها على ما يستحقه ،  
ويكون به استقرار شأنه ، فقدر السموات وما فيها من الكواكب ، وقدر الأرض  
وما فيها من المعادن ، وما يظهر على وجهها من النبات ، وما يعيش عليها من الحيوان .

ثم هدى كل دابة إلى استعمال ما يصلحها ، وما هو أمسّ بحاجتها ، بما خلق فيها من الميول والإلهامات ، لتحصيل ما لها من مقاصد وغايات .

(٣) (والذى أخرج المرعى) أى والذى أنبت النبات جميعه ، لترعاه الدواب والنعم ، فإما من نبت إلا وهو يصلح أن يكون مرعى لحيوان من الأجناس الحية . (فجعله غناءً أحوى) أى فجعل هذا المرعى بعد أن كان أخضر هشياً بالياً كالغناء يميل لونه إلى السواد ، فهو القادر على إنبات العشب ، وعلى تبديل حاله ، لا الأصنام التى عبدها الكفرة الفجرة .

وقصارى ماسلف — إنا مأمورون أن نعرف الله جل شأنه بأنه القادر العالم الحكيم الذى شهدت بصفاته آثاره فى خلقه ، وألا تُدخِل فى هذه الصفات ما لا يليق به ، كما أدخل الملحدون الذين اتخذوا من دونه شركاء ، أو وصفوه بما به يشبه خلقه .

وإنما توجه إلينا الأمر بتسبيح الامم دون تسبيح الذات ، ليرشدنا إلى أن مبلغ جهدنا أن نعرف الصفات بما يدل عليها ، أما الذات فهى أعلى وأرفع من أن تتوجه إليها عقولنا إلا بما نلاحظ من هذه الصفات بما يدل عليها .

سُنُقِرْ تُكَ فَلَآ تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧)  
وَأَنْتُمْ لِرَبِّكُمْ لِلْيُسْرَى (٨) .

### شرح المفردات

سنقرئك : أى نجعلك قارئاً للقرآن ، فلا تنسى : أى فلا تنساه بل تحفظه ،  
واليسرى : أعمال الخير التى تؤدى إلى اليسر .

## المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله بتسبيح اسمه ، وعلم أمته المأمورة بأمر الله له ، كيف يمكنها أن تعرف الاسم الذى تسبحه على نحو ما ذكرنا ، ولا يكفل ذلك إلا بقراءة ما أنزل عليه من القرآن ، فكان هذا مدعاة إلى شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على حفظه ، ومن ثم وعده بأنه سيقرئه من كتابه ما فيه تنزيهه ، وتبيين ما أوجب أن يعرف من صفاته ، وأحكام شرائعه ، كما وعده بأن ما يقربه إياه لا ينساه .

## الإيضاح

( سنقرئك فلا تنسى ) أى سننزل عليك كتابا تقرؤه ، ولا تنسى منه شيئا

بعد نزوله عليك .

وقد كان عليه السلام إذا نزل عليه القرآن أكثر من تحريك لسانه مخافة أن

ينساه ، فوعد بأنه لا ينساه .

ونحو الآية قوله : « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ »

وقوله : « لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ » .

وخلاصة ذلك — إنا سنشرح صدرك ، ونقوى ذا كرتك ، حتى تحفظه

بساعة مرة واحدة ، ثم لا تنساه بعدها أبدا .

ولما كان هذا الوعد على سبيل التأييد يوم أن قدرته تعالى لاتسع تغييره جاء

بالاستثناء فقال :

( إلا ما شاء الله ) أى فإن أراد أن ينسيك شيئا لم يعجزه ذلك .

قال القرطبي : إنه ما شاء أن ينسى محمدا صلى الله عليه وسلم شيئا ، إلا أن القصد

من هذا الاستثناء بيان أنه لو أراد أن يصيره ناسيا لقدرة على ذلك كما جاء فى قوله :

« وَلَئِنْ شِئْنَا لَمَذْهَبِنَّ الَّذِي أُوتِيتَا إِلَيْكَ » .

وإننا لنقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك .  
وقصارى هذا — إن فائدة هذا الاستثناء بيان أنه تعالى قادر على أن يفسيه ،  
وأن عدم النسيان فضل من الله وإحسان لامن قوته .  
ثم أكد هذا الوعد مع الاستثناء فقال :  
( إنه يعلم الجهر وما يخفى ) أى إن الذى وعدك بأنه سيقرئك ، وأنه سيجعلك  
حافظا لما تقرأ فلا تنساه — عالم بالجهر والسر ، فلا يفوته شيء مما فى نفسك ،  
وهو مالك قلبك وعقلك ، وخافى سررك وجهرك ، فى مقدوره أن يحفظ عليك  
ما وهبك وإن كان من خفيات روحك ، ولو شاء لسبه ولن تستطيع دفعه ، لأنه  
ليس فى قدرتك أن تخفى عنه شيئا .

ولما كان فى الوعد بالإفراء الوعد بتشريع الأحكام ، وفيها ما يصعب على  
المخاطبين احتماله — أردف ذلك الوعد بما يزيد حلاوة فى النفوس فقال :  
( ونيسرك للنسرى ) أى ونوفقتك للشريعة السمحة التى يسهل على النفوس  
قبولها ، ولا يصعب على العقول فهمها ، ورحم الله البوصيرى حيث يقول :  
لم يمتحننا بما تعيا العقولُ به حرصا علينا فلم ترتب ولم نهم  
وقد جعلت الآية الإنسان هو الميسر للفعل ، وليس الفعل هو الميسر للإنسان ،  
من قبل أن الفعل لا يحصل إلا إذا وجدت العزيمة الصادقة ، والإرادة النافذة  
لإيجاده ، مع التوفيق لسلوك أقوم الطرق التى توصل إليه ، كما جاء فى الحديث :  
« اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له » .

فَذَكَرْهُ إِنْ نَفَعْتَ الذَّكَرَى (٩) سَيَذَكَّرُكَ مِنْ يَخْشَى (١٠) وَتَجَبَّهَا  
الْأَشَقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا  
وَلَا يَحْيَى (١٣) .

## شرح المفردات

التذكر: أن يتنبه الإنسان إلى شيء كان قد علمه من قبل ثم غفل عنه ، ومن يخشى الله صنفان : مدعن معترف بالله وبيعه للعباد للثواب والعقاب ، ومتردد في ذلك ، الأشقى: هو المماند المصّر على الجحد والإنكار، المتمكن من نفسه الكفر، يصلى النار أى يذوق حرها ، والنار الكبرى هى أسفل دركات الجحيم ، لا يموت أى فيستريح ، ولا يحيا أى حياة طيبة فيسعد كما أشار إلى ذلك شاعرهم فقال :

ألا ما لنفسٍ لانموت فينفضى عنها ولا تحيا حياة لها طعم

## المعنى الجملى

بعد أن وعد سبحانه رسوله بذلك الفضل العظيم وهو حفظ القرآن وعدم نسيانه — أمره بتذكير عباده بما ينفعهم في دينهم ودنياهم — وتنبههم من غفلاتهم، وتوجيههم إلى ما فيه الخير لهم ، وبين أن الذكرى لا تنجح إلا في القلوب الخاشعة التي تخشى الله وتخاف عقابه : أما القلوب الجاحدة المماندة فلا تجدى فيها الذكرى شيئاً ، فهون على نفسك ، ولا يحزُ نذك جحدهم وعنادهم كما أشار إلى ذلك في آية أخرى فقال : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

ثم ذكر أن أولئك الجحدة العصاة يكونون في قعر جهنم لأم يموتون ولا يسعدون بحياة طيبة .

## الإيضاح

( فذكر إن نفعت الذكرى ) أى فذكر الناس بما أوحينا به إليك ، واهددم إلى ما فيه من بيان الأحكام الدينية ، فإن أصر المماندون على عنادهم ولم يزدحم

وعظك إلتاماديا في الجحود والإنكار « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ »  
 حرصا على إيمانهم ، وحرزا على بقائهم على كفرهم ، وادعُ من تعلم أنه يجيبك  
 ولا يجيبك ولا يؤذيك ، وإلى ذلك أشار بقوله :

( سيد كر من يخشى ) أى إنما يذتفع بتذكيرك من يخشى الله ويخاف عقابه ،  
 لأنه هو الذى يتأمل فى كل ما تذكره له ، فيتبين له وجه الصواب ، ويظهر له سبيل  
 الحق الذى يجب المعول عليه .

وفى التعبير بقوله ( سيد كر ) إيماء إلى أن ماجاء به الرسول بنغ حذًا من  
 الوضوح لا يحتاج معه إلا إلى التذكير فحسبُ ، وإمما الذى يحول بينهم وبين  
 اتباعه واقتفاء آثاره - تقليد الآباء والأجداد فكأنهم عرفوه واستيقنوا صحته ، ثم  
 زالت هذه المعرفة بانتهاجهم خطة آبائهم من قبل :

ثم أشار إلى عدم جدواها بانظر للمعاندين الجاحدين فقال :

( ويتجنبها الأثقى . الذى بصلى النار الكبرى ) أى ويتعد عن هذه التذكرة  
 المعاند المصرّ على الجحود عنادا واستكبارا ، وهو الذى يذوق حر النار الكبرى  
 فى دركات جهنم كما قال : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » إذ  
 لا يليق بحكمة الحكيم المتعالى أن يسوى بين من اجترأ عليه وتهاون بأمره وارتكب  
 أشنع الذنوب ، ومن كان نقيّ الصحة ميمون النقيبة ، مطيعا لأمره ، مؤديا  
 فرائضه ، منتهيا عن الفحشاء والمنكر .

وقصارى ماسلف — إن الناس بالنظر إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم  
 أقسام ثلاثة :

(١) عارف صحتها ، موقن بصدقها ، لا يدور بخلافه تردّد ولا شكّ ، وهذا  
 هو المؤمن الكامل الذى يخشى ربه .

(٢) متردد متوقف إلى أن يقوم لديه البرهان ، فإذا هو سنع له بادر إلى  
 التصديق بها ، وهذا أدنى من سابقه .

(٣) شقى معاند لا يلين قلبه للذكري ، ولا تنال الدعوة من نفسه قبولا ، وهو شر الأقسام الثلاثة ، وأبعدها من الخير .

ثم بين عاقبة هذا الأشتى ومآل أمره فقال :

(ثم لا يموت فيها ولا يحيى) أى ومن شقى هذا الشقاء ، ولقى هذا العذاب بتلك النار - يخذ فيها ، ولا يقف عذابه عند غاية ، ولا يجد لآلامه نهاية ، فلا هو يموت فيستريح ، ولا يحيى الحياة الطيبة فيسعد بها .

ونحو الآية قوله : « لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » .  
والعرب تقول لمن هو مبتلى بمرض يقعده : لاهو حتى فيرجى ، ولا ميت فينمى .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ  
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَنْتَ بَلَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ  
الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) .

### شرح المفردات

أفلح : أى فاز ونجا من العقاب ، وتزكى : أى تطهر من دنس الرذائل ؛ ورأسها جحد الحق وقسوة القلب ، وذكر اسم ربه : أى ذكر فى قلبه صفات ربه من الكبرياء والجلال ، فصلى : أى فشح وخضعت نفسه لأوامر بارئه ، تؤثرون : أى تفضلون .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر وعيد الذين أعرضوا عن النظر فى الدلائل التى تدل على وجود الله ووحدانيته وإرسال الرسل وعلى البعث والحساب - أتبعه بالوعد لمن زكى نفسه

وطهرها من أدران الشرك والتقليد للأباء والأجداد - بالفوز بالفلاح والظفر بالسعادة في دنياه وآخرته .

ثم ذكر أن من طبيعة النفوس حب العاجلة ، وتفضيلها على الآجلة ، ولو فكروا قليلا لاستبان لهم أن الخير كل الخير في تفضيل الثانية على الأولى ؛

ثم أرشد إلى أن أسس الدعوة الدينية في كل الأديان واحدة ، فما في القرآن هو ما في صحف إبراهيم وموسى .

### الإيضاح

( قد أفلح من تزكى ) أى قد أدرك الفلاح ، وظفر بالبُعْية من طهر نفسه ونقاها من أوضار الكفر ، وأزال عنها أدران الشرك والآثام .

ومن هذا تعلم أن تزكية النفس إنما تكون بالإيمان بالله ونفى الشركاء ، والتصديق بكل ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم مع صالح العمل .

( وذكر اسم ربه فصلى ) أى وأحضر في قلبه صفات ربه من الجلال والكمال نفضع لجبروته وقهره ، فإن المرء متى تذكر ربه العظيم وجل قلبه ، وخاف من سطوته وامتلأت نفسه خشية منه ، ورهبة لجلاله كما قال في آية أخرى : « إِنَّمَا لِلُّوْثِ مُنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ » .

ثم رد سبحانه على قوم ممن قست قلوبهم ، ولم يأخذوا من العبادات إلا بصورها وظنوا أن ذلك هو غاية ما يطالب الله عباده بقوله :

( بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ) أى أتم كاذبون فيما زعمتم لأنفسكم من حسن العمل ، لأنكم لو كنتم صادقين فيما ذهبتم إليه لكنتم تفضلون الآخرة على الدنيا ، كما يرشد إلى ذلك العقل ، ويهذى إليه الشرع ؛ فتتاع الآخرة دائماً ونعيمها لا يزول ، ولا تنغيص فيه ولا منة ، ومتاع الدنيا متاع زائل تشوبه الأكدار ، وتحوط به الآلام ؛ فمن استعجل هذا النعيم ، واستحب زينة الدنيا

لا يكون مصدقاً بالآخرة ونعيمها ، أو يكون إيمانه إيمانا لا يجاوز طرف لسانه ، ولا يصل إلى قلبه ، فلا يجازى عليه الجزاء الذى وُعد به المؤمنون .

ثم بين أن الأصول العامة التى جاءت فى هذه الشريعة هى بعينها التى جاءت فى جميع الشرائع السماوية فقال :

(إِنَّ هَذَا لِنِى الصَّحْفِ الْأُولَى . صَاحِفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) أى إن ما أوحى به إلى نبيه من أمر ونهى ووعد ووعيد هو بعينه ما جاء فى صحف إبراهيم وموسى ، فدين الله واحد ، وإنما تختلف صورته ، وتعدد مظاهره ، فإذا كان المخاطبون قد آمنوا بإبراهيم أو بموسى فعليهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يأت إلا بما جاء فى صحفهم ، وإنما هو مذكور أو محي لما مات من شرائعهم .

ومحو الآية قوله : « وَإِنَّهُ لَكُنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ . وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوْلِيَيْنِ » وقوله جل شأنه : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى » .

وقصارى ذلك — أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما جاء إلا مذكرا بما نسيته الأجيال من شرائع المرسلين ، وداعيا إلى وجهها الصحيح الذى أفسده كثر الغداة ومر العشى ، كما طمس معالمه اتباع الأهواء ، واقتفاء سنن الآباء والأجداد .

اللهم وفقنا لسلوك دينك الحق ، واهدنا إلى صراطك المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

## سورة الغاشية

هي مكية ، وآياتها ست وعشرون ، نزلت بعد سورة الناريات .  
ومناسبتها لما قبلها - أنه أشير في السورة السابقة إلى المؤمن والكافر والجنة والنار  
إجمالاً ، وبسط الكلام فيها هنا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةً (٢) عَامِلَةٌ  
نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ  
إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) .

## شرح المفردات

الغاشية : القيامة ، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بشدائدها وأهوالها ، خاشعة :  
أى ذليلة : عاملة : أى وقع منها عمل فى الدنيا ، ناصبة : أى تعية من قولهم نصب  
فلان بالكسر : أى تمب ، تصلى من قولهم صلى النار (بالكسر) أى قاسى حرها ،  
حامية : أى متناهية فى الحر من قولهم حميت النار إذا اشتد حرها ، والعين : ينبوع  
الماء ، والآنية الشديدة الحر ، والضريع : شجر ذو شوك لا تظ بالأرض ، فإذا كان  
رطباً سمى بالشبرق ، قال أبو ذؤيب الهذلى :

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وصار ضريعاً بان عنه النحائص

## الإيضاح

(هل أتاك حديث الغاشية) أى هل بلغك نبأ يوم القيامة وعلمت قصصه ،  
وإننا سنعلمك شأنه الخطير .

وهذا أسلوب من الكلام لا يراد منه حقيقة الاستفهام ، بل يراد منه تعجيب السامع مما سيذكر بعد ، وتشويقه إلى استماعه ، وتوجيه فكره إلى أنه من الأحاديث التي من حقها أن تنقلها الرواة ، ويحفظها الوعة .

ثم فصل شأن أهل الموقف في ذلك اليوم ، وذكر أن أهله فريقان : فريق الكفرة الفجرة . وفريق المؤمنين البررة ، وقد أشار إلى الأولين بقوله :

(١) ( وجوه يومئذ خاشعة ) أى وجوه يومئذ يظهر عليها الخزي والهوان مما ترى وتشاهد من الهول .

ومحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » وقوله : « وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ » .

والخشوع والذل وإن كان في الحقيقة لأرباب الوجوه ، نسب إلى الوجوه لما كان أثره يظهر عليها .

ثم وصف الوجوه بصفات أخرى فقال :

( عاملة ناصبة ) أى إن هؤلاء الكفار كانوا في حياتهم الدنيا يعملون ويجتهدون في أعمالهم ، لكن لم يتقبلها ربهم ، لأنهم لم يقدموا عليها الإيمان بالله ورسوله ، وهو الدعامة الأولى في قبول العمل عنده ، ولأنهم لم يقصدوا بها وجهه تعالى ، ولأنهم كانوا يجتهدون في مشاققة الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا .

والخلاصة — إن هؤلاء الكفار وقع منهم في الدنيا عمل ، وأصابهم فيه تعب ونصب ، لكنهم لم يستفيدوا منه شيئا ، فأثار الخيبة وحبوط العمل بادية على وجوههم .

ثم ذكر جزاءها في هذا اليوم فقال :

( تصلى نارا حامية ) أى هذه الوجوه تقاسى حر النار وتعذب بها ، لأن أعمالها

في الدنيا كانت خاسرة ، غلبها الشر ، وجانبها الخير ، وهذه النار الحامية لانعرف  
كنها ، ولكن علينا أن نؤمن بها ، وبأن حلفاء الباطل يصلونها .

( تسقى من عين آنية ) أى إن أهل النار إذا عطشوا في تلك الدار وطلبوا  
ما يطفى غلَّتْهم ، جىء لهم بماء من ينبوع ينبع من الحرارة غايتها ، فهو لا يطفى لها ،  
ولا ينقع غلَّة .

وبعد أن ذكر شرابهم أردفه بوصف طعامهم فقال :

( ليس لهم طعام إلا من ضريع ) أى إنهم إذا أحسوا بالجوع وطلبوا الطعام  
أتى لهم بالضريع وهو ذلك المرعى السوء الذى لا تمقد عليه الساعة شحا ولا لحا ،  
وإن لم تفارقه إلى غيره ساءت حالها ، والمراد بهذا كله أنه يؤتى لهم بردىء الطعام .  
ثم وصف هذا الضريع بأنه لا يجدى ولا يفيد فقال :

( لا يسمن ولا يفتى من جوع ) أى إن هذا الطعام لا يدفع جوعا ، ولا يفيد  
سمنا ، فليس له فائدة الطعام التى لأجلها يؤكل في الدنيا ، وقد سمى الله ذلك الطعام  
بالضريع تشبيها له به ، وإلا فذلك العالم ليس فيه نمو أبدان ولا تحلل مواد على النحو  
الذى يكون في الدنيا ، بل هو عالم خلود وبقاء ، واللذائذ فيه لذائذ سعادة ، والآلام  
آلام شقاء ، فكل ما في ذلك العالم إما يقع بينه وبين ما في عالمنا نوع مشابهة ،  
لا اتفاق ولا مجانسة .

وقد جاء في سورة الحاقة في طعام الكافرين : « وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ »  
وفي سورة الواقعة : « مُّمَّ إِنَّكُمْ أَهْبَأُ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَا كَلْبُونَ مِنْ شَجَرٍ  
مِنْ زَقُّومٍ » وفي سورة الدخان : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ . طَعَامٌ الْأَثِيمِ » .

فهذا كله يدل على أن طعام النار شئ يوافق النشأة الآخرة ، عبر عنه بعبارات  
مختلفة ، ليصور في أذهاننا بشاعته وخبثه ، لتنفرد منه نفوسنا ، وتطلب كل وسيلة  
للفرار منه ، فتبتعد عن العقائد الفاسدة ، والأعمال الخاسرة .

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ مَّالِيَةٍ (١٠)  
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَآغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣)  
وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)

### شرح المفردات

ناعمة : أى ذات بهجة وحسن ، عالية : أى فى المكان ؛ لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض ، واللاغية : اللغو والكذب والبهتان ، عين جارية : أى ينبوع ماء جار ، والسرر : واحدها سرير وهو ما يجلس أو ينام عليه ، وأفضله ما كان مرفوعاً عن الأرض ، والأكواب : واحدها كوب وهو ما لا عروة له من الكيزان ، موضوعة : أى معدة ومهيأة للشرب ، والنمارق : واحدها نمرقة ( بضم النون وكسر ها ) وهى الوسادة قال :

كهولٌ وشُبانٌ حسان وجوههم على سُرُرٍ مصفوفةٍ ونمارق  
والزرابي : واحدها زربي ( بكسر الزاى ) وزريرة وهو البساط ؛ وأصل الزرابى أنواع النبات إذا احمرت واصفرت وفيها خضرة ، ويقال أزرب النبات إذا صار كذلك ، سموها بها البسط لشبهها به ، ومبثوثة : أى مفرقة فى المجالس بحيث يرى فى كل مجلس شىء منها كما يرى فى بيوت ذوى الثراء .

### الإيضاح

بعد أن وفى الكفرة الفجرة حقهم من الوصف - وصف أهل الإخلاص والصدق ، لتقر أعينهم بما سيلقون من فضله فقال :

( وجوه يومئذ ناعمة ) أى ووجوه يومئذ ذات نضرة وبهجة كما قال : « تعرّفُ

فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ» ولا تكون كذلك إلا إذا كانت منعمة فرحة بما لاقت  
جزاء نعيمها في الدنيا ورضى الله عنها ومن ثم قال :

( لسعيها راضية ) أى إنهم جميعا يسعون في العمل لله حين رأوا ثمرته وعاقبته  
الحسنى ، كالرجل يعمل العمل فيجزى عليه الجليل ، ويظهر له منه عاقبة حميدة ،  
فيقول ما أحسن ما عملت ، ولقد وفقت إلى الصواب فيما فعلت .

وبعد أن وصف أهل الثواب وصف ديارهم بسبعة أوصاف فقال :

( ١ ) ( فى جنسة عالية ) أى عالية المكان مرتفعة على غيرها من الأمكنة ،  
لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض ، كما أن النار درجات بعضها أسفل  
من بعض .

وقد يكون المراد منه العلو في الدرجة ، لأن نعيم الجنة بعضه أرفع من بعض ؛  
فالنعيم الذى يتمتع به السابقون من الأنبياء والشهداء والصالحين أعلى منزلة وأرفع  
قدرا مما يتمتع به الذين اتبعوهم بإحسان .

( ب ) ( لا تسمع فيها لاغية ) أى إنها منزهة عن اللغو ، إذ أنها منزل جيران  
الله وأحبابه ، وقد نالوها بالجد والعمل لا بالتمو ، ومنازل أهل الشرف في الدنيا تكون  
مبرأة من اللغو والكذب والبهتان ، فكيف بأرفع المجالس في جوار رب العالمين ،  
ومالك قلوب الخلق أجمعين .

( ح ) ( فيها عين جارية ) أى فى تلك الجنة ينبوع ماء جار ، والمياه الجارية  
من الينابيع تكون صافية ، وفى منظرها مسرة للنفوس ، وقرّة للعيون ، وقد اقتخر  
بمثلها فرعون فقال : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي » .

( د ) ( فيها سرر مرفوعة ) أى مرفوعة عالية إذا جلس عليها المؤمن رأى جميع

ما أعطاه الله من النعيم ورأى من فى الجنة

وفى ذلك من التشريف والتكريم ما لا يخفاء فيه .

( هـ ) ( وأكواب موضوعة ) على حافات العيون كما أرادوا الشرب وجدوها .  
 ( و ) ( ونمارق مصفوفة ) أى ووسائد مصفوف بعضها إلى جوانب بعض ،  
 فإن شاءوا جلسوا عليها ، وإن أرادوا استندوا إليها ، وإن أحبوا أن يجلسوا على  
 بعضها ويستندوا إلى بعض فعلوا .

( ز ) ( وزرابى مبثوثة ) أى وبسط مبسوطة فى المجالس ، بحيث يرى فى كل  
 مجلس من مجالسهم منها شىء ، كما يرى فى بيوت المترفين وذوى الثراء فى الدنيا .

وقد ذكر سبحانه كل ماسلف تصويرا لترف أهل الجنة تصويرا يقربه من  
 عقولهم ، ويستطيعون به إدراكه وفهمه ، وإلا فإن نعم الجنة مما يسمو على الفكر  
 ويعلو فوق متناول الإدراك ؛ فالأشياء التى عددها سبحانه تتشابه مع نظائرها التى  
 فى هذه الحياة بأسمائها ، فأما حقائقها وذواتها فليست مثلها ولا قريبا منها ، كما أترعن  
 ابن عباس أنه قال : ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء .

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ  
 رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ  
 سُطِحَتْ (٢٠) .

### شرح المفردات

الإبل : واحدها بعير ولا واحد لها من لفظها كنساء وقوم ، ورفع السماء :  
 إمساك ما فوقنا من شمس وأقمار ونجوم ، ونصب الجبال : إقامتها أعلاما  
 للسائرين ، وملجأ للحائرين ، وسطح الأرض : تمهيدها وتوطئتها للإقامة عليها  
 والمشى فى مناكبها .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مجيء يوم القيامة ، وبين أن الناس حينئذ صنفان أشقياء وسعداء ؛ وأن الأشقياء يكونون في غاية الذل والهوان ، وأن السعداء يكونون يومئذ مستبشرين بادية على وجوههم علامٌ المسرة — أعقب هذا بإقامة الحجّة على الجاحدين المنكرين لذلك ، وتوجيه أنظارهم إلى آثار قدرته فيما بين أيديهم ، وما يقع تحت أبصارهم من سماء تُظَلّ ، وأرض تقلّ ، وإبل ينتفعون بها في حلّهم وترحالهم ، ويأكلون من لحومها وألبانها ويلبسون من أوبارها ؛ وجبال تهديهم في تلك القيايق والقفار .

أخرج عبد بن حميد في آخرين عن قتادة قال : لما نعمت الله تعالى مافى الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة ، فأُنزل الله تعالى هذه الآيات .

## الإيضاح

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) أى أينكر هؤلاء المشركون ما ذكرنا من أمر البعث وما يتصل به من سعادة وشقاء ، ويستبعدون وقوعه ، ولا يتدبرون فى الإبل التى هى نُصِبَ أعينهم ، ويستعملونها فى كل حين ؟ ولو أنهم تدبروا فى خلقها لرأوا خلقاً بديعاً لا يشاكل خلق أكثر الحيوان ، فلها من عظم الجفّة ، وشدة القوة ، وعظيم الصبر على الجوع والعطش مالا يشاركها فيه حيوان آخر — إلى أنها تحتل المشاق ، وتنهض بالأوقار ، وتقطع شاسع المسافات ، حتى لقبوها: سفينة الصحراء . قال شاعرهم :

مافرق الألاً فبعد الله إلا الإبلُ

وما غرابُ البين إلا ناقةٌ أو جمل

إلى أنها تنقاد لل صغير والكبير وتحمل أذاهما . قال العباس بن مرداس :

وتضر به الوليدة بالهرأوى فلا غيرٌ لديه ولا تكير

وتكتفى فى المرعى بما تيسر لها من الشوك والشجر ، إلى أنها أعجب ما عندهم وهم واقفون على أحوالها ، علمون بطباعها .

وجاء الكلام بطريق الاستفهام ، إنكاراً عليهم ، وتوبيخاً لهم على جحد أمر البعث .

( وإلى السماء كيف رفعت ) أى ألا يشاهدون السماء وقد رفعت رفعا سحيق المدى بغير عمد ؟ .

( وإلى الجبال كيف نصبت ) أى وإلى الجبال كيف وضعت وضعا ثابتا لأميدان فيه ولا اضطراب ، فيتسنى ارتقاؤها فى كل حين ، وتجعل أمانة للسالكين فى تلك الفيافي والقفار ، وتنزل عليها المياه التى ينتفع بها فى سقى النبات ، وريّ الحيوان .

( وإلى الأرض كيف سطحت ) ومهدت على ما يقتضيه صلاح أمور ساكنيها ، وارتفاعهم بما فى ظاهرها من المنافع وما فى باطنها من المعادن .

وقصارى ماسلف — إنه لو نظر هؤلاء الجاحدون المعاندون فيما تقع عليه أنظارهم من هذه الأشياء وفكروا فيها ، لعلموا أنها صنعة لا توجد إلا بموجد عظيم ، ولا تحفظ إلا بمحافظ قدير ، ولأدركوا أن القادر على خلق هذه المخلوقات وسواها ، وحفظها ووضعها على قواعد الحكمة — قادر على أن يرجع الناس فى يوم يوفى فيه كل عامل جزاء عمله ، وأن ينشئ النشأة الآخرة من غير أن يعرفوا طريق إنشائها ، فلا ينبغي أن يكون جهلهم بكيفية يوم القيام سببا فى جحده وإنكاره .

وإنما خص هذه المخلوقات بالذكر ، لأن الناظر منهم يفكر فى أقرب الأشياء إليه ، فهو يرى بعيره الذى يمتطيه ، ثم إذا هو رفع رأسه فوق رأى السماء ، ثم إذا التفت يمينه أو يسرة رأى ما حواليه من الجبال ؛ فإذا مدَّ ناظره أمامه أو تحته رأى الأرض ، فالعربى يرى ذلك كل يوم ، ومن ثمَّ أمره الله بالتدبر فيها .

فَذَكَرْنَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ  
 تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥)  
 ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) .

### شرح المفردات

فذكر : أى عظ قومك وابعثهم على النظر فى ملكوت السموات والأرض ،  
 بمسيطر : أى بمسلط تجبرهم على ما تريد ، إياهم : أى رجوعهم .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه دليل قدرته تعالى على بعث الأجساد ، ولقت أنظار  
 الجاحدين إلى مظاهر قهره وغلبته لهذا العالم ، ثم وبخهم على إنكارهم وتماديهم  
 فى باطلهم ، على وضوح الحجة وظهور البرهان، أردف ذلك أمره صلى الله عليه وسلم  
 أن يذكرهم بهذه الأدلة وأشباهاها مما لا يبق معه مجال للشك والتردد .

### الإيضاح

( فذكر ) بأياتى ، وعظهم بحججى ، وبلغهم رسالاتى ، وحذرهم أن يتركوا  
 ذلك : ثم بعدئذ لاتذهب نفسك عليهم حسرات إن لم يؤمنوا .  
 ثم علل الأمر بالتذكير فقال :

( إنما أنت مذكر ) أى إنما بعثت للتذكير فحسب ؛ وليس من الواجب عليك  
 أن يؤمنوا ؛ فما عليك إلا التبشير والتحذير ، فإن آمنوا فقد اهتدوا إلى ما تسوق إليه  
 الفطرة ؛ وإن أعرضوا فقد تحكمت فيهم الغفلات ، وتغلبت عليهم الشهوات ؛  
 واستولت على عقولهم الأهواء والجهالات .

ثم أكد الإنذار وقرره بقوله :

(لست عليهم بمسيطر) أى لست عليهم بمسلط تجبرهم على ما تريد ، وتمهد أحوالهم ، وتكتب أعمالهم ، فلم تُتوت قوة الإكراه على الإيمان ، والإلجاء إلى ماتدعوهم إليه كما قال : « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ » وقال : « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مِنَ الْخَافِ وَعِيدٍ » .

(إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر) أى إنك وإن كنت داعياً وليس لك سلطان على مافى نفوسهم ، فالله هو المسيطر عليهم ، وصاحب السلطان على سرايرهم ؛ فمن تول منهم وأعرض عن الذكرى ، وجحد الحق المعروض عليه ؛ فالله يعذبه العذاب الأكبر فى الآخرة ؛ وقد يصم إلى ذلك عذاباً فى الدنيا من قتل أوسى الذرية أو غنيمة للأموال ، إلى نحو أولئك من صنوف البلاء التى ينزلها بهم . ثم أكد تعذيب الله لمن تولى وكفر فقال :

( إن إلینا إیابهم . ثم إن علینا حسابهم ) أى لافترّ المعرضین ، ولا خلاص لهم من الویل الذى أوعدوا به ؛ فینهم راجعون إلینا ، وقد حق القول منا فى عقابهم وسنحاسبهم على ما كسبت أیدیهم . وفى هذا تسلیة لقلب رسوله ، وإزالة أحزانه وآلامه ، لتكذیبهم إیاءه ، وإصرارهم على معاندته .  
وصلى الله على محمد وآله البررة الكرام .

### مقاصد هذه السورة

تضمنت هذه السورة ثلاثة مقاصد :

- (١) وصف أهل الجنة ووصف أهل النار .
- (٢) ذكر عجائب الصنعة الإلهية .
- (٣) أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالتذكير بما أرسل إليه من الشرائع .

## سورة الفجر

هي مكية ، وآياتها ثلاثون ، نزلت بعد سورة الليل .  
ومناسبتها لما قبلها :

- (١) أنه ذكر في تلك الوجوه الخاشعة والوجوه الناعمة ، وذكر في هذه طوائف من المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة ، وطوائف من الذين وجوههم ناعمة .
- (٢) أن القسم الذي في أول السورة كالدليل على صحة ما تضمنته خاتمة السورة السابقة من الوعد والوعيد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤)  
هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ (٥) .

## الإيضاح

( والفجر ) الفجر هو الوقت الذي ينشق فيه الضوء ، وينفجر النور ، وقد أقسم ربنا به ، لما يحصل فيه من انقضاء الليل ، وظهور الضوء ، وما يترتب على ذلك من المنافع كالتشاور الناس وسائر الحيوان من الطير والوحش لطلب الرزق ، وهو كقوله : « وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ » وقوله : « وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ » .

( وليال عشر ) هي عشر ليال يتشابه حالها مع حال الفجر ، فيكون ضوء القمر فيها مطاردا لظلام الليل إلى أن تغلبه الظلمة ، كما يهزم ضوء الصبح ظلمة الليل حتى يسطع النهار ، ولا يزال الضوء منتشرا إلى الليل الذي بعده .

وضوء الأهله في عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام ، ثم لا يزال الليل يغالبه إلى أن يغلبه ، فيسدل على الكون حجبته ، وهذه الليالي المشر غير متمينه في كل شهر ، فإن ضوء الهلال قد يظهر حتى تغلبه الظلمة في أول ليلة من الشهر ، وقد يكون ضئيلا يغيب ضوءه في الشفق فلا يعد شيئا .

والخلاصة — إن الليالي العشر تارة تبتدى من أول ليلة ، وأخرى من الليلة الثانية .

(والشفع والوتر) أى والزوج والقرء من هذه الليالي ؛ فهو سبحانه أقسم بالليالي جملة ثم أقسم بما حوته من زوج وفرد .

وبعد أن أقسم بضروب من الضياء أقسم بالليل مرادا منه الظلمة فقال :

(والليل إذا يسر) أى والليل إذا يمضى ويذهب ، وهو كقوله : « وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ » وقوله : « وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ » .

ونعمة الله على عباده بتعاقب الليل والنهار واختلاف مقاديرها بحسب الأزمنة والفصول — مما لا يجدها إلا مكابر ، لاجرم أقسم ربنا بهما تنبيها إلى أن تعاقبهما بتدبير مدبر حكيم ، عالم بما في ذلك من المصلحة لعباده .

أنظر إلى ما في إقبال الصبح من عميم النفع ، فإنك لترى أنه يفرج كربة الليل وينبه إلى استقبال العمل ، وكذلك تدرك ما في الليالي القمرية من فائدة ، فهى تستميل النفس إلى الفلحة ، وتيسر للناس النجعة ، وبخاصة في أيام الحر الشديد في بلاد كبلاد العرب .

وكذا نعرف ما في الظلام من منفعة ، فإن فيه تهدأ النفوس ، وتسكن الخواطر وتستقر الجنوب في مضاجعها ، تستريح من عناء العمل ، وتستعين بالنوم على إعادة القوى ، وتختفى الناس من مطاردة اللصوص ، والله در المتنبى حيث يقول :

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ المَانَوِيَّةَ تكذِبُ

ثم قرر نغامة الأشياء التي أقسم بها قبلُ ، وكونها أهلا لأن تعظم فقال :  
 ( هل في ذلك قسم لذي حجر ) الحجر ( بكسر الحاء وسكون الجيم ) العقل ،  
 ويقولون : فلان ذو حجر إذا كان قاهرا لنفسه ، ضابطا لها ، مضيقا عليها .  
 والمراد أن من كان ذا لبّ وعقل يفطن إلى أن في القسم بهذه المخلوقات المشتملة  
 على باهر الحكمة ، وعجيب الصنعة ، الدالة على وحدانية صانعها - مَقْنَعًا أَيْمَا مَقْنَعٍ ،  
 وكفاية أعظم كفاية .

وجاء الكلام بصورة الاستفهام لتأكيد المقسم عليه وتقريره ، كما تقول لمن  
 يحتاجك في أمر ثم تقيم له الحجة الناصعة التي تثبت ما تدعى : هل فيما ذكرت لك  
 كفاية ، ومرادك أني قد ذكرت لك أقوى الحجج وأبينها ، فليست تستطيع جحد  
 ما قلت بعد هذا .

وجواب القسم محذوف يدل عليه قوله بعد : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ » الآية ،  
 ويقدر بنحو قوله إن ناصية المكذبين بيدي ، ولئن أمهلتهم فلن  
 أمهلهم ، ولاخذنهم أخذ الأمم قبلهم ، وقد ترك لتسترسل نفس القارى في تأمل  
 ما مضى وما يتبع ليجد الجواب بينهما ، فيتمكن المعنى لديه فضل تمكن .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ  
 مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ  
 ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢)  
 فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (٣٢) .

### شرح المفردات

عاد : جيل من العرب البائدة يقولون إنه من ولد عوص بن إرم بن سام بن  
 نوح عليه السلام ، ويلقب أيضا بإرم ، وذات العمد : أى سكان الخيام ، وكانت  
 منازلهم بالرمال والأحفاف إلى حضرموت .

وتمود : قبيلة من العرب البائدة كذلك وهى من ولد كاتر بن إرم بن سام ،  
ومنازلهم بالحِجْر بين الشام والحجاز ، جابوا الصخر : أى قطعوه ونحتوه ، بالواد :  
أى الوادى الذى كانوا يسكنون فيه ، وفرعون : هو حاكم مصر الذى كان فى عهد  
موسى عليه السلام ، والأوتاد : المبانى العظيمة الثابتة ، والطغيان : تجاوز القدر  
فى الظلم والعتوّ ، وصب : أى أفرغ وألقى ، وسوط عذاب : أى أنواعا من العقوبات  
التي أنزلها عليهم جزاء طغيانهم . والمرصاد : هو المكان الذى يقوم فيه الرصد ،  
والرصد من يرصد الأمور : أى يتربها ليقف على ما فيها من الخير والشر ، ويطلق  
أيضا على الحارس الذى يحرس ما يخشى عليه .

### المعنى الجملى

بعد أن أقسم سبحانه أنه سيعذب الكافرين جزاء كفرهم وإصرارهم على مخالفة  
أوامره - شرع يذكر بعض قصص الأمم السالفة ممن عاندوا الله ورسوله ولجوا  
فى طغيانهم فأوقع بهم شديد العذاب وأخذهم أخذ العزيز الجبار ، ليكون فى ذلك  
زجر لهؤلاء المكذبين ، وتثبيت للمؤمنين الذين اتبعوا الرسول وناصروه ، وتطمين  
لقلوبهم بأن أعداءهم سيلقون ما يستحقون من الجزاء .

### الإيضاح

( ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها فى البلاد ؟ ) أى  
ألم تعلم أيها الإنسان ، كيف أهلك ربك عادا الأولى الذين كانوا أشد الناس أجساما  
وأطولهم قامة ، وأرفعهم مكانة ، والذين لم يخلق فى البلاد كلها مدينة كدينتهم .  
( وتمود الذين جابوا الصخر بالواد ) أى وتمود الذين قطعوا الصخر ونحتوه  
وبنوا منه القصور والأبنية العظيمة كما قال فى آية أخرى : « وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ  
بُيُوتًا فَارِهِينَ » .

وفي هذا دليل على ما أنعم الله به عليهم من القوة والعقل وحسن التدبير .  
 ( وفرعون ذى الأوتاد ) أى وفرعون ذى المباني العظيمة التى شادها هو ومن  
 قبله من فراعنة مصر فى قديم الأزمان كالأهرام وغيرها .  
 وما أجل التعبير عما تركه المصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد ، فإن شكل  
 هياكلهم العظيمة شكل الأوتاد المقلوبة ، إذ يبتدئ البناء عريضا وينتهى بأدق  
 مما بدأ .

ثم وصف من سبق ذكرهم بأقبح الأوصاف فقال :  
 (الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد ) أى هؤلاء الذين سلف ذكرهم  
 من عاد وثمود وفرعون قد استعملوا سلطاتهم وقوتهم فى هضم حقوق الناس ، واغتروا  
 بعظيم قدرتهم ، فكانوا سببا فى إفساد البلاد .

ذاك أن من اغتر بنفسه ، وتهاون بحقوق غيره واعتدى عليها ، وأخذ ما ليس له ،  
 ولم يعط الذى عليه - يكون قد فكك شمل الجماعة وأفسد فى البلاد ، فيختل نظام  
 العمران ، ويقف دولاب التعامل ، ويوجس كل امرئ خيفة من بنى جلدته ،  
 ولا شك أن أما هذه حالها تكون عاقبتها الخراب والدمار ، ومن ثم ذكر عاقبة  
 أمرها فقال :

( فصبّ عليهم ربك سوط عذاب ) أى فأنزل الله تعالى بهم ألوانا من البلاء ،  
 وشديد العذاب .

وقد شبه سبحانه ما أوقمه بهم من صنوف العذاب ، وما صبّه عليهم من  
 ضروب الهلاك - بالسوط ، من قبيل أن السوط يضرب به فى العقوبات ،  
 والله يوقع العذاب بالأمر عقوبة لها على ما يقع منها من أنواع التفريط فى أوامر دينه .  
 ثم ذكر العلة فى تعذيبه لهم فقال :

( إن ربك لبالمرصاد ) أى إن شأن ربك ألا يفوته من شؤون عباده تقير

ولا قطمير ، ولا يهمل أمة تمدت في أعمالها حدود شرائع القومية ، بل يأخذها بذنوبها أخذ العزيز المقتدر ، كما يأخذ الراصد القائم على الطريق من يمر به بما يريد من خير أو شر ، لا يفرط فيما رُصد له .

وقد أجل الله في هذه الآيات ما أوقعه بهذه الأمم من العذاب ، وفصله في غير موضع من كتابه الكريم ، فقال في سورة الحاقة : « فَأَمَّا تَمُودُ فَأَهْلِكُوهَا بِالطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا . فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » وقال : « وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَمِرَاتُ بِالخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً » .

والحكمة في تكرار القصص في القرآن الكريم ، وفي ذكر بعضها على طريق الإشارة في بعض المواضع ، وبالتفصيل في بعض آخر - أنه قد يكون الغرض تارة إقامة الحجة على قدرته تعالى ، وتوحده في ملكه ، وقهره لعباده حيناً ، وترقيق قلوب مخاطبين حيناً آخر ، وإنذار عباده وإعذارهم مرة ثالثة ؛ ولا شك أن كل مقام من الكلام له لون منه من بسط أو إيجاز لا يكون لغيره .

وقد عرفت أن الغرض هنا تطيب خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن الله سيمهل الكافرين ولا يهملهم ، وهو نيس بغافل عنهم ، وحينئذ تدرك أن الإشارة - إلى أن هذه الأمم أخذت وعذبت ولم تترك سدى - كافية جداً الكفاية لمن فكر وتدبر .

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦).

## شرح المفردات

ابتلاه : أى اختبره ببسط الرزق وإقتارته ، فأكرمه : أى صيره مكرماً يرفل في بحبوبة النعم ، قدر عليه رزقه : أى صيره فقيراً مقتراً عليه في الرزق ، تقول قدرت عليه الشيء : أى ضيقته عليه ، وكأنك جعلته بقدر لا يتجاوزه كما قال : « وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيَمُتِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ » .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه لا يفوته من شأن عباده شيء ، وأنه يأخذ كل مذنب بذنبه - أردف ذلك ذكر شأن من شئون الإنسان ، وبين أنه لا يهتم إلا بأمور الدنيا وشهواتها ، فإذا أنعم الله عليه وأوسع له في الرزق ظن أنه قد اصطفاه ورفعته على من سواه وجتبه منازل العقوبة ، فيذهب مع هواه ويفعل ما يشتهي ، ولا يبالي أكان ما يصنع خيراً أم شراً ، فيطغى ويفسد في الأرض ، وإذا ضيق عليه الرزق ( وقد يكون ذلك لتمحيص قلبه بالإخلاص أو لتظهر قوة صبره ، فإن الفقر لا يزيد ذوى العزائم إلا شكراً ) يقول ربي قد أهاننى ، ومن أهانه الله وصغرت قيمته لديه لم يكن له عناية بعمله ، فكيف يؤاخذ به بما يصدر منه من شر ، أو يكافئه على ما يصنع من خير ، فلا شكره يكافأ بإحسان ، ولا كفره يجازى بعقوبة ، فينطلق يكسب عيشه بأى وسيلة عنت له ، ولا تحجزه شريعة ، ولا يقف أمام قانون ، ويسلك سبيل الجبارين ، ويبخس الحقوق ، ويفسد نظم المجتمع ، ولا تزال أحوال الناس هكذا كما وصف الله ؛ فأرياب السلطان يظنون أنهم في أمن من عقاب ربهم ولا يذكرونه إلا بالستهم ، ولا يعرف له سلطان على قلوبهم ، والفقراء الأذلاء صغرت نفوسهم عند أنفسهم ، لا يباليون ماذا يفعلون ؟ .

## الإيضاح

( فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرم من ) أى إن الإنسان إذا أنعم الله عليه وأوسع له فى الرزق - زعم أن هذا الذى هو فيه من السعة - إكرام من الله له ، وخيل إليه الوهم أن الله لا يؤاخذة على ما يفعل ، فيطغى ويفسد فى الأرض .

( وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهان من ) أى وإن رأى أن رزقه لا يأتية إلا بقدر ظن أن ذلك بهانة من الله له وإذلال لنفسه .

والإنسان فى الحالين مخطى مرتكب أشنع وجوه الغفلة ، لأن إسباغ النعمة فى الدنيا على أحد لا يدل على أنه مستحق لذلك ، ولو دل على هذا لما رأيت عاصيا موسعا عليه فى الرزق ، ولا شاهدت كافرا ينعم بصنوف النعم .

واعلم من حكمة الله فى بسط الرزق على بعض الناس وتضييقه على بعض آخر - أن وجدان المال سبب للانغماس فى الشهوات ، وأنه قاطع عن الاتصال بالله ، وأن فقدانه وسيلة لتمحيص المرء وابتلائه ليكون من الصابرين الذين وعدوا بالجنة .

انظر إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما كان يدعو به ربه من قوله : « اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين » تدرك سر ذلك .

إلى أن من يتمتعهم الله بإسباغ النعمة عليهم يظنون أن الله قد اصطفاهم على عباده ورفعهم فوق سائر خلقه ، ثم لا يزال بهم شيطان الغواية حتى يذهبوا مع أهوائهم كل مذهب ، ويسيروا فى طريق شهواتهم المهلكة إلى أبعد غاية ، لا يرجعون إلى ربهم ، ولا يدركون أن ماعنده خير وأبقى .

كَلَّا بَلْ لَأَنْكُرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ  
 الْمَسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا  
 جَمًّا (٢٠) .

### شرح المفردات

ولا تحاضون : أى لا يأمر بعضكم بعضاً ، والتراث : الميراث ، لَمًّا : أى شديداً ،  
 جَمًّا : أى كثيراً قال :

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرِ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا

### المعنى الجملى

بعد أن بين خطأ الإنسان فيما يعتقد إذا بسط له الرزق أو قُتر عليه — أُرِدَفَ  
 ذلك زجرهم عما يرتكبون من المنكرات ، وأبان لهم أنه لو كان غنيهم لم يُعْثَمِ  
 الطغيان ، وفقيرهم لم يطمس بصيرته الهوان ، وكانوا على الحال التي يرتقى إليها  
 الإنسان — لشعرت نفوسهم بما عسى يقع فيه اليتيم من بؤس ، فعُنُوا بِأَكْرَامِهِ  
 فإن الذى يفقد أباه معرض لفساد طبيعته إذا أهملت تربيته، ولم يهتم بما فيه العناية به  
 ورفع منزلته ، ولو كانوا على ما تحدثهم به أنفسهم من الصلاح لوجدوا الشفقة تحرك  
 قلوبهم إلى التعاون على طعام المسكين الذى لا يجد ما يقتات به مع العجز عن تحصيله،  
 إلى أنهم يأكلون المال الذى يتركه من يتوفى منهم ، ويشتمدون فى أكله حتى  
 يجرموا صاحب الحق حقه . ويزداد حبهم للمال إلى غير غاية .

وصفوة القول — إن شرهم فى المال ، وقرمهم إلى اللذات ، وانصرفهم إلى  
 التمتع بها ، ثم قسوة قلوبهم إلى ألا يألموا إلى ما تجر إليه الاستهانة بشئون اليتامى من  
 فساد أخلاقهم ، وتعطيل قواهم ، وانتشار العدوى منهم إلى معاشريهم ، فينتشر

الداء في جسم الأمة — دليل على أن ما يزعمون من اعتقادهم بإله يأمرهم وينهاهم ، وأن لهم ديناً يعظّمهم ، زعم باطل ، وإذا غشّوا أنفسهم وأدّعوا أنهم يتذكرون الزواجر ، ويراعون الأوامر ، فذلك مقال تكذبه الفعال .

## الإيضاح

(كلا) أى لم أبتل الإنسان بالنعى لكرامته عندى ، ولم أبتله بالفقر لهوانه على ، فالكرامة والإهانة لا يدوران مع المال سعة وقلة ، فقد أوسّع على الكافر لا لكرامته ، وأضيق على المؤمن لا لهوانه ، وإنما أكرم المرء بطاعته ، وأهينه بمعصيته ، وقد أوسّع على المرء بالمال لأختره أيشكر أم يكفر ؟ وأضيق عليه لأختره أيصبر أم يضجر ؟

ثم انتقل وترقى من ذمهم بقبیح الأقوال إلى النعى عليهم بقبیح الأفعال فقال :

(بل لا تكرمون اليتيم) أى بل لكم أفعال وأحوال شر من أقوالكم تدل على تهالككم على المال ، فقد يكرمكم الله بالمال الكثير فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم وبره والإحسان إليه ، وقد جاء في الحديث الحث على ذلك ، فلقد قال صلى الله عليه وسلم : « أحب البيوت بيت فيه يتيم مُكْرَم » وورد أيضاً : « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » وقرن بين أصبعيه الوسطى والى تلى الإبهام . قال مقاتل : أنزلت الآية في قدامة بن مظعون وكان يتيماً في حجر أمية ابن خلف .

(ولا تحاضون على طعام المسكين) أى ولا يبحث بعضكم بعضاً على إطعامه وإصلاح شأنه ، وإذا لم تكرموا اليتيم ولم يوص بعضكم بعضاً باطعام المسكين فقد كذبت مزاعمكم في أنكم قوم صالحون .

وإنما ذكر التحاض على الطعام ولم يكتف بالإطعام ، فيقول ولم تطعموا

المسكين — ليعين أن أفراد الأمة متكافون ، وأنه يجب أن يوصى بعضهم بعضا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع التزام كلٌّ بفعل ما يأمُر به أو ينهى عنه .  
ثم بين أن إهمالهم أمر اليتيم ، وخالو قلبهم من الرحمة بالمسكين لم يكونا زهدا في لذائذ الحياة وتخلصا من متاعها ، وعكوفًا على شئون أنفسهم ، بل جاء من محبتهم المال فقال :

( وتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمْنًا ) أى إنكم تأكلون المال الذى يتركه من يتوفى منكم أكلا شديداً ، فتحولون بينه وبين من يستحقه ، وتجمعون بين نصيبكم منه ونصيب غيركم .

( وتحبون المال حبا جما ) أى وتميلون إلى جمع المال ميلا شديدا ، ميراثا كان أو غيره .

وخلاصة ذلك — أتم تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، إذ لو كنتم ممن غلب عليه حب الآخرة ، لانصرفتم عما يترك الموتى ميراثا لأيتامهم ، ولكنكم تشاركونهم فيه ، وتأخذون شيئا لا كسب لكم فيه ، ولا مدخل لكم فى تحصيله وجمعه ، ولو كنتم ممن استحبوا الآخرة لما صرّبت نفوسكم على المال تأخذونه من حيث وجدتموه ، من حلال أو من حرام .

فهذه أدلة ترشد إلى أنكم لستم على ما ادعيتم من صلاح وإصلاح ، وأنكم على ملة إبراهيم خليل الرحمن .

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ؟ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا (٢٥) وَلَا يُؤْتِقُ وِثَاقَهُ أَحَدًا (٢٦) .

## شرح المفردات

الدكّ : حط المرتفع بالبسط والتسوية ؛ ومنه اندكّ سقام البعير إذا انغرس في ظهره ، دكا دكا : أى دكا بعد دك : أى كرّر عليها الدك وتتابع حتى صارت كالصخرة للمساء ، صفا صفا : أى صفا بعد صفا بحسب منازلهم ومراتبهم في الفضل ، وجيء يومئذ بجهنم : أى كشفت للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم ، وأنى له الذكري ؟ أى ومن أين له فائدة التذكروقدفات الأوان ، والوثاق : الشدّ والربط بالسلاسل والأغلال .

## المعنى الجملى

بعد أن أنكر عليهم أقوالهم وادعاءهم أن الغنى إكرام لهم ، وأن الفقر إهانة لهم ، ونعى عليهم أفعالهم من حرصهم على الدنيا واستفراغ الجهد في تحصيلها ، وتكالبهم على جمعها من حلال وحرام - أردفه بيان أن ما يزعمونه من أنهم لربهم ذاكرون مع فراغ قلوبهم من الرأفة بالضعفاء وامتلائها بحسب المال والميل إلى الشهوات - زعم لاحقيقة له ، وإعما يتذكرون ربهم في ذلك اليوم العظيم حين يشهدون الهول ، ويعوّزهم الحول ، ويظهر لهم مكانهم من النكال والوبال ، ولكن هذه الذكري قدفات أوانها ، وانتهى إبانها ، فإن الدار دار جزاء لادار أعمال ، فلا يبقى فيها لأولئك الخاسرين إلا الحسرة والندامة ، وقول قائمهم : « لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي » ويكون لهم من العذاب مالا يقدر قدره ، ومن الإهانة ما يجلب عن التشبيه وتمثيل .

## الايضاح

( كلا ) زجر لهم وإنكار لأقوالهم وأفعالهم ؛ أى لا ينبغي أن يكون هذا شأنهم في الحرص على الدنيا من حيث تهياً لهم سواء كانت من حلال أو حرام ، وكأنهم يتوهمون أن لاحساب ولا جزاء ، وسيأتى يوم يندمون فيه أشد الندم ،

ولكن لاتنفعهم الندامة ، ويتمنون لو كانوا أفنوا حياتهم في التقرب إلى ربهم  
بصالح الأعمال .

ثم بين ذلك اليوم ووصفه بأوصاف ثلاثة فقال :

(١) ( إذا دكت الأرض دكا دكاً ) أى إذا دكت الأرض دكا بعد ذلك ،  
وتتابع عليها ذلك حتى صارت كالصخرة الملساء ، وذهب كل ماعلى وجهها من جبال  
وأبنية وقصور .

(٢) ( وجاء ربك والملك صفاً صفاً ) أى وتجت لأهل الموقف السطوة  
الإلهية ، كما تتجلى أهبه الملك للأعين إذا جاء الملك في جيوشه ومواكبه ، والله  
المثل الأعلى .

(٣) ( وجرى يومئذ بحهم ) أى وكشفت جهنم للناظرين بعد أن كانت  
غائبة عنهم .

ونحو الآية قوله : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى » أى أظهرت حتى رآها  
الخلق وعابنوها ، وليس المراد أنها نقلت من مكانها إلى مكان آخر .  
( يومئذ يتذكر الإنسان ) أى حينئذ تذهب الغفلة ، ويتذكر المرء ما كان  
قد فرط فيه ، وعرف أن ما كان فيه كان ضلالاً ، وأنه كان يجب أن يكون على  
حال خير مما كان عليها .

ثم بين أن هذه الذكرى لافائدة منها فقال :

( وأنى له الذكرى ) أى ومن أين لهذه الذكرى فائدة ، أو ترجع إليه بمائدة ؛  
وقد فات الأوان ، وحُمَّ القضاء .

والخلاصة — إنه إذا حدثت هذه الأحداث انكشفت عن الإنسان الحُجُب ،  
ووضح له ما كان عليه ، وذهبت عنه الغفلة ، وإذ ذاك يتمنى أن يعود ليعمل صالحاً ،  
ولكن أنى له ذلك ؟

ثم بين تذكره بقوله :

( يقول يا ليتنى قدمت لحياتى ) أى يتمنى أن يكون قد عمل صالحاً ينفعه  
في حياته الأخروية التى هى الحياة الحقيقية .

ثم بين مآله وعاقبة أمره فقال :

(فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) أى فيومئذ لا يصاب أحد بعذاب مثل ذلك العذاب الذى يصيب ذلك الإنسان الذى أبطره الغنى فوجد نعمه الله عليه ، أو أفسده الفقر حتى عثا فى الأرض فسادا ، ولا يوثق أحد من الخلائق وثاقا مثل هذا الوثاق الذى يوثقه ذلك الإنسان .  
ولا يخفى ما فى ذلك من تقوية الذكرى لمن له قلب يذكر ، ووجدان يشعر .

يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨)  
فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَاَدْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) .

### شرح المفردات

المطمئنة : من الاطمئنان وهو الاستقرار والثبات ، إلى ربك : أى إلى ثوابه وموقف كرامته ، فى عبادى : أى فى زمرة عبادى المكرمين .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال الإنسان الذى خُلِّي وطبعه ، فاستولى عليه جشعه وحرصه على رغباته وشهواته ، حتى خرجت عن سلطان الحكمة والعقل ، ثم ذكر عاقبة أمره فى الآخرة — أعقب هذا بذكر حال الإنسان الذى ارتقى عن ذلك الطبع وسمت نفسه إلى مراتب الكمال ، فاطمأن إلى معرفة خالقه ، واستعلى برغائبه إلى المطامح الروحية ، ورغب عن اللذات الجسديانية ، فكان فى الغنى شاكرًا لا يتناول إلا حقه ، وفى الفقر صابرا لا يمد يده إلى ما لغيره ، وبين أنه فى ذلك اليوم يكون بجوار ربه راضيا بعمله فى الدنيا ، مرضيا عنده ، يدخله فى زمرة الصالحين المكرمين من عباده .

## الإيضاح

(يأتيها النفس المطمئنة) أى يأتيها النفس التي قد استيقنت الحق ، فلا يخالجها شك ، ووقفت عند حدود الشرع ، فلا تزغزغها الشهوات ، ولا تضرب بها الرغبات .

(ارجعني إلى ربك راضية مرضية) أى ارجعني إلى محل الكرامة بجوار ربك ، راضية عما عملت في الدنيا ، مرضيا عنك ، إذ لم تكوني ساخطة لافي الغنى ولا في الفقر ، ولم تتجاوزي حدود الشرع فيما لك من حق وما عليك من واجب .  
ثم ذكر جميل عاقبتها فقال :

(فادخلي في عبادي) أى فادخلي في زمرة عبادي المكرمين ، وانتظمي في سلكهم ، وكوني في جملتهم ، فالنفوس القدسية كالمرايا المتقابلة ، يشرق بعضها على بعض ، وكأنها تربي في هذه الدنيا بالآلام وتزين بالمعارف والعلوم ، حتى إذا فارقت الأبدان جعلت في أما كن متقاربة ، بينها صفاء ومودة ، وحسن صلة ومحبة .  
(وادخلي جنتي) فتمتعى فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

اللهم اجعلنا من النفوس المطمئنة ، الراضية المرضية ، وأدخلنا في جنتك مع الملتقين ، من الأنبياء والشهداء والصالحين ، والحمد لله رب العالمين .

## مقاصد هذه السورة

تشتمل هذه السورة على مقاصد ستة :

- (١) القسم على أن عذاب الكافرين لا يحيص منه .
- (٢) ضرب المثل بالأمم البائدة كعاد وثمود .

(٣) كثرة النعم على عبد ليست دليلا على إكرام الله له ، ولا البلاء دليلا على إهانته وخذلانه .

(٤) وصف يوم القيامة وما فيه من أهوال .

(٥) تمنى الأشقياء العودة إلى الدنيا .

(٦) كرامة النفوس الراضية المرضية ، وما تلقاه من النعيم بجوار ربها .

## سورة البلد

هى مكية ، وآياتها عشرون ، نزلت بعد سورة ق .  
ومناسبتها لما قبلها :

(١) أنه ذم فى الأولى من أحب المال وأكل التراث ولم يحض على طعام المسكين ، وذكر هنا الخصال التى تطلب من صاحب المال من فك الرقبة ، والإطعام فى يوم المسغبة .

(٢) ذكر هناك حال النفس المطمئنة ، وذكر هنا ما يكون به الاطمئنان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣)  
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) .

## شرح المفردات

البلد: مكة ، حِلٌّ: أى حالٌ مقيم فيه ، ووالد وما ولد: أى وأبى وأبى والذ وأبى مؤنود من الإنسان والحيوان والنبات ، والكبد: المشقة والتعب ، قال لبيد يرثى أخاه أربداً:  
يا عينُ هل رأيتِ أربداً إذ قُمنا وقام الخصوم فى كبدٍ

## الإيضاح

(لا أقسم بهذا البلد) تقدم أن قلنا إن مثل هذا التعبير قسم مؤكد في كلام العرب ، وقد أقسم ربنا بمكة التي شرفها فجعلها حرماً آمناً ، وجعل فيها البيت الحرام مثابة للناس يرجعون إليه ويعاودون زيارته كلما دعاهم إليه الشوق ، وجعل فيه الكعبة قبلة لأهل المشرق والمغرب ، وأمر بالتوجه إليها في الصلوات التي تكرر كل يوم فقال : « وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » .

(وأنت حل بهذا البلد) أى وأنت مقيم بهذا البلد حال فيه ، وكأنه سبحانه جعل من أسباب شرف مكة وعظمتها كونه صلى الله عليه وسلم مقياً فيه ، ولا شك أن الأمكنة تشرف بشرف ساكنيها ، والنازلين بها .

وأنى بهذه الجملة ليفيد أن مكة جليلة القدر في كل حال حتى في الحال التي لم يراع أهلها في معاملتك تلك الحرمة التي خصها الله بها .

وفي هذا إيقاظ وتنبية لهم من غفلتهم ، وتقريع على حط منزلة بلدهم .

(ووالد وما ولد) أى وكل والد وكل مولود من الإنسان وغيره .

وفي القسم بهذا لفت لأنظارنا إلى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود وهو طور التوالد ، وإلى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع ، وإلى ما يعانیه كل من الوالد والمولود في إبداء النشء ، وتبليغ الناشئ وإبلاغه حده من النمو المقدر له .

انظر إلى البذرة في أطوار نموها ، كم تعاني من اختلاف الأجواء ، ومحاولة امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر إلى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان ، وتستعد لأن تلد بذرة أو بذوراً أخرى تعمل عملها ، وتزين الوجود بجمال منظرها .

وأمر الإنسان والحيوان في ذلك أعجب وأعظم ، والتعب والعناء الذي يلاقيه كل منهما في سبيل حفظ نوعه ، واستبقاء جمال الكون بوجوده أشد وأكبر .

ثم ذكر المحلوف عليه فقال :

( لقد خلقنا الإنسان في كبد ) أى إنه تعالى جعل حياة الإنسان سلسلة متصلة الجهاد ، مبتدئة بالمشقة ، منتهية بها ؛ فهو لا يزال يقاسى من ضروبها ما يقاسى منذ نشأته في بطن أمه إلى أن يصير رجلاً ، وكلما كبر ازدادت أتعابه وآلامه ، فهو يحتاج إلى تحصيل أرزاقه وتربية أولاده ، وإلى مقارعة الخطوب والنوازل ، ومصاهرة النفس على الطاعة والخضوع للواحد المعبود ، ثم بعد هذا كله يمرض ويموت ، ويلاقى في قبره وفي آخرته من المشاقِّ والمتاعب ، ما لا يقدر عليه إلا بتيسير الله سبحانه .

والسرفى التنبيه إلى أن الإنسان قد خلق في عناء — الرغبة في تسلية رسوله صلى الله عليه وسلم ، وحضه على عمل الخير والثابرة عليه ، وألا يعبأ بما يلاقيه من الشدائد والمشاقِّ ، وأن ذلك لا يخلو منه إنسان .

إلى ما فيه من تنبيه المغرورين الذين يشعرون بالقوة في أنفسهم ، ويظنون أنهم بها يستطيعون مصارعة الأقران ؛ وكأنه يقول لهم : لاتبادوا في غروركم ، ولا استمروا على صلفكم وكبريائكم ، فإن الإنسان لا يخلو من العناء في تصريف شؤنه وشئون ذويه ، ومهما عظمت منزلته ، وقويت شكيمته ؛ فهو لا يستطيع الخلاص من مشاق الحياة .

وقد جمع سبحانه بين البلد الممظم والوالد والولد ، ليشير إلى أن مكة على ما بها من عمل أهلها ستلد مولوداً عظيماً يكون ؛ كليلاً لمجد النوع الإنسانى وشرفه ، وهو دين الإسلام الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ؛ وأن العناء الذى يلاقيه إنما هو العناء الذى يصيب الوالد فى تربية ولده ، والمولود فى بلوغ الغاية فى سبيل نموه ؛ إلى ما فيه من الوعد بإتمام نوره ولو كره الكافرون .

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؟ (٥) يَقُولُ أَهْلَكَتُ مَالاً  
 لَبِداً (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا  
 وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) .

### شرح المفردات

أَيَحْسَبُ : أى أَيْظَن ، أَهْلَكَتُ : أى أَنْفَقْتُ ، لَبِداً : أى كَثِيراً ، وَالنَّجْدُ :  
 الطَّرِيقَ الْمَرْفُوعَةَ ؛ وَالْمَرَادُ بِالنَّجْدَيْنِ طَرِيقَا الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لا ينبغي للمفتونين بقوة أبدانهم ، المغرورين بوسع جاههم ،  
 أن يتبادوا في صلقتهم وكبرياتهم — شرع يوبخهم على الاغترار بقوتهم الزائلة ؛  
 ويذكرهم بما أنعم به عليهم من النعم الكثيرة الحسية والعقلية .

روى أن قوله : « أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؟ » نزل في أبى الأشد  
 أسيد بن كلدة الجُمحى ، وكان مغتراً بقوته البدنية ؛ وأن قوله : « يَقُولُ أَهْلَكَتُ  
 مَالاً لَبِداً » نزل في الحرث بن نوفل وكان يقول : أَهْلَكَتُ مَالاً لَبِداً فِي الْكُفَّارَاتِ  
 مِنْذُ أَطَعْتُ مُحَمَّدًا .

وسواء أكانت هذه الآيات نزلت في هؤلاء أم في غيرهم فإن معناها عام  
 كما علمت .

### الإيضاح

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؟) أى أَيْظَن ذَلِكَ الْمَغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ ، الْمَفْتُونُ بِمَا  
 أَنْعَمْنَا بِهِ عَلَيْهِ — أَنَّهُ مَهْمَا عَظُمَتْ حَالُهُ ، وَقَوَى سُلْطَانُهُ ، يَبْلُغُ مَنْزِلَةَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فِيهَا

أحد؟ ما أجعله إذا ظن ذلك ، فان في الوجود قوة فوق جميع القوى هى المهيمنة على كل قوة ، والمسيطرة على كل قدرة ، وهى القوة التى أبدعته ، والقدرة التى أنشأته .

ثم ذكر صنفا آخر من الأغنياء البخلاء المراثين فقال :

(يقول أهلكت مالا لبدأ) أى إنهم إذا طلب إليهم أن يعملوا عملا من أعمال البر قالوا : إننا ننفق الكثير من أموالنا فى المفاخر والمكارم ، ولم يعلموا أن المكرمه ماعدّه الله مكرمه ، والبرّ ما اعتبره الله برا ، فليس من البرّ إنفاقهم لمال فى مشاقه الله ورسوله ، ولا إنفاقهم طائل الأموال فى الصدّ عن سبيل الله ، والكيد للذين آمنوا بالله ورسوله .

(أيحسب أن لم يره أحد) أى أيظن ذلك المغتر بماله ، المدعى أنه أنفقه فى سبيل الخير — أن الله لم يطع على أفعاله ؛ ولم يعلم مادعاه إلى الإنفاق ؟ إنه لا ينبغي له أن يظن ذلك ، فإن البارى له مطلع على قرارة نفسه ، عالم بخبيثات قلبه ، لا يعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، عليم بأنه لم ينفق شيئا من ماله فى سبيل الخير المشروع والبر المحمود ، وإنما أنفق ما أنفق للرياء والسمعة ، أو لمشاقه الله ورسوله ، أو فى وجوه أخرى يظنها خيرا وهى خسران وضلال مبين .

وبعد أن أنكر على هؤلاء اغترارهم بقوتهم وكثرة أموالهم — شرع يذكر آثار قدرته الغالبة ، ليبين لهم أن هناك قوة لها من الآثار ما هم يشاهدون فقال :

(ألم نجعل له عينين) فهو إذا أبصر شيئا فأنما يكون ذلك بما خلقنا له من العينين ، فهذه النعمة التى يعترف بها إنما هى من عملنا .

(ولسانا وشفهتين) فاذا أبان عما فى نفسه ، فأنما يبين بما وهبنا له من لدنا من تلك الجارحة التى يتكلم بها ، فإذا غرّه حديثه ، أو قوة حجته ، فليس فضل ذلك راجعا إليه ، وإنما الفضل لمن وهبه ذلك .

(وهديناه النجدين) أى وأودعنا فى فطرة الإنسان التمييز بين الخير والشر ، وجعلنا له من العقل والفكر ما يكون مذكرا ومنها ، ونصبنا له الدلائل على حسن الخير ؛ وأرشدناه إلى مافى الشر من هنوات وعيوب ، ثم أقدرناه على أن يسلك أى الطريقين شاء ، بعد أن آتينا قوة التمييز ، والقدرة على الاختيار والترجيح ، ليسلك الطريق الذى أراد منهما .

فليكن نجدُ الخير أحبَّ إلى أحدكم من نجد الشر ؛ فمن نازعته نفسه واتجهت إلى نجد الشر فليقمعها بالنظر فى آيات الله ، والتدبر فى دلائله ، ليعلم أن ذلك الطريق مظلم معوج يهوى بصاحبه إلى طريق الردى ، ويوقعه فى المهالك .

وإنما سماها الله نجدين ، للإشارة إلى أنهما واضحان كطريقين عالين يراها ذوو الأبصار ، وإلى أن فى كل منهما وعورة يشق معها السلوك ، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها .

وفى ذلك إيماء إلى أن طريق الشر ليست بأهون من طريق الخير ، بل الغالب أن طريق الشر أصعب وأشق وأحوج إلى بذل الجهد حتى تُقطع إلى النهاية ، وتوصل إلى الغاية .

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣)  
 أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا  
 ذَا مَقْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا  
 بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا  
 هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠) .

## شرح المفردات

اقتحم الشيء : دخل فيه بشدة ، والمقبة : الطريق الوعرة في الجبل يصعب سلوكها ؛ والمراد بها مجاهدة الإنسان نفسه وهواه ومن يسوّل له فعل الشر من شياطين الإنس والجن ، وفك الرقبة : عتقها أو المعاونة عليه ، والمسغبة : الجوع ، يقال سغب الرجل يسغب إذا جاع ، والمقربة : القرابة في النسب ، تقول فلان من ذوى قرابتي ومن أهل مقربتي إذا كان قريبك نسبا ، والمتربة : الفقر ؛ تقول ترب الرجل إذا افتقر ، وأترب إذا كثرت ماله حتى صار كالتراب ، تواصلوا بالصبر : أى نصح بعضهم بعضا به ، والميمنة : طريق النجاة والسعادة ، والمشامة : طريق الشقاء ، مؤصدة : أى مطبقة عليهم من أصدت الباب ، أى أغلقتة ، قال :

تحنّ إلى أجال مكة ناقتى      ومن دونها أبواب صنعاء مؤصدة

## المعنى الجملى

بعد أن ونح سبحانه هؤلاء المرانين الذين يتفوقون أموالهم طلبا للشهرة ، وحباً في حسن الأحذوثة ، وأتبههم على افتخارهم بما صنعوا مع خلوة بواطنهم من حسن النية ، وبين لهم أن أفضل ما يتمتعون به من البصر والنطق والمقل المميز بين الخير والشر ، والنع والضر هو منه سبحانه ، وهو القادر على سلبه منهم — أردفه بيان أنه كان عليهم أن يشكروا تلك النعم ، ويختاروا طريق الخير ، ويرجعوا سبيل السعادة ، فيفيضوا على الناس بشئ مما أفاض به عليهم ؛ وأفضل ذلك أن يعينوا على تحرير الأرقاء من البشر ، أو يواسوا الأيتام من أقاربهم حين الموت وعزة الطعام ، أو يطعموا المساكين الذين لا وسيلة لهم إلى كسب ما يقيمون به أودهم لضفء وعجزهم ؛ ثم هم مع ذلك يكونون صحيحى الإيمان ، صبورين على أذى الناس ، وعلى ما يصيبهم من المكارة في سبيل لدعوة إلى الحق ، رجاء بعباده ، مؤسرين لهم حين الشدائد .

هذه هي الطريق التي كان من حق العقل أن يرشد إليها ؛ لكن الإنسان قد خدعه غروره فلم يقتحم هذه العقبة ، ولم يسلك هذه السبيل القويمة ، ولم يسرف فيما يرشد إليه العقل السليم .

## الإيضاح

( فلا اقتحم العقبة ) أى فهلا جاهد النفس والشيطان وعمل أعمال البر ؛ وقد ضرب الله العقبة مثلاً لهذا الجهاد ، لأن الإنسان يريد أن يرقى من عالم الحس عالم الأشباح إلى عالم الأنوار والأرواح ، وبينه وبين ذلك عقبات من ورأها عقبات ، وسبيل الوصول إلى غايته هذه هي فعل الخيرات .

ثم فخم شأن العقبة وعظم أمرها فقال :

( وما أدراك ما العقبة ) أى وأى شئ أعلمك ما اقتحم العقبة ؟

ثم أرشد إلى أن اقتحامها يكون بفعل صنوف من الخير منها :

( ١ ) ( فك رقبة ) أى عتق الرقبة أو الإعانة عليها ؛ وقد ورد في الكتاب

الكريم والسنة الترغيب في العتق والحث عليه .

روى البراء بن عازب رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم فقال : يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال : عتق النسمة وفك

الرقبة ، قال يا رسول الله أليس واحدا ؟ قال لا : عتق الرقبة أن تنفرد بعتقها ، وفك

الرقبة أن تعين في ثمنها » .

والكلام بتقدير مضاف : أى وما أدراك ما اقتحام العقبة ، فك رقبة ، لأن

فك الرقبة ليس هو العقبة نفسها ، وإنما هو اقتحامها لأنه سبب موصل إلى مجاوزة

العقبة والوصول إلى عالم الأنوار .

( ٢ ) ( أو إطعام في يوم ذى مسغبة . يتما ذامقربة ) أى أو إطعام يتيم من أقاربه

في أيام الجوع والعوز .

وفي هذا جمع بين حقين : حق اليتيم وحق القرابة .  
(٣) (أو مسكيناً ذا متربة) أى أو إطعام المسكين الذى لا وسيلة له إلى كسب المال لضعفه وعجزه .

(ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) أى ثم كان مع اقتحامه العقبة من صادق الإيمان الذين يصبرون على الأذى وما يصيبهم من المكاره فى سبيل الدفاع عن الحق ، ويرحمون عباد الله ويواسونهم ويساعدونهم حين البأساء .

وإنما اشترط الإيمان مع فعل هذه المبرات ، لأن من فعلها دون أن يكون مؤمناً لم ينتفع بها ، ولم يكن له ثواب عليها ، إذ لا ينفع مع الكفر برّ .  
ثم بين مآل فاعلى هذه المبرات فقال :

(أولئك هم أصحاب الميمنة) أى أولئك الذين اقتحموا العقبة فكفوا الرقاب ، وأطعموا المساكين ، وواسوا ذوى القربى فى يوم المسغبة هم السعداء للمتعمون بجنات النعيم ، وهم الذين عناهم الله بقوله : « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ . مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ » .

ثم ذكر مقابل هؤلاء وهم الذين صدوا عن سبيل الله ، وتواصوا بالإثم وتواصوا بالعدوان ومعصية الرسول فقال :

(والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة) أى والذين جحدوا آياتنا السكونية وآياتنا السمعية التى جاءت على أسنة الرسل كالقرآن وغيره من الكتب السماوية هم أصحاب المشأمة ، أى أهل الشمال الذين وصفهم الله بقوله : « وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ . مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ . لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ

كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ  
أُنْزِلْنَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْفًا لِمَبْمُوثُونَ . أَوْ آبَاءُنَا الْأَوْلُونَ .

( عليهم نار مؤصدة ) أى عليهم نار تطبق عليهم فلا يستطيعون الفكك منها  
ولا الخلاص من عذابها . نجانا الله منها بمنه وكرمه ، وجعلنا من أصحاب الميمنة .

### مقاصد هذه السورة

تشتمل هذه السورة على خمسة مقاصد :

- (١) ما ابتلى به الإنسان في الدنيا من النصب والتعب .
- (٢) اغترار الإنسان بقوته .
- (٣) نكران النعم التي أنعم الله بها عليه من العينين واللسان والعقل والفكر .
- (٤) سبل النجاة الموصلة إلى السعادة .
- (٥) كفران الآيات سبيل الشقاء .

## سورة الشمس

هى مكية ، وآياتها خمس عشرة ، نزلت بعد سورة القدر .  
ومناسبتها لما قبلها :

(١) أنه سبحانه ختم السورة السابقة بذكر أحباب الميمنة وأصحاب المشامة ، وأعاد ذكر الفريقين فى هذه السورة بقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

(٢) ختم السورة السالفة بشيء من أحوال الكفار فى الآخرة ، وختم هذه بشيء من أحوالهم فى الدنيا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣)  
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦)  
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ  
زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) .

### شرح المفردات

ضحى الشمس : ضوءها ، تلاها : أى تبعها ؛ يقال تلا فلان فلاناً يتلوه إذا تبعه ، وجلاها : أى كشف الشمس وأتمّ وضوحها ، يغشاه : أى يزيل ضوءها ويحجبه ، والسواء : كل ما ارتفع فوق رأسك ، والمراد به هذا الكون الذى فوقك وفيه الشمس والقمر وسائر الكواكب التى تجرى فى مجاريها ، بناها : أى رفعها ، وجعل كل

كوكب من الكواكب بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة تحيط بك، وطحا الأرض: بسطها وجعلها فراشا، سوّاها: أى ركب فيها القوى الظاهرة والباطنة، وجعل لكل منها وظيفة تؤديها، ألهمها: عرفها ومكّنها، والنجور: ما يكون سببا في الخسران والمهلكة، والنقوى: إنيان ما يحفظ النفس من سوء العقبة، أفلح: أى أصاب الفلاح؛ وهو إدراك المطلوب، وزكاها: أى طهرها من أدناس الذنوب، وخاب: أى خسر، ودسّاها: أى أنقصها وأخفاها بالذنوب والمعاصي قال:

ودسستُ عمرا في التراب فأصبحت ————— لآله منه أرامل ضيعا

## الإيضاح

(والشمس وضحاها) أقسم سبحانه بالشمس نفسها غابت أو ظهرت، لأنها خلق عظيم يدل على قدرة مبدعها، وأقسم بضوئها لأنه مبعث الحياة في كل حي، فلولاها ما أبصرت حيا ولا رأيت ناميا، ولولاها ما وجد الضياء ولا انتشر النور، وإذا أرسلت خيوطها الذهبية على مكان فر منه السقم، ووات جيوش الأمراض هاربة، لأنها تفتك بها فتكاً ذريعا.

(والقمر إذا تالاها) أى والقمر إذا تلا الشمس في التياى الأبيض من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة وقت امتلائه أو قربه من الامتلاء حين يضىء الليل كله من غروب الشمس إلى الفجر.

وهذا قسم بالضوء في طور آخر، وهو ظهوره وانتشاره الليل كله.

وقد يكون المراد — بتلاها أى تبعها في كل وقت، لأن نوره مستمد من نور الشمس فهو لذلك يتبعها، وقد قال بهذا الفراء قديما وأثبتته علماء انكح حديثا.

(والنهار إذا جلاها) أى والنهار إذا جلى الشمس وأظهرها وأتم وضوحها، إذ كلما كان النهار أجلى ظهورا كانت الشمس أكمل وضوحا.

وأقسم بهذه مخلوقات ، للإشارة إلى تعظيم أمر الضوء وإعظام أمر النعمة فيه ، وفيه نعت لأذهاننا إلى أنه آية من آيات ربنا الكبرى ، ونعمة من نعمه العظمى .  
وفى قوله . جلالها بيان للحال التى يكشف فيها النهار تلك الحكمة البالغة ، والآية الباهرة .

وبعد أن أقسم بالضياء فى أطوار مختلفة أقسم بالليل فى حال واحدة فقال :  
( والليل إذا يغشاها ) أى والليل إذا يغشى الشمس فيزيل ضوءها فى الليالى الحاتكة التى لا أثر لضوء الشمس فيها ، لامباشرة كما فى النهار ، ولا بالواسطة كضوء القمر المستفاد منها ، وهى قليلة فبها ليلة أو ليلتان أو بعض ليالى فى الشهر .  
وفى هذا إيماء إلى أن الليل يطرأ على هذا الكوكب العظيم فيذهب ضوءه ، ويحيل نور العالم ظلاماً فهو على جليل نعمه وعظيم فائدته ، لا يتخذ إلهاً لأن الإله لا يحول ولا يزول ، ولا يعتره تغير ولا أقول .

وفيه ردع وتأنيب للمشركين على تأليه وعبادته .  
وبعد أن ذكر الأوصاف الدالة على عظمة هذه الأجرام — أردفه ذكر صفات تدل على حدوثها فقال :

( والسماء وما بناها ) أى والسماء ومن قدرها على النحو الذى اقتضته مشيئته وحكمته .

وفى ذكر البنين إشارة إلى ما انطوى عليه رفعها وتسويتها من بارع الحكمة وتمام القدرة ، وأن لها صناعاً حكماً قد أحكم وضعها وأجاد تقديرها ، فإنه شد هذه الكواكب بعضها إلى بعض برابط الجاذبية العامة كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها حتى يتناسك .

ولما كان الخطاب موجهاً إلى قوم لا يعرفون الله بجليل صفاته ، وكان القصد منه أن ينظروا فى هذا الكون نظرة من يطلب للأثر مؤثراً ، فينتقلوا من ذلك إلى معرفته تعالى — عبر عن نفسه بلفظ ( ما ) التى هى الغاية فى الإبهام .

( والأرض وما طحاها ) أى والأرض والذى بسطها ومهدا للسكنى ، وجعل الناس ينتفعون بما على ظهرها من نبات وحيوان ، وبما فى باطنها من مختلف المعادن . ونحو الآية قوله : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً » .

وقصارى ماسلف - إنه بعد أن أقسم سبحانه بالضياء والظلمة ، أقسم بالسماء وما فيها من الكواكب وبالذى بناها وجعلها مصدرا للضياء ، وبالأرض والذى جعلها لنا فراشا ومصدرا للظلمة ، فإنها هى التى يجب بعض أجزائها ضوء الشمس عن بعضها الآخر فيظهر فيه الظلام .

ثم أقسم بعد هذا بالنفس الإنسانية لما لها من شرف فى هذا الوجود فقال :  
( ونفس وما سواها ) أى قسما بالنفس ومن سواها وركب فيها قواها الباطنة والظاهرة ، وحدد لكل منها وظيفة تؤديها ، وألف لها الجسم الذى تستخدمه من أعضاء قابلة لاستعمال تلك القوى .

ثم بين أثر هذه التسوية فقال :  
( فألهما فجورها وتقواها ) أى فألهم كل نفس العجور والتقوى وعرفها حالها ، بحيث تميز الرشد من الغي ، ويتبين لها الهدى من الضلال ، وجعل ذلك معروفا لأولى البصائر .

وبعد أن ذكر أنه ألهم النفوس معرفة الخير والشر ذكر ما تلقاه جزاء على كل منهما فقال :

( قد أفلح من زكاها ) أى قدرجح وفاز من زكى نفسه ونمّاها حتى بلغت غاية ما هى مستعدة له من السكّال العقلى والعملى ، حتى تثمر بذلك الثمر الطيب لها ولن حولها .

( وقدخاب من دساها ) أى وخسر نفسه وأوقعها فى التهلكة من نقصها حقها بفعل المعاصى ومجانبة البر والقربات ، فإن من سلك سبيل الشر ، وطاوع داعى

الشهوة فقد فعل ما تفعل البهائم ، وبذلك يكون قد أخفى عمل القوة العاقلة التى اختص بها الإنسان ، واندرج فى عداد الحيوان .  
ولاشك أنه لاخية أعظم ، ولا خسران أكبر من هذا المسخ الذى يجلبه الشخص لنفسه بسوء أعماله .

والخلاف عليه الذى افتتحت به السورة - محذوف للعلم به من نظائره ، وكأنه قيل : « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ... » لينزلنّ بالكاذبين منكم مثل ما نزل بشمود إذ كذبت نبيها فأصابها العذاب ، ودليل ذلك قوله بعد : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا » الآيات ، فإنها ترشد إلى أن الله يعاقب من يكذب رسله ، نحو ما سبق فى سورة البروج .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ  
رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ  
رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) .

### شرح المفردات

الطغوى والطغيان : مجاوزة الحد المعتاد ، انبعث : أى قام بعقر الناقة ، أشقاها :  
أى أشقى ثمود وهو تدار بن سالف ، رسول الله : هو صالح عليه السلام ، ناقة الله :  
أى احذروا التعرض لناقاة الله ، وسقياها : أى شربها الذى اختصها به فى يومها ،  
فعقروها : أى فجعروها ، دمدم : أى فأطبق عليهم العذاب ، يقال : دمدم عليه  
القبر : أى أطبقه عليه ، فسواها : أى فسوى القبيلة فى العقوبة فلم يفت منها أحد ،  
عقباها : أى عاقبة الدممة وتبعها .

## المعنى الجملى

جرت عادة القرآن أن يذكر بعض أخبار الأمم السابقة وما كان منهم مع رسالهم وما قابلوهم به من التكذيب والإيذاء ، ثم يذكر ما جرت به سنته سبحانه من الإيقاع بالمكذابين ، وأخذهم بنبلهم وبما عملوا مع أنبيائهم ، ليكون في ذلك سلوة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لم يلق إلا ما لقي إخوانه الأنبياء ، ولم يكابد من قومه إلا مثل ما كابدوا ، وليكون في ذلك تخويف لأولئك المكذابين الذين يعاندون رسول الله ويلحفون في تكذبه ، بأنهم إذا استمروا على ذلك حاق بهم مثل ما حاق بالأمم السالفة ونالوا من الجزاء مثل ما نالوا .

## الايضاح

( كذبت ثمود بطغواها ) أى كذبت ثمود نبيها صالحا بسبب طغيانها و بغيها .  
 ثم بين أمانة ذلك التكذيب فقال :  
 ( إذ انبعث أشقاها ) أى كان انطلاق الأشقى لعقر الناقة والقوم راضون عنه علامة ظاهرة على تكذيبهم نبيهم الذى جعلها دليل نبوته ، وبرهاننا على صدق رسالته ، وأوعدهم إذا هم تعرضوا لها ، وسكوت قومه على ما يفعل دليل رضاهم عن فعله ، فكانوا مكذبين مثله .

ثم ذكر ما أوعدهم به الرسول على فعلهم فقال :  
 ( فقال لهم رسول الله : ناقة الله وسقياها ) أى فقال لهم صالح : احذروا ناقة الله التى جعلها آية نبوتى ، واحذروا شربها الذى اختصت به فى يومها ، فلا تؤذوها ولا تتعدوا عليها فى شربها ولا فى يوم شربها ، وكان صالح عليه السلام قد اتفق معهم على أن للناقة شرب يوم ، ولهم ولواشيهم شرب يوم ، فكانوا يجدون فى أنفسهم حرجا لنالك ويتضررون منه ، فهموا بقتلها فحذّرهم أن يفعلوا ذلك ،

وخوفهم عذاب الله وعقابه الذى ينزله بهم إن هم أقدموا على هذا الفعل ، لكنهم كذّبوه ولم يستمعوا لنصحه كما أشار إلى ذلك بقوله :

( فكذبوه فمقرّوها ) أى إنهم لم يتورّعوا عن تكذيبه ، ولم يحجموا عن عمر الدافقة ، ولم بالوا بما أنذرهم به من العذاب وأليم العقاب .

وذا تقدم أن قلنا : إنهم لما رضوا بهذا الفعل نسب إليهم جميعا ، وكانهم صنعوه معه .

ثم بين عاقبة عملهم وذكر ما يستحقونه من الجزاء فقال :

( فندم عليهم ربهم بذنبهم ) أى فأطبق عليهم العذاب ، وأهلكهم هلاك استئصال ولم يبق منهم دينار ولا ناخ نار ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

( فسواها ) أى فسوى القبيلة فى العقوبة ولم يفلت منها أحد ، بل أخذ بها كبيرهم وصغيرهم ، ذكرهم وأشاهم : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ » .

وقد يكون المعنى — جعل لأرض فوقهم مستوية كأن لم تُثر ، ودمر مساكنها على ساكنيها .

( ولا يخاف عقباها ) أى إن الله أهدى لهم ولا يخاف عاقبة إهلاكهم ، لأنه لم يظلمهم فيخيفه الحق ، وليس هو بالضعيف حتى يبدله منهم مكروه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

والمراد أنه بالغ فى عذابهم إلى غاية ليس فوقها غاية ، فإن من يخاف العاقبة لا يبلغ فى الفعل ، أما الذى لا يخاف العاقبة ولا تبعه العمل فإنه يبالغ فيه ليصل إلى ما يريد .

وقد علمت أن القصص مسوق لتسمية رسوله بأنه سينزل بالمكذّبين به مثل ما أنزل بشمود ، ولقد صدق الله وعده ، فأهلك من أهلك من أهل مكة فى وقعة

بدر بأيدي المؤمنين ، ثم لم يزل يحل بهم الخزي والعذاب بالقتل تارة وبالإبعاد أخرى حتى لم يبق في جزيرة العرب مكذب ، ولو سارت الدعوة إلى الإسلام سيرتها في عهد الصحابة لما بقي في الأرض مكذب ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

### مقاصد هذه السورة

اشتمت هذه السورة على مقصدين :

- (١) الإقسام بالخلوقات العظيمة على أن من طهر نفسه بالأخلاق الفاضلة فقد أفلح وفاز ، وأن من أغواها ونقصها حقها بجهالته وفسوقه فقد خاب .
- (٢) ذكر نمود مثلاً لمن دسى نفسه فاستحق عقاب الله الذي هو له أهل .

## سورة الليل

هى مكية ، وآياتها إحدى وعشرون ، نزلت بعد سورة الأعلى .  
ومناسبتها لما قبلها - أنه ذكر هناك فلاح المطهرين لأنفسهم ، وخيبة المدسّين لها .  
وهنا ذكر ما يحصل به الملاح وما تحصل فيه الخيبة ، فهى كالتفصيل لسابقتها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ  
وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى (٤) .

### شرح المفردات

يفشى : أى يغطى كل شىء فيواريه بظلامه ، تجلى : أى ظهر وانكشف بظهوره  
كل شىء ، وما خلق : أى والذى خلق ، وشتى : واحدها شتيت ، وهو المتباعد بعضه  
من بعض .

### المعنى الجملى

أقسم سبحانه بما أقسم بأن سعى البشر مختلف ، فأقسم :  
(١) بالليل الذى يأوى فيه كل حيوان إلى مستقره ، ويسكن عن الاضطراب  
إذ يغشاه النوم الذى فيه راحة لبدنه وجسمه .  
(٢) بالنهار الذى يتحرك فيه الناس لمعاشهم ، وفيه تغدو الطير من أوكارها  
وتخرج الهوام من أجاجرها .  
(٣) بالقادر العظيم الذى خلق الذكر والأنثى ويميز بين الجنسين مع أن المادة

التي تكوّننا منها واحدة ، والحل الذي تكوّننا فيه واحد ، وفي ذلك دليل على تمام العلم وعظيم القدرة كما قال : « يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئْتًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ . أَوْ يَرْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَانًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيًّا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ » .

## الإيضاح

(والليل إذا يغشى) أى قسما بالليل حين يغشى الأشياء ويوارى بها فى ظلامه ، ويكون فيه مستراح للناس من أعمالهم ، بما يشملهم من النوم والهدوء .

(والنهار إذا تجلّى) بزوال ظلمة الليل ، فيتحرك الإنسان والحيوان ، طلبا لمعاشهما ، وبهذا يظهر وجه المصلحة فى اختلافهما ، إذ لو كان الدهر كله ليلا لتعذّر المعاش على الناس ، ولو كان كله نهارا لبطلت المصلحة ، فكان فى تعاقبهما آية بالغة يستدل بها على علم الصانع وحكمته ، اقرأ إن شئت قوله : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ حِجْلَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا » .

(وما خلق الذكر والأنثى) أى قسما بانقاد العظيم الذى خلق الذكر والأنثى من ماء واحد .

وفى هذا دليل على أنه عليم جدّ العلم بدقائق المادة وما فيها ، إذ لا يعقل أن يكون هذا التخالف بين الذكر والأنثى فى الحيوان بمحض الاتفاق من طبيعة لا شعورها بما تفعل ، فإن الأجزاء الأصلية فى المادة متساوية النسبة فىهما ، فحدوث هذا التخالف فى الجنين دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، حكيم فيما يصنع ويضع .

وقصارى ما سلف — إن بعض الماء يكون تارة سببا للحمل ، وأخرى يكون غير مستعدّ للتلقيح ، والأول يكون من بعضه الذكران ، ومن بعضه الإناث . سبحانه ما أعظم قدرته ، وأجلّ حكمته ، لا إله إلا هو الفعال لما يريد .

ثم ذكر المحلوف عليه فقال :

(إن سعيكم لشيء) أى إن أعمالكم أيها الناس لمتباعدة متفرقة ، بعضها ضلال وعبادة ، وبعضها هدى ونور ، وبعضها يستحق النعيم ، وبعضها يستحق العذاب الأليم كما قال : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَنَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » وقال : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ » .

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ  
لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ  
لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) .

### شرح المفردات

أعطى : أى بذل ماله ، واتقى : أى ابتعد عن الشر وإيصال الأذى إلى الناس ،  
بالحسنى : أى بالخصلة الحسنى التى هى أفضل من غيرها ، لليسرى : أى للخصلة التى  
تؤدى إلى يسر وراحة بتمتعه بالنعيم ، استغنى أى عدّ نفسه غنيا عما عند الناس بما  
لديه من مال ، فلا يجد فى قلبه راحة اضعفاهم ببذل المال والمعونة لهم ، بالحسنى :  
أى بالفضيلة و بأنها ركن من أركان الاجتماع ، للعسرى : أى بالخصلة التى تؤديه إلى  
العسر ، ويقال تردى فلان من الجبل إذا هوى من أعلاه وسقط إلى أسفله .

### المعنى الجملى

بعد أن أشار إلى اختلاف أعمال الناس فى أنواعها وصفاتها ، والجزاء الذى يعود  
على فاعلها ... أخذ يفصل هذا الاختلاف ، ويبين عاقبة كل عمل منها .

## الإيضاح

( فأما من أعطى واتقى ) أى فأما من أعطى المال وأنفقه فى وجوه الخير ، سواء كان واجبا عليه أم لا كالصدقات والنوافل كفك الأسارى وتقوية المسلمين على عدوهم ، وابتعد عن كل ما لا ينبغي ، فحى نفسه عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وخاف من إيصال الأذى إلى الناس .

( وصدق بالحسنى ) أى وصدق بثبوت الفضيلة والعمل الطيب ، ونحو ذلك مما هو مركز فى طبيعة الإنسان ، وهو مصدر الصالحات وأفعال البر والخير . ولا يكون تصديقا حقا ، ولا ينظر الله إليه إلا إذا صدر عنه الأثر الذى لا ينفك عنه وهو بذل المال ، واتقاء مفاسد الأعمال .

وكثير من الناس يظن نفسه مصدقا بفضل الخير على الشر ؛ ولكن هذا التصديق يكون سرايا فى النفس ، خياله الوهم ، لأنه لا يصدر عنه ما يليق به من الأثر ، فتراه قاسى القلب ، بعيدا عن الحق ، بخيلا فى الخير ، مسرفا فى الشر .

ثم ذكر جزاءه على ذلك فقال :

( فسيسره لليسرى ) أى فسهيئه لأيسر الخطين وأسهما فى أصل الفطرة ، وهو تكميل النفس إلى أن تبلغ المقام الذى تجد فيه سعادتها ؛ فالإنسان إنما يمتاز عن غيره من الحيوان بالتفكير فى الأعمال ووزنها بنتائجها .

فإذا حصل ذلك وظهرت آثاره فيها سهل الله له ما هو مسوق إليه بأصل فطرته . وفاعل الخير للخير يجد أريحية فى نفسه ، ويذوق لذة لاتعدها لذة ، فتزيد فيه رغبته ، وتستند لفعله عزيمته ؛ وهذا هو التيسير الإلهى الذى يوفق الله له الصالحين من عباده .

( وأما من بخل واستغنى ) أى وأما من أمسك ماله أو أنفقه فى شهواته ، ولم ينفقه فيما يقرب من ربه ، وخذعته ثروته وجاهه . فظن أنه بذلك لا يحتاج إلى أحد ولا يحس

بأنه واحد من الناس يصيبه ما أصابهم من سوء .  
 (وكذب بالحسنى) أى وكذب بأن الله يخلف على المنفقين فى سبيله ، فيخل  
 بماله ولم ينفق إلا فيما يلذ له ويمتعه فى حاضره ولا يبالي بما عدا ذلك .  
 ويدخل فى المكذبين بالحسنى أولئك الذين يتكلمون بها تقليدا لغيرهم .  
 ولا يظهر أثرها فى أعمالهم .

(فسيسره للعسرى) أى ومن مرتت نفسه على الشر وتعودت الخبث ، فيسهل  
 الله له الخطة العسرى ، وهى الخطة التى يحط بها قدر نفسه ، وينزل بها إلى حضيض  
 الآثام ويفسها فى أحوال الخطيئة .

(وما يقنى عنه ماله إذا تردى) أى وإذا يسرناه للعسرى فأى شيء يقنى عنه  
 ماله الذى يخل به على الناس ولم ينفقه فى المصالح العامة ، وفيما يعود نفعه على الجماعة .  
 ولم يصحب منه شيئا إلى آخرته التى هى موضع حاجته وقره كما قال : « وَقَدَّ  
 جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ » .

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ  
 نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦)  
 وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ  
 مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ  
 يَرْضَى (٢١) .

### شرح المفردات

تلظى : أصله تتلظى ، أى تموقد وتتهب ، يقال : تلظت النار تلظيا بمعنى  
 التهببت التهاها ومنه سميت النار لظى ، يصلهاها : أى يحترق بها ، كذب : أى كذب  
 (١٢)

الرسول فيما جاء به عن ربه ، وتولى : أى أعرض عن طاعة ربه ، وسيجنّبها : أى يبعد عنها ويصير منها على جانب ، والأتقى : المبالغ في اتقاء الكفر والمعاصي ، الشديد التحرز منهما ، يتزكى : أى يتطهر ، تُجرى : أى تجازى وتكافأ ، ابتغاء وجه ربه : أى طلب مثوبته .

### المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن سعى الخلائق مختلف في نفسه وعاقبته ، وأرشد إلى أن المحسن في عمله يوفقه الله إلى أعمال البر ، وأن المسيء فيه يسهل له الخذلان — أردفه أنه قد أعذر إلى عباده بتقديم البيان الذى تنكشف معه أعمال الخير والشر جميعا ، ووضع السبيل أمام كل سالك ، فإن شاء سلك سبيل الخير فسلم وسعد ، وإن أراد ذهب في طريق الشر فتردى في الهاوية .

روى أن الآيات نزلت في أبى بكر رضى الله عنه . وقد كان من أمره أن بلال ابن رباح عليه الرضوان ، وكان مولى لعبد الله بن جدعان — جاء إلى الأصنام وسمح عليها ، فشكا كفار مكة إلى مولاه فوهبه لهم ، ووهب لهم مائة من الإبل ينحرونها لأهلهم فحملوا يعذبونه ويخرجونه إلى الرمضاء ، وكان يقول وهم يعذبونه : أَحَدٌ أَحَدٌ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر به وهو يعذب فيقول له : ينحكك أحد أحد ، ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر رضى الله عنه بما يلقى بلال في الله ، فحمل أبو بكر رطلا من ذهب وابتاعه من المشركين وأعتقه ، فقال المشركون : ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده ، فبزل قوله : « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى » الآيات .

### الإيضاح

(إن علينا للهدى) أى إنا خلقنا الإنسان وألهمناه التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، ثم بعثنا له الكملة من أفرادِهِ ، وهم الأنبياء وشرعنا لهم الأحكام ،

و بينا لهم العقائد تعلميا وإرشادا ، ثم هو بعد ذلك يختار أحد السبيلين : سبيل الخير والقلاح ، والسبيل المنعوج فيتردى في الهاوية .

وقصارى ذلك — إن الإنسان خلق نوعا ممتازا عن سائر الحيوان بما أوتيته من العقل ، وبما وضع له من الشرائع التي تهديه إلى سبيل الرشاد .

ثم زاد الأمر توكيدا فأبان عظيم قدرته فقال :

( وإن لنا الآخرة والأولى ) أى وإنا لنحن المالكون لكل ما فى الدنيا وكل ما فى الآخرة ، فهب ما شاء لمن تريد ، ولا يضيرنا أن يترك بعض عبادنا الاهتداء بهدينا الذى بيناه لهم ، ولا يزيد فى ملكنا اهتداء من اهتدى منهم ، لأن نفع ذلك وضره عائد إليهم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما بضل عليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

وإذا كان ملك الحياتين لله كان هديه هو الذى يجب اتباعه فيهما ، لأن المالك لأمر عالم بوجوه التصرف فيه .

ثم بين سبيل الهداية الذى أوجبه على نفسه فقال :

( فأندرتكم نارا نلظى . لا يصلاحها إلا الأشتى . الذى كذب وتولى ) أى لرحمتنا بكم وعلمنا الكامل بمصالحكم أسدينا إليكم الهدى ، فأندرتنا كم نارا تلتهب يعذب فيها من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه من الآيات ، وأعرض عن اتباع شرائعه ، وانصرف عن وجهة الحق ولم يعد إليها تائباً نادماً .

( وسيجنبها الأتقى ) أى وسيبعد عنها المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصى ، الشديد التحرز منهما بحيث لا يخطرهما له ببال .

ثم وصف الأتقى بأفضل مزاياه فقال :

( الذى يؤتى ماله يتزكى ) أى إن الأتقى هو الذى ينفق أمواله فى وجوه البر ، طالبا بذلك طهارة نفسه وقر بها من ربه . لا مريدا بذلك رياء ولا سمعة ولا طالبا مديح الناس له ، فإن ذلك ضرب من النفاق الذى يبطل معه العمل ، ولا يكون

لصاحبه عليه ثواب مهما أتعب نفسه وأجهدها ، فأنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه .

وقد أكد هذا بقوله :

( وما لأحد عنده من نعمة تجزى ) أى إنه لا يقصد بإفناقه المال مكافأة أحد على نعمة كان قد أسلفها ، ولا جزاء معروف كان قد تقدم به إليه .

ثم أكد مرّة ثانية فقال :

( إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ) أى لكنه يفعل ذلك قاصدا رضا ربه طالبا مشوبته وحده ، تقول : فعلت كذا أبتغى وجه فلان ، أى لم يحملنى على الفعل إلا إجلاله وقصد مرضاته ، وخيفة الوقوع فيما يفضبه .

ثم وعد ذلك الأتقى بالرضا عنه فقال :

( ولسوف يرضى ) أى ولسوف يرضيه ربه فى الآخرة بشوابه وعظيم جزائه .  
وفى قوله : ( ولسوف ) إيماء إلى أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير ، ولا يكفى التقليل من المال ، لأن يبلغ العبد منزلة الرضا الإلهى .  
وقصارى ماسلف : إن الناس أصناف :

(١) الأبرار الذين منحهم الله من قوة العقل وصفاء اليقين ما يجعلهم يعتمدون عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

(٢) الذين يلون هؤلاء ، وهم من تغلبهم الشهوة أحيانا فيقعون فى الذنب ، ثم يثوب إليهم رشدهم فيتوبون ويندمون ، وهذان القسمان يدخلان فى ( الأتقى ) .

(٣) من يخلط بين الخير والشر فيمتدّد وحدانية الله ويقترف بعض السيئات ، ويصرّ عليها ولا يتوب منها ، فهذا الإصرار منه دليل على أنه غير مصدّق حق التصديق بما جاء فيها من الوعيد .

يرشد إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « لا يترنى الزانى حين يترنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » والمراد أن صورة الوعيد تذهب عن

ذهن الخائف وتوجد عنده ضروب أخرى من الصور تقاوم أثر هذه في النفس وتقلب عليها .

(٤) الكافرون الجاحدون بالله وبرسله وبما أنزل عليهم ، وهذان القسمان يشملهما (الأشقي) وقد أعدت النار لكل منهما ، إلا أن الفاسقين لا يدخلون فيها ، ويدخلها الكافرون وهم فيها خالدون .

اللهم أبعدنا عن هذه النار التي تتلظى ، وأدخلنا فسيح جناتك .

### مقاصد هذه السورة

(١) بيان أن الناس في الدنيا فريقان :

(١) فريق يهيمه الله للخصلة اليسرى ، وهم الذين أعطوا الأموال لمن يستحقها ، وصدقوا بما وعد الله من الإخلاف على من أنفقوا .

(٢) فريق يهيمه الله للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة ، وهم الذين بخلوا بالأموال واستغنوا بالشهوات ، وأنكروا ما وعد الله به من ثواب الجنة .

(ب) الجزاء في الآخرة لكل منهما وجعله إما جنة ونعما ، وإما ناراً وعذاباً أليماً .

## سورة الضحى

هى مكية ، وآياتها إحدى عشرة ، نزلت بعد سورة الفجر .  
ومناسبتها لما قبلها - أنه ذكر فى السابقة « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى » ولما كان سيد  
الأنبياء رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب ذلك سبحانه بذكر نعمه عز وجل عليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)  
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُمْطِئُكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) .

## شرح المفردات

الضحى : صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى أشعتها على هذا الكون ،  
وسجى : أى سكن ؛ والمراد سكن الأحياء فيه وانقطعوا عن الحركة ، ما ودعك  
ربك : أى ما تركك ، وما قلى : أى وما قلاك وما أبغضك ، والقلى : شدة  
الكراه والبغض .

## المعنى الجملى

أجمع الرواة على أن سبب نزول هذه السورة حدوث فترة فى نزول الوحي على  
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه حزن لذلك حزناً شديداً حتى غدا مراراً إلى الجبال  
ليتردى من شواهدتها ، وأنه ما كان يمنعهُ إلا تمثل الملك له وإخباره إياه أنه  
رسول الله حقاً .

ولمّا حزن لهذه الفترة خيفة أن يكون ذلك من غضب أوقلى من ربه له ،  
بعد أن ذاق حلاوة الاتصال به ، وشاهد من جمال الأنس بأوحي ما يثير لواعج

شوقه إلى التزوّد منه ، وقد كان يعلم أنه بشر ، لا فضل له على غيره إلا بهذا القرب الذى يعلو به على من عداه ، وقد كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على تكميل نفسه وإعدادها لتحمل ما هي بسبيله من أعباء الرسالة .

لاجرم يكون حزنه لهذه الفترة شديدا ، وأن يتوجس منه خيفة ، ولا عجب أن يدعوّه ذلك إلى التفكير فيما كان يفكر فيه ، وأن يهيمّ بتنفيذه .

ومن ثمّ نزلت هذه السورة حاملة له أجمل البشرى ، ملقبة في نفسه الطمأنينة ، معدّدة ما أنعم الله به عليه ، وكأنه تعالى يقول لرسوله : إن من أنعم عليك بكذا وكذا لم يكن ليتركك ولا ينسك بعد أن هيأك لحل أماته ، وأعدك الاضطلاع بأعباء رسالته ، فلا تحزن على ما كان من فترة الوحي عنك ، ولا يكن في صدرك حرج منها ، فما ذلك إلا لتثبيت قلبك ، وتقوية نفسك على احتمال مشاقّها .

## الإيضاح

(والضحى . والليل إذا سجى . ما ودّعك ربك وما قلى) أقسم سبحانه لرسوله بأيتين عظيمتين من آياته في الكون ضحى النهار وصدرة ، والليل وظلامه — إنه ماتركك وما أبغضك كما يقال لك وما تتوهم في نفسك .

ثم ذكر له ما يثلج صدره ، وما فيه كمال الطمأنينة والبشرى فقال :  
(وللآخرة خير لك من الأولى) أى وإن أحوالك في مستأنف حياتك خير لك مما مضى منها ، وأن كل يوم ستزداد عزّا إلى عزّ ، وسيرتفع شأنك كل يوم عما قبله ، وسأمنحك كل آن جلالا فوق جلالك ، ورفعة فوق رفعتك ؛ وكأنه يقول له لا تظنّ أنى كرهتك أو تركتك ، بل أنت عندى اليوم أشدّ تمكينا وأقرب اتصالا .  
ولقد صدق الله وعده ؛ فما زال يسمو بنبيه ، ويرفع درجته يوما بعد يوم حتى بلغ الغاية التي لم يبلغها أحد قبله ، فجعله رسول الرحمة والهداية والنور إلى جميع خلقه ،

وجعل محبته من محبة الله ، واتباعه والافتداء به سبباً للفوز العظيم بنعيمه ، وجعله وأمه شهداء على الناس جميعاً ، وأشر دينه ، وبلغ دعوته إلى أطراف المعمورة ؛ فأى فضل فوق ذلك الفضل ؟ وأى نعمة أضفى من هذه النعمة ؟ وأى إكرام فوق هذا الإكرام ؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ثم زاده في البشرى فقال :

(ولسوف يعطيك ربك فترضى) أى ولسوف يظهر ربك عليك نعمه ، ويوالى عليك مننه ، ومنها توارد الوحي عليك بما فيه إرشادك وإرشاد قومك إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وسيظهر دينك على الأديان كلها ، وتعلمو كلمتك ويرتفع شأنك على شئون الناس جميعاً .

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ  
عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠)  
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) .

### شرح المفردات

ضالاً فهدى : أى غافلاً عن الشرائع فهداك إلى مناهجها ، عائلاً : أى فقيراً ،  
فلا تقهر : أى فلا تستذل ، فلا تنهر : أى فلا تزجر ، فحدّث : أى فأد الشكر لموليا .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر رضاه عن رسوله ، ووعدده له أن يمنحه من المراتب والدرجات ما يرضيه ، ويثلج قلبه — أردف ذلك بيان أن هذا ليس عجباً منه جل شأنه ، فقد أنعم عليه بالنعم الجليلة قبل أن يصير رسولاً ؛ فكيف يتركه بعد أن أعده لرسالته ،

ثم نهاه عن أمرين : قهر اليتيم وزجر السائل ، لما لها من أكبر الأثر في التعاطف والتعاون في المجتمع ، ولما فيهما من الشفقة بالضعفاء وذوى الحاجة ، ثم أمره بشكره على نعمه المتظاهرة عليه باستعمال كل منها في موضعها وأداء حقها .

## الإيضاح

( ألم يجدك يتيماً فآوى ) أى ألم تكن يتيماً لأب لك يعنى بتربيتك ، ويقوم بشئونك ، ويهتم بتثقتك ؛ فما زال يحميك ويتعهدك برعايته ، ويحبك أدناس الجاهلية وأوضارها حتى رقيت إلى ذروة الكمال الإنسانى .

وقد عاش النبي صلى الله عليه وسلم يتيماً ، إذ توفي أبوه وهو فى بطن أمه ، فلما ولد عطف الله عليه قلب جده عبد المطلب ، فما زال يكفله خير كفالة حتى توفي والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ فى سن الثامنة ، فكفله عمه أبو طالب بوصية من عبد المطلب ، فكان به حفيماً ، شديد العناية بأمره ، وما زال يتعهد به حتى كبر وترعرع . حتى أرسله الله رسولا ، فقام يؤازره وينصره ، ويدفع عنه أذى قريش حتى مات ، فاستطاعت قريش أن تنال منه ، وتجراً عليه سفهائهم ، وسلطوا عليه علمانهم ، حتى اضطروه إلى الهجرة .

ولو تدبر المنصف فى رعاية الله له ، وحياطته بحفظه وحسن تثقيته ، لوجد من ذلك العجب ، فلقد كان اليتيم وحده مدعاة إلى المضيعة وفساد الخلق ، لقلته من يخفل باليتيم ويحرص عليه ، وكان فى خلق أهل مكة وعاداتهم ما فيه الكفاية فى إضلاله لو أنه سار سيرتهم ، لكن عناية الله كانت ترعاه ، وتمنعه السير على نهجهم ، فكان النوفى الذى لا يمين ، والأمين الذى لا يخون ، والصادق الذى لا يكذب ، والظاهر الذى لم يدنس برجس الجاهلية .

( ووجدك ضالاً فهدى ) أى ووجدك حائراً مضطرباً فى أمرك ، مع اعتقادك أن قومك ليسوا على بصيرة من أمرهم ؛ فعبادتهم باطلة ، ومعتقداتهم فاسدة ، وكان

يفكر في دين اليهودية ، ثم يرى اليهود أنفسهم ليسوا على حال خير من حال قومه ، إذ بدلوا دينهم ، وخالفوا ما كان عليه زسولهم ، فيبدؤ عليه الإعراض عنه ، ثم يفكر في دين عيسى عليه الصلاة والسلام ، فيرى النصارى على حال شر من حال اليهود ، فيرجع عن التفكير فيه ، وهو أحمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يعرف ما حوته تلك الأديان من الأحكام والشرائع .

وأعظم أنواع خيبرته ما كان يراه في العرب أنفسهم من سخف في العقائد ، وضعف في البصائر ، باستيلاء الأوهام عليهم وفساد أعمالهم ، وشؤمها في أحوالهم ، بتفوق الكلمة ، وتفانيهم في سفك الدماء ، والإشراف على الهلاك باستبعاد الغرباء لهم ، وتحكمهم فيهم ؛ فالحبشة والفرس من جانب ، والرومان من جانب آخر .

فما العمل في تقويم عقائدهم ، وتخليصهم من تحكم العادات فيهم ؟ وأي الطرق ينبغي أن يسلك في إيقاظهم من سباتهم ؟

وقصارى ذلك ، إنه كان في قرارة نفسه يعتقد أن قومه قد ضلوا سواء السبيل ، وبدلوا دين أبيهم إبراهيم ، وكانت حال أهل الأديان الأخرى ليست خيراً من حالهم . سكن الإله الحكيم لم يتركه ونفسه ، بل أنزل عليه الوحي يبين له أوضح السبل كما قال : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » .

( ووجدك عائلاً فأغنى ) أى إنك كنت فقيراً لم يترك لك والدك من الميراث إلا ناقه وجارية ، فأغناك بما أجراه لك من الرمح في التجارة ، وبما وهبته لك خديجة من مالها .

وخلاصة ما تقدم — إن من آواك في يتمك ، وهداك من ضلالك ، وأغناك من فقرك ، لا يتركك في مستقبل أمرك .

و بعد أن بين نعمه السابقة طالبه بشكر هذه النعم وأداء حقها فقال :

(فأما اليتيم فلا تقهر) أى لا تقهر اليتيم ولا تستذله ، بل ارفع نفسه بالأدب ،  
وهذب به بمكارم الأخلاق ، ليكون عضوا نافعا فى جماعتك ، لا جُرثومة فساد يتعدى  
أذاها إلى كل من يتخالطها من أمتك .

ومن ذاق مرارة الضيق فى نفسه ، فما أجدره أن يستشعرها فى غيره ، وقد كان  
صلى الله عليه وسلم يقيم ، فباعد الله عنه ذل اليتيم فأواه ، فمن أولى منه بأن يكرم كل  
يتيم شكرا لله على نعمته .

(وأما السائل فلا تنهر) أى وأما المستجدى فلا تزجره ، ولكن تفضل عليه  
بشيء أو رده ردًّا جميلا ، وقد يكون المراد من (السائل) المسترشد ، وهو أيضا  
يطلب الرفق به وبيان ما أشكل عليه من الأمر .

(وأما بنعمة ربك فحدث) أى أوسع فى البذل على الفقراء بمالك ، وأنض من  
نعمه الأخرى على طالبها ، ويس المراد مجرد ذكر الثروة والإفاضة فى حديثها ، فإن  
ذلك ليس من أكرم الأخلاق فى شيء .

وقد جرت عادة البخلاء أن يكتبوا ما لهم ، لتقوم لهم الحجة فى قبض أيديهم  
عن البذل ، ولا تجدهم إلا شاكين من القل ؛ أما الكرماء فلا يزالون يظهرون  
بالبذل مما آتاهم الله من فضله ، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه .

وقد استفاضت الأحاديث بأنه صلى الله عليه وسلم كان كثير الإنفاق على  
الفقراء ، عظيم الرأفة بهم ، واسع الإحسان إليهم ، وكان يتصدق بكل ما يدخل  
فى ملكه ويبيت طاريا .

اللهم صل على محمد عبدك ، ورسولك الذى أرحمت إليه وأرضيته ، وشرحت  
صدره ، واجعلنا من الذين يقفون آثاره ، ويتبعون سنته .

## مقاصد السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على أربعة مقاصد :

- (١) أن الله ماقلا رسوله ولا تركه .
- (٢) واعد رسوله بأنه سيكون في مستأنف أمره خيرا من ماضيه .
- (٣) تذكيره بنعمه عليه فيما مضى وأنه سيواليها عليه .
- (٤) طلب الشكر منه على هذه النعم .

## سورة الشرح

هي مكية ، وآيها ثمان ، نزلت بعد سورة الضحى .

وهي شديدة الاتصال بما قبلها حتى روى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان : هما سورة واحدة ، وكانا يقرأنهما في الركعة الواحدة ، وما كانا يفصلان بينهما بالبسطة ، ولكن المتواتر كونهما سورتين وإن كانتا متصلتين معنى ، إذ في كل منهما تعداد النعم وطلب الشكر عليها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ

ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) .

## شرح المفردات

الشرح : البسط والتوسعة ، والعرب تطلق عظم الصدر وتريد به القوة وعظيم المنة ، والمسرة وانبساط النفس ، ويفخرون بذلك في مدائحهم ، من قبل أن سعة

الصدر تعطى الأحشاء فسحة للنمو والراحة ، وإذا تم ذلك للمرء كان ذهنه حاضرا لا يضيق ذرعا بأمر ، والوزر : الحمل الثقيل ، وأنقض : أى أثقل ، والظهر إذا أثقله الحمل سمع له تقيض ، أى صوت خفى .

## الإيضاح

( ألم نشرح لك صدرك ) أى إنا شرحنا لك صدرك ، فأخرجناك من الحيرة التى كنت تضيق بها ذرعا ، بما كنت تلاقى من عناد قومك واستكبارهم عن اتباع الحق ، وكنت تتلمس الطريق لهدايتهم ، فهديت إلى الوسيلة التى تنقذهم بها من الشهلكة ، وتجنبهم الردى الذى كانوا مشرفين عليه .

وقصارى ذلك — إنا أذهبنا عن نفسك جميع الهموم حتى لا تتقلق ولا تضجر ، وجعلناك راضى النفس ، مطمئن الخاطر ، واثقا من تأييد الله ونصره ، عالما كل العلم أن الذى أرسلك لا يخذلك ، ولا يمين عليك عدوا .

( ووضعتنا عندك وزرك . الذى أنقض ظهرك ) أى حططنا عندك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة حتى تبلغها ، فجعلنا التبليغ عليك سهلا ، ونفسك به مطمئنة راضية ، ولو قوبلت بالإساءة من أرسلت إليهم ، كما يرضى الرجل بالعمل لأبنائه ويهتم بهم ، فالعبء مهما ثقل عليه يخففه ما يجيش بقلبه من العطف عليهم ، والحدب على راحتهم ، ويتحمل الشدائد وهو راض بما يقامى فى سبيل حياضهم وتشتتهم .

( ورفعتنا لك ذكرك ) أى وجعلناك على الشأن . رفيع المنزلة ، عظيم القدر ، وأى منزلة أرفع من النبوة التى منحكها الله ؟ وأى ذكر أنبه من أن يكون لك فى كل طرف من أطراف المعمورة أتباع يمثلون أوامرك ، ويحتنبون نواهيك ، ويرون طاعتك مَعْنًا ، ومعصيتك مفرًا .

وهل من فخار بعد ذكرك فى كلمة الإيمان مع العلى الرحمن ؟ وأى ذكر أرفع

من ذكر من فرض الله على الناس الإفراز بنبوته ، وجعل الاعتراف برسالاته بعد بلوغ دعوته ، شرطا في دخول جنته .

هذا إلى أنه صلى الله عليه وسلم أتخذ أمما كثيرة من رِقِّ الأوهام ، وفساد الأحلام ، ورجع بهم إلى الفطرة الأولى من حرية العقل والإرادة ، والإصابة في معرفة الحق ، ومعرفة من يقصد بالعبادة ، فاتحدت كلمتهم في الاعتقاد بإله واحد بعد أن كانوا متفرقين طرائق قديدا ، عباد أصنام وأوثان ، وشموس وأقمار ، لا يجيدون إلى الهدى سبيلا ، ولا للوصول إلى الحق طريقا ؛ فأزاح عنهم تلك الغمّة ، وأنار لهم طريق الهدى والرشاد.

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) .

### شرح المقررات

العسر : الفقر والضعف وجهالة الصديق وفوة العدو وإنكار الجليل ، فرغت : أتم من عمل ، فانصب : أتمت .

### المعنى الجملى

بعد أن أبان بعض نعمه على رسوله من شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر بعد استحكام الكرب ، وضيق الأمر — ذكر أن ذلك قد وقع على ما جرت به سنته في خلقه ، من إحداث اليسر بعد العسر ، وأكد هذا بإعادة القضية نفسها مؤكدة لقصد تفريرها في النفوس وتمكينها في القلوب .

### الإيضاح

(فإن مع العسر يسرا) أى فإن مع الضيق فرجا ، ومع قلة الوسائل إلى إدراك المطلوب تخرجها إذا تدرّج المرء بالصبر وتوكل على ربه ، ولقد كان هذا حال النبي

صلى الله عليه وسلم فإنه قد ضاق به الأمر في بادئ أمره قبل النبوة وبعدها إذ تألب عليه قومه ، لكن ذلك لم يُثنيه عن عزمه ، ولم يقل من حده ، بل صبر على مكروههم وأقى بنفسه في غمرات الدعوة متوكلاً على ربه ، محتسباً نفسه عنده ، راضياً بكل ما يجد في هذا السبيل من أذى ، ولم تزل هذه حاله حتى قبض الله له أنصاراً أُشربت قلوبهم حبه ، وملئت نفوسهم بالرغبة الصادقة في الدفاع عنه وعن دينه ، ورأوا أن لآحياة لهم إلا بهدم أركان الشرك الوثنية ، فاشترؤا ما عند الله من جزيل الثواب بأرواحهم وأموالهم وأزواجهم ، ثم كان منهم من قوَّض دعائم الأكَاسرة ، وأباد جيوش الأباطرة والقيصرة .

وقصارى ذلك — إنه مهما اشتد العسر ، وكانت النفس حريصة على الخروج منه ، طالبة كشف شدته ، مستعملةً أجمل وسائل الفكر والنظر في الخلاص منه ، معتصمة بالتوكل على ربه ، فإنها ولا ريب ستخرج ظافرةً مهما أقيم أمامها من عقبات ، واعترضها من بلايا ومحن .

وفي هذا عبرة لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه سيبدل حاله من الفقر إلى الغنى ، ومن قلة الأعداء إلى كثرة الإخوان ، ومن عداوة قومه إلى محبتهم ، إلى أشباه ذلك . ثم أعاد الأسلوب للتوكيد فقال :

(إن مع العسر يسراً) إذا احتملت ذلك العزيمة الصادقة ، وعملت بكل ما أوتيت من قوة على التخلص منه ، وقابلت ما يقع من عسر بالصبر والأخذ بأسباب تفرجه ولم تستبطن الفرج ، فيدعوها ذلك إلى التواني وفتور العزيمة .

وبعد أن بين نعمه على رسوله ووعدته بتفريج كربته — طلب منه أن يقوم بشكر هذه النعم بالانتطاع لصالح العمل والانتكال عليه دون من عداه فقال :

(فإذا فرغت فانصب) أى فإذا فرغت من عمل فاتعب في مزاولة عمل آخر . فإنك ستجد في المثابرة لذة تفرُّ بها عينك ويشج لها صدرك .

وفي هذا حث له عليه الصلاة والسلام على المواظبة على العمل واستدامته .  
 ( وإلى ربك فارغب ) أى ولا ترغب فى ثواب أعمالك وتشيرها ، إلا إلى ربك  
 وحده ، فإنه هو الحقيق بالتوجه إليه والضراعة له ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته  
 وسلامه على سيد المرسلين .

### مقاصد السورة

- تشتمل هذه السورة الكريمة على أربعة مقاصد :
- (١) تعداد ما أنعم به على رسوله من النعم .
  - (٢) وعده له بإزالة ما نزل به من الشدائد والمحن .
  - (٣) أمره بالمداومة على الأعمال الصالحة .
  - (٤) التوكل عليه وحده ، والرغبة فيما عنده .

## سورة التين

هي مكية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة البروج .  
ومناسبتها لما قبلها - أنه ذكر في السورة السابقة حال أكمل خلق الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر هنا حال النوع الإنساني وما ينتهي إليه أمره ، وما أعد سبحانه لمن آمن برسوله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والتين والزيتون (١) وطور سينين (٢) وهذا البلد الأمين (٣)  
لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤) ثم رددناه أسفل سافلين (٥)  
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون (٦) فما يكذبك  
بعد بالدين (٧) أليس الله بأحكم الحاكمين (٨) .

## شرح المفردات

المراد بالتين كما قال الأستاذ الإمام هنا : عهد الإنسان الأول الذي كان يستظل فيه بورق التين حينما كان يسكن الجنة ؛ والمراد بالزيتون : عهد نوح عليه السلام وذريته حينما أرسل الطائر فحمل إليه ورقة من شجر الزيتون ، فاستبشر وعلم أن الطوفان انحسر عن الأرض ، وطور سينين : الجبل الذي كلم الله تعالى موسى عنده ، والبلد الأمين : مكة التي كرمها الله بالكعبة ، والتقويم : جمل الشيء على ما ينبغي أن يكون عليه في التأليف والتعديل ؛ يقال قومه تقويماً ، واستقام الشيء وتقويمه : إذا جاء وفق التقويم ، وممنون : أي مقطوع ، والدين : الجزء بعد البعث .

## الإيضاح

(والتين) أى قسما بعصر آدم أبى البشر الأول ، وهو المهد الذى طفق فيه آدم وزوجه يَخْصِفَانِ عليهما من ورق الجنة .

(والزيتون) أى وقسما بعصر الزيتون عصر نوح عليه السلام وذريته حينما أهلك الله من أهلك بالطوفان ، ونجّى نوحا فى سفينته ، وبمد لأى ما جاءته بعض الطيور حاملة ورقة من هذا الشجر فاستبشر ، وعلم أن غضب الله قد سكت وأذن للأرض أن تتبلع ماءها لتعمر ويسكنها الناس ، ثم أرسى السفينة ونزل هو وأولاده وعَمَّرُوا الأَرْضَ .

وقصارى ذلك — إن التين والزيتون يذكّران بهذين العصرين عصر آدم أبى البشر الأول ، وعصر نوح أبى البشر الثانى .

(وطور سينين) وهو تذكير بما كان عند ذلك الجبل من الآيات الباهرات التى ظهرت لموسى وقومه ، وما كان بعد ذلك من إنزال التوراة عليه ، وظهور نور التوحيد بعد أن تدنست جوانب الأرض بالوثنية ، وما زال الأنبياء بعده يدعون أقوامهم إلى التمسك بهذه الشريعة ، ثم عرضت لها البدع ، فجاء عيسى مخلصاً لها مما أصابها ، ثم أصاب قومه ما أصاب الأمم قبلهم من الاختلاف فى الدين ، حتى من الله على الناس بعهد النور المحمدى ، وإليه الإشارة بقوله :

(وهذا البلد الأمين) الذى شرفه الله بميلاد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وكرّمه بالبيت الحرام .

وخلاصة ما سلف — إن الله أقسم بهذه العهود الأربعة التى كان لها أثر بارز فى تاريخ البشر ، وفيها أنقذ الناس من الظلمات إلى النور .

ثم ذكر مخلوف عليه فقال :

( لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ) أى لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة ، فجعلناه مديد القامة ، حسن البرّة ، يتناول ما يريد بيده لا كسائر الحيوان يتناول ما يريد بفيه ؛ إلى أنه خصه بالعقل والتمييز والاستعداد لقبول العلوم والمعارف ، واستنباط الحيل التى بها يستطيع أن يكون له السلطان على جميع الكائنات ، وله من الحول والطول ما يمتد إلى كل شىء .

لكن قد غفل عما ميّز به ، وظنّ نفسه كسائر المخلوقات ، وراح يعمل ما لا يبيحه له العقل ، ولا ترضى عنه الفطرة ، وانطلق يتزوّد من متاع الدنيا والاستمتاع بشهواتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأعرض عن النظر فيما ينفعه في معاده ، وما يرضى به ربه ، وما يوصله إلى النعيم المقيم ، « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

وهذا ما أشار إليه بقوله :

( ثم رددناه أسفل سافلين ) أى إنه استشرى فيه الفساد ، وأمعن في سبيل الضلالة ، ونسى فطرته وعاد إلى حيوانيته ، وتردّى في هاوية الشرور والآثام إلا من عصمه الله فظلوا على فطرتهم التى فطرهم عليها ، وهم من عتاهم سبحانه بقوله :

( إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ) أى إلا الذين أشربت قلوبهم عقيدة الإيمان ، وعرفوا أن لهذا الكون موقدا دبر أمره ، ووضع خلقه شرائع يسرون على نهجها ، وأيقنوا أن للشر جزاء وللخير مثله .

وهؤلاء سيهطون أجر صالح أعمالهم إذا انتقلوا إلى الحياة الثانية ، وهم أتباع الأنبياء ومن هداهم الله إلى الحق من كل أمة .

ثم ونح المشرّكين على التكذيب بالجزء بعد ظهور الدليل عليه فقال :

( فما يكذبك بعد بالدين ؟ ) أى فأى سبب يملك أيها الإنسان على التكذيب

بالجزاء على أعمالك بعد أن تظاهرت لديك الأدلة على ذلك ، فإن الذى خلقك من  
نطفة ثم سيرك بشراً سوياً - قادر على أن يبعثك ويحاسبك فى نشأة أخرى ،  
ومن شاهد ذلك وتدبره وأعمل فيه فكره ثم بقى على عناده ، فقد طُمس على بصيرته  
وضل سواء السبيل .

ثم زاد ماسلف توكيذا فقال :

( أليس الله بأحكم الحاكمين ) صنعاً وتديراً ، ومن ثم وضع الجزاء لهذا النوع  
الإنسانى ، ليحفظ له منزلته من الكرامة التى أعدها له بأصل فطرته ، ثم انحدر  
منها إلى المنازل السفلى بحمله وسوء تدييره ، ولهذا أرسل له الرسل مبشرين  
ومنذرين ، وأنزل معهم الشرائع ليبينوها له ويدعوه إليها رحمة به .

سبحانك ، ما أعذك وأحكمك ، وأنت اللطيف الخبير ، وإليك

المرجع والمصير .

## سورة العلق

هي مكية ، وآياتها تسع عشرة ، وهي أول ما نزل من القرآن .  
ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر هناك خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وذكر  
هنا خلق الإنسان من علق ، إلى أنه ذكر هنا من أحوال الآخرة ما هو كالشرح  
والبيان لما سلف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ  
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) .

## تَقْدِيمَةٌ تَارِيخِيَّةٌ

جاء في صحيح الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي غار حراء  
(حراء جبل بمكة) يتعمد فيه الليالي ذوات العدد، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها،  
حتى يجاء الوحي وهو في الغار إذ جاءه الملك فقال له : اقرأ ، قال ما أنا بقارىء ، قال :  
فأخذه نازية فغطه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله فقال : اقرأ ، قال ما أنا بقارىء . قال  
فأخذه ثالثة فغطه حتى بلغ منه الجهد فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق  
الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم .

قال الرواة : فرجع ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : زملوني زملوني ،  
فزملوه حتى ذهب عنه الروع ؛ فأخبر خديجة الخبر ، ثم قال : قد خشيت على نفسي ،  
فقات له : كلاً ، أبشر ، فوالله لا يخرزك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق  
الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ثم انطلقت به خديجة حتى أنت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى  
 (ابن عم خديجة) وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ،  
 وكتب بالعبرانية من الإنجيل ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ،  
 فقالت خديجة : أئى ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة : ابن أخى ماترى ؟  
 فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذى أنزل  
 على عيسى ، ليقضى فيها جذعا ، لياتى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم : أوخرجى هم ؟ فقال ورقة : نعم ، لم يأت أحد قط بتمس  
 ماجت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزرا ، ثم لم ينشأ أن  
 تؤنى ، رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم .

ومن ذلك تعلم أن صدر هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن الكريم ،  
 وأول رحمة رحم الله بها عباده ، وأول خطاب ووجه إلى رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم .

أما بقية السورة فهو متأخر النزول ، نزل بعد شيوخ بعثته صلى الله عليه وسلم  
 وبعد أن دعا قريشا إلى الإيمان به ، وآمن به قوم منهم ، وكان جمهورهم يتحرشون  
 بمن آمن به ويؤذونهم ، ويحاولون ردهم عن تصديقه ، والإيمان بما جاء به  
 من عند ربه .

## الإيضاح

(اقرأ باسم ربك الذى خلق) أى صر قارئا بقدره الله الذى خلقك وإرادته  
 بعد أن لم تكن كذلك ، فانه صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئا ولا كاتباً ،  
 وقد جاءه الأمر الإلهى بأن يكون قارئا وإن لم يكن كاتباً ، وسُمي نزل عليه كتاباً  
 يقرؤه وإن كان لا يكتبه .

وقصارى ذلك — إن الذى خلق الكائنات وأوجدها ، قادر أن يوجد فيك القراءة ، وإن لم يسبق لك تعلمها .  
ثم بين كيفية الخلق فقال :

( خلق الإنسان من علق ) العلق : الدم الجامد ، أى إن الذى خلق الإنسان وهو أشرف المخلوقات كلها من العلق ، وآتاه القدرة على التسلط على كل شئ مما فى هذا العالم الأرضى ، وجعله يسوده بعلمه ، ويسخره لخدمته ، قادر أن يجعل من الإنسان الكامل كالنبي صلى الله عليه وسلم قارئاً وإن لم يسبق له تعلم القراءة .  
والخلاصة — إن من كان قادراً على أن يخلق من الدم الجامد إنساناً حياً ناطقاً يسود المخلوقات الأرضية جميعها ، قادر أن يجعل محمداً صلى الله عليه وسلم قارئاً وإن لم يتعلم القراءة والكتابة .

( اقرأ ) أى افعل ما أمرت به من القراءة .

وكرر الأمر لأن القراءة لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعود على ما جرت به العادة ؛ وتكرار الأمر الإلهى يقوم مقام تكرار المقروء ، وبذلك تصير القراءة ملكة للنبي صلى الله عليه وسلم ، تدبر قوله تعالى : « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى » .  
ثم أزاح العذر الذى بينه صلى الله عليه وسلم لجبريل حين قال له اقرأ فقال ما أنا بقارى ، أى إني أعمى لا أقرأ ولا أكتب فقال :

( وربك الأكرم ) أى وربك أكرم لكل من يرتجى منه الإعطاء ، فبسير عليه أن يفيض عليك نعمة القراءة من بحار كرمه .

ثم أراد أن يزيدنا بهذه الموهبة الجديدة فقال :

( الذى علم بالقلم ) أى الذى جعل القلم واسطة التفاهم بين الناس على بُعد الشقة ، كما أفهمهم بوساطة اللسان ؛ والقلم آلة جامدة لآلية الحياة فيها وليس من شأنها الإفهام ، فمن جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان . أفيصعب عليه أن يجعل منك قارئاً مبيّناً ، وتالياً معلماً ، وأنت إنسان كامل ؟

وقد وصف سبحانه نفسه بأنه خلق الإنسان من علق ، وأنه علمه بالقلم ، ليبين أحوال هذا الإنسان ، وأنه خلق من أحقر الأشياء ، وبلغ في كماله الإنساني أن صار عالماً بمقتائق الأشياء ، فكأنه قيل : تدبر أيها الإنسان تجد أنك قد انتقلت من أدنى المراتب وأخسها ، إلى أعلى الدرجات وأرفعها ، ولا بد لذلك من مدبر قادر حكيم أحسن كل شئ خلقه .

ثم زاد الأمر بيانا بتمام نعمه فقال :

( علم الإنسان ما لم يعلم ) أى إن من صدر أمره بأن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم قارئاً ، هو الذى علم الإنسان جميع ما هو متمتع به من العلم ، ومما تاز به عن غيره من الحيوان ، وكان فى بدء أمره لا يعلم شيئاً ، فهل من عجب أن يعلمك القراءة ، ويعلمك كثيراً من العلوم سواها ، ونفسك مستعدة لقبول ذلك .

وفى الآية دليل على فضل القراءة والكتابة والعلم .

ولعمرك لولا القلم ما حفظت العلوم ، ولا أحصيت الجيوش ، ولضاعت الديانات ، ولا عرف الأواخر معارف الأوائل ، وعلومهم ومخترعاتهم وقنونهم ، ولما سُجِّل تاريخ السابقين : المسيئين منهم والمحسنين ، ولا كان علمهم نبراساً يهتدى به الخلف ، ويبنى عليه ما به ترقى الأمم ، وتتقدم المخترعات .

كما أن فيها دليلاً على أن الله خلق الإنسان الحى الناطق عملاً حياة فيه ولا نطق ، ولا شكل ولا صورة ، وعلمه أفضل العلوم وهى الكتابة ، ووهبه نطقاً ولم يكن يعلم شيئاً ، فما أعجب غفلتك أيها الإنسان !

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ  
الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ  
عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣)

أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا إِنَّ لَمْ يَنْتَهَوْا لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥)  
 نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلَمِيدَعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُو الزَّبَانِيَةَ (١٨)  
 كَلَّا لَا تَطْعَمُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩) .

## شرح المفردات

المراد بالإنسان : أى فرد من هذا النوع ، يطفى : أى يتكبر و يتبرد ، استغنى :  
 أى صار ذا مال وأعوان يعنى بهما ، والرجعى والمرجع والرجوع : المصير والعودة ،  
 أرأيت : أى أخبرنى ؛ والمراد من الاستخبار إنكار الحال المستخبر عنها وتوبيخها على  
 نحو ما جاء فى قوله تعالى : «أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ؟» والسفع : الجذب بشدة ،  
 والناصية : شعر الجبهة ؛ والمراد بذلك القهر والإذلال بأشد أنواع العذاب ، والنادى :  
 المكان الذى يجتمع فيه القوم ، ولا يسمى ناديا حتى يكون فيه أهله قال زهير :  
 وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههم . وأنديَةٌ يفتابها القول والفعل

والزبانية : واحدهم زبانية ( بكسر فسكون ) وزبى ( بالكسر ) ؛ والمراد بهم  
 الملائكة الذين أقامهم الله على تمذيب العصاة من خلقه .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى مطلع السورة دلائل التوحيد ظاهرة ، ومظاهر القدرة  
 الباهرة ، وعلامات الحكمة ودقة الصنع ؛ وكان ذلك كله بحيث يتعد من العاقل  
 ألا يلتفت إليه ، أتبعه جل شأنه ببيان السبب الحقيقى فى طغيان الإنسان وتكبره  
 وتماديه ، وهو حبه للدنيا ، واشتغاله بها ، وجعلها أكبر همه ، وذلك يعنى قلبه ،  
 ويجعله يغفل عن خالقه ، وما يجب له فى عنقه من إجلال وتعظيم ؛ وقد كان ينبغى  
 أن يكون حين الفنى والميسرة ، وكثرة الأعوان ، واتساع الجاه ، أشد حاجة إلى الله .

منه في حال الفقر والمسكنة ، لأنه في حال فقره لا يتمنى إلا سلامة نفسه وأعضائه ،  
أما في حال الغنى فيتمنى ذلك ويتمنى سلامة ممتلكاته وأتباعه وأمواله .

ألا يعلم أنه راجع إلى ربه فيجزيه على ما يعمل ؟ وقد بلغ من حقه أن يأمر  
وبنهي ، وأنه يوجب على غيره طاعته ، ثم هو بعد ذلك يعرض عن طاعة ربه .

أما ينبغي له أن يهتدى ويشغل بأمر نفسه ؟ فمن كان ذا عقل ورأى وثروة  
وجاهٍ وأعوان ، واختار الهدى ، وتخلق بأخلاق المصلحين ، كان ذلك خيرا له ،  
وأجدى .

وإننا لننكث به نكالا شديدا في العاجلة ، ونهيننه يوم العرض والحساب ،  
وليدع أمثاله من الغرورين ، فإنهم لن يمنعوه ، ولن ينصروه .

ثم ختم السورة بأمره بالتوفير على عبادة ربه فعلا وإبلاغا للناس ، مبتغيا بذلك  
القربى منه .

## الإيضاح

( كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ) أى حقا إن أمر الإنسان لمعجب  
فإنه متى أحسن من نفسه قدرة وثروة خرج من الحد الذى يجب أن يكون عليه ،  
واستكبر عن الخشوع لربه ، وتناول بأذى الناس ، وعدّ نفسه فوقهم جميعا ، وقد  
كان من حقه أن يكون وإياهم أعضاء أسرة واحدة يتعاونون في السراء والضراء .  
ويجب الخير لهم كما يجب لنفسه .

روى البخارى : « المؤمن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . وروى عن علي  
في نصيحته لابنه الحسن : « أحب الخير لغيرك كما تحب لنفسك ، واكره له  
ما تكره لها » .

وقد حكم على الإنسان باعتبار الأعم الأغلب في أفراده ، وإلا فإن الغنى والقوة  
في ألبى الأتقياء من وسائل الخير ، وأفضل أسباب السعادة الدنيوية والأخروية ،

لأنهم يستعملونها فيما يرضى ربهم ، ويعود عليهم بالنفع في دينهم ودنياهم .  
ثم حذر من الطغيان وأندر من عاقبته ، وأبان أن ما يبذل الطاغى عارية ، وليست  
عنه ببقية ، وأن مرجع الأمر كله لله فقال :

(إن إلى ربك الرجعى) أى إن المرجع إلى ربك وحده ، وهو مالك أمرك  
وما تملك ، وسيتبين لك عظيم غرورك حينما تخرج من هذه الحياة ، وتظهر في مظهر  
الذل ، وتحاسب على كل ما اجترحت في حياتك الأولى ، قل أو أكثر ، عظم أو حقير  
كما قال : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَابِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ  
تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، فَأَمْحِي مُمْسِكِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ  
وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَالٍ »

ثم أعقب ما تقدم بالوعيد والتهديد والتعجيب فقال :  
(أرأيت الذى ينهى . عبدا إذا صلى) أى أخبرنى عن حال هذا الأحمق ، فإن  
أمره لعجب ، فقد بلغ به الكبر والتمرد والعماد أن ينهى عبدا من عبيد الله عن  
صلاته ، ويعتقد أنه يجب عليه طاعته . وهو ليس بخالق ولا رازق ، فكيف  
يستطيع ذلك لنفسه ، ويعرض عن طاعة الخالق الرازق .

وفد روى أن عليا كرم الله وجهه رأى قوما يصلون قبل صلاة العيد فقال :  
ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فتيل له : ألا تنهائم ؟ فقال :  
أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى : « أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى . عَبْدًا إِذَا صَلَّى » .

(أرأيت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى) أى أخبرنى عن حال ذلك  
الطاغية لو تخلق بأخلاق المصلحين ، ودعا إلى البر وتقوى الله ، أما كان ذلك خيرا له  
من الكفر به والنهى عن طاعته ، فإن ذلك يفوت عليه أعلى المراتب ، ويجعله  
في أحط الدرجات وأدناها .

والخلاصة — أما كان الأفضل له أن يهتدى ويهتدى غيره إلى خصال البر والخير ، وقد كانت هذه حال النبي صلى الله عليه وسلم ، فعمله كان إما في إصلاح نفسه بالعبادات من صلاة وصيام وغيرها ، وإما في إصلاح غيره بأسره بالتقوى ودعائه إليها .

( أ رأيت إن كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى ) أى أنبئى عن حال هذا الكافر، إن كذب بدلائل التوحيد الظاهرة ، وأمارات القدرة الباهرة ، وأعرض عن دعوتك والاستماع لهديك ، ودعا الناس إلى مثل ذلك أفلا يخشى أن تحل به قارعة ، ويضيه من عذاب الله ما لا يقبل له باحتياله ؟ ألا عقل له يرشده إلى أن خالق هذا الكون مطلع على عمله ، وأنه حكيم لا يهمل عقابه ، وأنه سيؤاخذ به بكل ما اقترف من جرم ؟

ولا يخفى ما في هذا من تهديد وتخويف للعصاة والمذنبين .

ثم زاد في الزجر والوعيد فقال :

( كلا لئن لم ينته لنسفنا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة ) أى لا يستمرن بهذا الكافر جهله وغروره وطمعانه ، قسما لئن لم ينته عن هذا الطغيان ، ويكف عن نهى المدلى عن صلواته لتأخذن بناصرته ولنذيقنه العذاب الأليم .

ألا إن تلك الناصية لكاذبة لغرورها بقوتها ، مع أنها في قبضة خالقها ، فهى تزعم ما لا حقيقة له ، وإنها خاطئة ، لأنها طغت وتجاوزت حدها ، وعتت عن أمر ربها . ونسبة الكذب والخاطئة إلى الناصية ، والكاذبُ والخَطِيءُ صاحبها ، من قبل أنها مصدر الغرور والكبرياء .

وقد أمر هذا الكافر على ضرب من التهمك والتوبيخ بأن يدعو أهل الدفاع من قومه وذوى النجدة والبطش لينقذوه مما سيحل به فقال :

( فليدع ناديه . سندع الزبانية ) أى فليجمع أمثاله ممن ينتدى معهم لينتفع المصلين الخالصين ، ويؤذى أهل الحق الصادقين ، فإنه إن فعل ذلك تعرض لسخط

ربه والتتكيل به ، وسندعو له من جنودنا كل قوى متين لا قبل له بمغالته فيهلكه في الدنيا ، أو يردبه في النار في الآخرة .

والمراد بهم الملائكة الذين أقامهم الله على تعذيب العصاة من خلقه ، وسموا زبانية لأنهم يزبئون الكفار في النار أى يدمونهم ويسوقونهم إليها .

روى أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم حين أغظ له في القول : يا محمد بمن تهديدى ؟ وإبنى لأكبر هذا اليرادى ناديا .

وروى أنه قال : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن عنقه ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لو فعل لأخذته الملائكة .

ثم بانع في زجر الكافر عن صفه وكبريائه ، ونفى قدرته على ما تهدد به فقال :

( كلاً لا تطعه واسجد واقترب ) أى إنه لن يصل إلى زعمه وأن يدعو نادى قومه ، ولئن دعاهم لا ينصرونه ولا ينصرونه ، فإنه أذل وأحقر من أن يقاومك ، فلا تطعه إذا سهاك عن عبادة ربك كما قال : « فَلَا تُطِيعِ الْمُكذِّبِينَ » وتوفر على عبادته بالفعل وإبلاغ الرسالة للناس ، وتقرب بذلك إليه ، ولا تبعد عنه بتركها ، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .

وصل وسلم ربنا على من أمرته بالتقرب إليك ، ونهيته عن طاعة عدوك الصِّف المتكبر .

### مقاصد هذه السورة

تشتمل هذه السورة على المقاصد الآتية :

(١) حكمة الله في خلق الإنسان ، وكيف رقاها من جرثومة صغيرة إلى أن بسط سلطانه على جميع العوالم الأرضية .

(٢) إنه لكرم وعظيم إحسانه علمه من البيان ما لم يعلم ، وأفاض عليه من العلوم ما جعل له القدرة على غيره مما في الأرض .

(٣) بيان أن هذه النعم على توافرها قد غفل عنها الإنسان ، فإذا رأى نفسه غنيا صلف وتجب واستكبر .

## سورة القدر

هي مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة عبس .  
ومناسبتها لما قبلها . أن في تلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقرأ  
القرآن باسم ربه الذى خلق ، واسم الذى علم الإنسان ما لم يعلم ، وفي هذه ذكر القرآن  
ونزوله وبيان فضله ، وأنه من عند ربه ذى العظمة والسلطان ، العليم بمصالح الناس  
وبما يسعدهم فى دينهم ودنياهم ، وأنه أنزله فى ليلة لها من الجلال والكمال ما قصته  
السورة الكريمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ (٢) لَيْلَةُ  
الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ  
رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)

## شرح المفردات

القدر : العظمة والشرف . من قولهم لفلان قدر عند فلان : أى منزلة وشرف ،  
تنزل الملائكة : أى تنزل وتجلى للنفس الطاهرة التى هيأها الله لقبول تجليها ، وهى  
نفس النبي الكريم ، سلام : أى أمن من كل أذى وشر ، مطلع الفجر : أى  
وقت طلوعه .

تَقْدِيمَةٌ تَبِينُ مِيقَاتِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ

أشار الكتاب الكريم إلى زمان نزول القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم  
فى أربعة مواضع من كتابه الكريم ، والقرآن يفسر بعضه بعضا :

- (١) فى سورة القدر: « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .
- (٢) فى سورة الدخان: « حَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .
- (٣) فى سورة البقرة: « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » .
- (٤) فى سورة الأنفال: « وَاعْمَلُوا أَلْمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجُمُعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

فآية القدر صريحة فى أن إنزال القرآن كان فى ليلة القدر ، وآية الدخان تؤكد ذلك وتبين أن النزول كان فى ليلة مباركة ، وآية البقرة ترشد إلى أن نزول القرآن كان فى شهر رمضان ، وآية الأنفال تدل على أن إنزال القرآن على رسوله كان فى ليلة اليوم المماثل ليوم التقاء الجمعين فى غزوة بدر ، التى فرق الله فيها بين الحق والباطل ، ونصر حزب الرحمن على حزب الشيطان ، ومن ذلك يتضح أن هذه الليلة هى ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان .

## الإيضاح

(إننا أنزلناه فى ليلة القدر) أى إننا بدأنا نزل الكتاب الكريم فى ليلة الشرف ، ثم أنزلناه بعد ذلك منجماً فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الحوادث التى كانت تدعو إلى نزول شىء منه ، تبييناً لما أشكل من الفتوى فيها ، أو عبرة

بما يقص فيه من قصص وزواجر ، ولا شك أن البشر كان في حاجة إلى دستور يبين لهم ما التبس عليهم من أمر دينهم وديارهم ، ويوضح لهم أمر النشأة الأولى وأمر النشأة الآخرة ، لأنهم كانوا أعجز من أن يفهموا مصالحتهم الحققة حتى ينسوا لأنفسهم من النظم ما يعقبتهم عن الدين والتدين ، وحوادث الكون التي تراها رأى العين كقيلة بأن تبين وجه الحق في ذلك ، فإن الناس من بدء الخليقة يُبدئون ويعيدون ، ويصححون ويراجعون في قوانينهم الوضعية ، ثم يستبين لهم بعد قليل من الزمن أنها لانكفي لهدى المجتمع والأخذ بيده إلى موضع الرشاد ، وتمنعه من الوقوع في مهاري الزلل ، ومن ثم قيل : لاغنى للبشر عن دين ولا عن وازع روى يضع لهم مقاييس الأشياء وقيمتها بعد أن أبان لهم العلم وصفها وخواصها ، كما لاغنى له عن الاعتقاد في قوة غيبية يلجأ إليها حين يظلم عليه ليل الشك ، وتختلط عليه صروف الحياة وألوان مآسيها اه .

ثم أشار إلى أن فضلها لا يحيط به إلا هو فقال :

( وما أدراك ما ليلة القدر ؟ ) أى ولم تبلغ درايتك وعلمك غاية فضلها ، ومنتهى علو قدرها .

وفي هذا إيماء إلى أن شرفها مما لا يحيط به علم العلماء ، وإنما يعلمه علام الغيوب الذى خلق العوالم وأنشأها من العدم .

ثم أوضح مقدار فضلها فقال :

( ليلة القدر خير من ألف شهر ) لأن ليلة يسطع فيها نور الهدى وتكون فاتحة التشريع الجديد الذى أنزل لخير البشر ، ويكون فيها وضع الحجر الأساسى لهذا الدين الذى هو آخر الأديان الصالح لهم فى كل زمان ومكان ، هى خير من ألف شهر من شهورهم التى كانوا يتخبطون فيها فى ظلام الشرك وضلال الوثنية ، حيارى لاهتدون إلى غاية ، ولا يقفون عند حد .

وقد يكون التحديد بالألف جارياً على ما يستعملونه في مخاطبتهم من إرادة الكثرة منه ، لا إرادة العدد المعين ، كما جاء في قوله : « يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

والله تعالى يفضل ما شاء من زمان ومكان لمعنى من المعانى التى تدعو إلى التفضيل وله الحكمة البالغة .

وأى عظمة أعلى من عظمة ليلة يبتدى فيها نزول هذا النور والهداية للناس بعد أن مضت على قومه صلى الله عليه وسلم حقب متتابعة وهم فى ضلال الوثنية .

وأى شرف أرفع من شرف ليلة سطع فيها بدر المعارف الإلهية على قلب رسوله صلى الله عليه وسلم رحمة بعباده ، يبشرهم وينذرهم ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، ويعمل منهم أمة تحرر الناس من استعباد الفياصرة ، وجبروت الأكاسرة ، ويجمعهم بعد الفرقة ، ويؤيد شعبتهم بعد الشتات .

فحق على المسامحين أن يتخذوا هذه الليلة عيداً لهم ، إذ فيها بدأ نزول ذلك اللدستور السماوى ، الذى وجه للمسلمين تلك الوجهة الصالحة النافعة ، ويجددوا العهد أمام ربهم بحياطته بأنفسهم وأموالهم ، شكراً له على نعمه ، ورجاء مشوبته .

ثم ذكر سبحانه بعض مزايا هذه الليلة المباركة فقال :

(تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) أى تنزلت الملائكة من عالمها لزوحانى حتى تمثلت لبصره صلى الله عليه وسلم . وتمثل له الزوح (جبريل) مبلغاً للروحى ، وهذا التجلى على النفس الكاملة كان بإذن ربهم بعد أن هياها لقبوله ليبلغ عباده ما فيه الخير والبركة لهم .

ونزول الملائكة إلى الأرض شأن من شئونه تعالى ، لا نبحت عن كنهه ، فنحن نؤمن به دون أن نحاول معرفة تفاصيله وأسراره ، فما عرف العالم بعد علمه

المادى بشتى وسائله إلا النذر اليسير من الأكوان كما قال تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

والخلاصة — إن هذه الليلة عيد للمسلمين لنزول القرآن فيها ، ويلة شكر على الإحسان والإنعام بذلك ، تشاركهم فيها الملائكة بما يشعر بعظمتها ، ويشعر بفضل الإنسان وقد استخلفه الله في الأرض .

(سلام هي حتى مطلع الفجر) أى هذه الليلة التي حنفها الخير بنزول القرآن ، وشهود ملائكة الرحمن ، ليلة كلها سلامة وأمن ، وكلها خير وبركة ، من مبدئها إلى نهايتها ؛ ففيها فرّج الله الكرب عن نبيه ، وفتح له سبل الهداية والإرشاد .

وصل وسلم ربنا على محمد الذى أكرمه بإنزال الدستور الشامل لخير البشر إلى يوم القيامة .

## سورة البينة

هى مدنية . وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة الطلاق .  
 ووجه مناسبتها لما قبلها — أن قوله : « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ » كالعلة  
 للإنزال القرآن ، كأنه قيل : إنا أنزلناه ؛ لأنه لم يكن الذين كفروا منكم عن كفرهم  
 حتى يأتيهم رسول يتلو صحفا مطهرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ  
 حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ  
 قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ  
 الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا  
 الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ  
 أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ  
 الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧)  
 جَزَاءُ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا  
 أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) .

## شرح المفردات

أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، المشركون : عبدة الأوثان والأصنام من  
 العرب وغيرهم ، منفكين : أى مفارقين مام عليه ، والبينة : الحججة الواضحة ، والمراد

بها النبي صلى الله عليه وسلم ، والصحف : واحدها صحيفة : وهي ما يكتب فيه ، مطهرة : أى مبرأة من الزور والضلال ، والقيمة : المستقيمة التى لا عوج فيها لاشتغالها على الحق ، والبينة : الثانية الدليل ، والإخلاص : أن يأتى بالعمل خالصه تعالى ، لا يشرك به سواه ، الدين : العبادة ، وإخلاص الدين لله : تنقيته من أدران الشرك ، حنفاء : واحدهم حنيف ، وهو فى الأصل المائل المنحرف ؛ والمراد به المنحرف عن الزبغ إلى إسلام الوجه لله ، والبرية : الخبيقة ، خشى الله : أى خاف عقابه .

### المعنى الجليل

كان اليهود والنصارى من أهل الكتاب فى ظلام داس من الجهل بما يجب الاعتقاد به والسير عليه من شرائع أنبيائهم ، إلا من عصم الله ، لأن أسلافهم غيروا وبدلوا فى شرائعهم ، وأدخاوا فيها ما ليس منها ، إما لسوء فهمهم لما أنزل على أنبيائهم ، وإما لاستحسانهم ضروبا من البدع توهموها مؤيدة للدين ، وهى هادمة لأركانها ، وإما لإلخام خصومهم ، والرغبة فى الظفر بهم .

وقد توالى على ذلك الأزمان ، وكلما جاء جيل زاد على ما وضعه من قبلهم حتى خفيت معالم الحق ، وطمست أنوار اليقين .

وكان إلى جوار هؤلاء عبدة الأوثان من العرب وغيرهم ممن مرت نفوسهم على عبادتها ، وانخوع لها ، وأصبح من المسير تحويلهم عنها ، زعما منهم أن هذا دين الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وكان الجدل ينشب حينما بين المشركين واليهود ، وحينما آخر بين المشركين والنصارى ، وكان اليهود يقولون للمشركين : إن الله سبعت نبيا من العرب من أهل مكة ، وينعتونه لهم ، ويتوعدونهم بأنه متى جاء نصرود وآزروه ، واستنصروا به عليهم حتى يببدهم .

قد كان هذا وذلك ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم قام المشركون يناوئونه

ويرفمون راية العصيان في وجهه ، وألبوا الناس عليه ، وأذوا كل من اتبعه وسلك سبيله من أثار الله بصائرهم ، وشرح صدورهم لمعرفة الحق .

كذلك قلب له اليهود ظهر اجتن بعد أن كانوا من قبل يستفتحون به ، إذ وجدوا نعتهم عندهم في التوراة ، فزعموا أن ما جاء به من الدين ليس بالبدع الجديد ، بل هو معروف في كتبهم التي جاءت على لسان أنبيائهم ، فلا ينبغي أن يتركوا ما هم عليه من الحق ، ليتبعوا رجلا ما جاء بأفضل مما بين أيديهم ، بل قد بلغ الأمر بهم أن كانوا عليه مع المشركين الذين كانوا يعاندونهم ويهددونهم بأنهم سيقتلون هذا النبي وينصرونه .

في الرد على مزاعم هؤلاء الكافرين الذين يحدون واضح الحق ، ويفمضون أعينهم عن النظر فيه — نزلت هذه السورة .

### الإيضاح

(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) أي لم يكن الذين جحدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنكروا نبوته من اليهود والنصارى والمشركين بمفارقين لكفرهم ، تاركين لما هم عليه من الغفلة عن الحق ، والوقوف عند ما كان عليه آبؤهم ولو كانوا لا يعقلون شيئا ، حتى يأتيهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيحدث بحجته رجّة فيما رسخ من عقائدهم ، وتمكن من عاداتهم ، ومن ثم أخذوا يحتجون لعنادهم بأن ما جاء به هو ما كان بين أيديهم وليس بمستحسن أن يتبع ، والبقاء على ما هم عليه أجدر وأجل ، والسير على نهج الآباء أشهى إلى النفس وأسلم .

ثم فسر البينة التي تعرفهم وجه الحق فقال :

(رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة) أي هذه البينة هي محمد صلى الله عليه وسلم يتلو لهم صحف القرآن المطهرة من الخلط والزيف والتدليس ، والتي

تنبعث منها أشعة الحق كما قال : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ »  
وفيهما الصحيح التويم من كتب الأنبياء السابقين كوسى وعيسى وإبراهيم كما قال :  
« وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّابِينَ » ، وقال : « إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . مُخْتَفٍ  
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » .

وقد يكون المراد بالكتب سور القرآن وآياته ، فإن كل سورة منه كتاب  
قويم ، أو الأحكام والشرائع التي تضمنها كلام الله ، والتي بها يقين الحق من  
الباطل كما قال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا .  
قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا لِمَنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ » .

وقصارى ذلك — إن حال الكافرين من اليهود والنصارى والمشركين بعد  
مجيء الرسول تخالف حالهم قبلها ، فقد كانوا قبل مجيئه كفارا يتيهون في عمية من  
الأهواء والجهالات ، فلما بعث آمن به قوم منهم ، فلم تبق حالهم كما كانت قبيل ،  
إلى أنهم قبل بعثته صلى الله عليه وسلم كانوا جازمين بما هم عليه ، واثقين بصحته ،  
فلما بعث إليهم تغيرت حال جميعهم ، فمنهم من آمن به ، واعتقد أن ما كان فيه  
ضلال وباطل ، ومنهم من لم يؤمن ولكنه صار مترددا في صحة ما هو عليه ، أو هو  
واثق بعدم صحته ، ولكن يمنعه العناد والتكبر والافتداء بالأباء من متابعة الرسول  
صلى الله عليه وسلم .

ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفرق القوم في شأنه فقال :

( وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ) أى لا تبجع  
نفسك عليهم حسرات ، ولا يكون في صدرك حرج منهم ، فإن هذا شأنهم الذى  
درجوا عليه ، ودينتهم ودين أسلافهم الذين بدلوا وافتروا على أنبيائهم ، وتفرقوا  
طرائق قدا حتى صار أهل كل مذهب يبطل ما عند غيره بغيا وعدوانا وقولا بالتشهى  
والهوى ، ولم يكن تفرقهم تقصير حجتك أو خفاء شأنك عليهم ، فهم إن يحدوا

ببنتك فقد جعلوا بينة من قبلك ، وإن أنكروا نبوتك فقد أنكروا آيات الله بعد ما استيقنتها أنفسهم .

وإذا كانت هذه حال أهل الكتاب فما ظنك بالمشركين وهم أعرق في الجهالة وألسس مقادة للهوى .

ثم أتيتهم ووجههم على ماصاروا إليه من الأفعال ، وعلى ما بلغوه من فساد العقل والضلال فقال :

( وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ) أى إنهم تفرقوا واختلفوا وهم لم يؤمروا إلا بما يصالح دينهم ودينامهم ، وما يجب لهم سعادة فى معاشهم ومعادهم من إخلاص لله فى السر والعلن ، وتخليص أعمالهم من الشرك به ، واتباع ملة إبراهيم الذى مال عن وثنية أهل زمانه إلى التوحيد وإخلاص العبادة له كما قال : « **مُحَمَّدٌ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا** » وقال : « **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا** » .

والمراد من إقامة الصلاة الإتيان بها مع إحضار القلب لهيئة المعبود ، ليعتاد الخضوع له ؛ وإيتاء الزكاة إنفاقها فيما عين لها فى الكتاب الكريم من المصارف . ( وذلك دين القيمة ) أى هذا الذى ذكر من إخلاص العبادة للخالق ، والميل عن الشرك مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، هو الدين الذى جاء فى الكتب القيمة . وقصارى ماسلف — إن أهل الكتاب اختلفوا فى أصول الدين وفروعه ، مع أنهم ما أمروا إلا بأن يعبدوا الله ويخلصوا له فى عقائدهم وأعمالهم ، وألا يقلدوا فيها أباً ولا رئيساً ، وأن يردوا إلى ربهم وحده كل ما يعرض لهم من خلاف .

وهذا ما ناهى الله من حال أهل الكتاب فى افتراقهم فى دينهم ، فما بالناس نحن المسلمين وقد ملأنا ديننا بدعا ومحدثات ، وتفرقنا فيه شيعة ، أفليس مانحن فيه من ذل وهوان ، وضعف بين الأمم جزاء من ربنا لما صرنا إليه من انحراف عن منهج لشرع القويم ، والسير على الصراط المستقيم ؟ .

ثم بين جزاء الذين جحدوا رسالة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :  
 ( إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدون فيها )  
 أى إن هؤلاء الذين دسوا أنفسهم بقبيح الشرك واجترأ المعاصي ، وإنكار الحق  
 الواضح بعد أن عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، يجازيهم ربهم بالعقاب الذى لا يتخلصون  
 منه أبداً ، ويدخلهم نارا تنلغى جزاء ما كسبت أيديهم ، وجزاء إعراضهم عما دعا  
 إليه الداعى ، وهدت إليه الفطرة .

ثم حكم عليهم بحكم آخر فقال :  
 ( أولئك هم شر البرية ) أى هم شر الخليقة على الإطلاق ، إذ منكر الحق بعد  
 معرفته ، وقيام الدليل عليه منكر لعنله ، جالب لنفسه الدمار والويل .

وبعد أن ذكر جزاء الجاحدين الكافرين ، أورد جزاء المؤمنين المحبتين فقال :  
 ( إن الذين آمنوا وعموا الصالحات أولئك هم خير البرية ) أى إن الذين سطع  
 نور الدليل في قلوبهم ، فاهتدوا به وصدقوا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وعموا  
 صالح الأعمال ، قبلوا النفس في سبيل الله وجهاد أعدائه ، وبدلوا نفيس المال  
 في أعمال البر ، وأحسنوا معاملة خلقه ، أولئك هم خير الخليقة ، لأنهم بتابعة الهدى  
 أدوا حق العقل الذى شرفهم الله به ، وبعملهم للصالحات حفظوا الضميلة التى جعلها  
 الله قوام الوجود الإنسانى .

ثم بين ماسيلقون من جزاء عند ربهم فقال :  
 ( جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبداً ) أى  
 هؤلاء يجازيهم ربهم بجنات يقيون فيها أبداً ، وفيها من اللذائذ ما هو أكل وأوفر  
 من لذات الدنيا .

وعلمنا أن تؤمن بالجنة ولا تبحث عن حقيقتها ، ولا أين موضعها ، ولا كيف  
 تقع فيها ، فإن علم ذلك عند ربنا لا يعلمه إلا هو ، فهو من علم الغيب الذى  
 استأثر بعلمه .

ثم ذكر أسباب هذا الجزاء فقال :

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى إيمانهم حازوا رضا الله بالنزاهة حدود شريعته ،  
فعمدوا مغبة أعمالهم ، ونالوا ما يرضيهم فى دنياهم وآخرتهم .  
(ذلك لمن خشى ربه) أى هذا الجزاء الحسن إنما يكون لمن ملأت قلبه  
الخشية والخوف من ربه .

وفى ذلك تحذير من خشية غير الله ، وتنفير من إشراك غيره به فى جميع الأعمال ؛  
كما أن فيه ترغيبا فى تذكر الله ورهبته لدى كل عمل من أعمال البر حتى يكون  
العمل له خالصا ، إلى أن فيه إيتساء إلى أن أداء بعض العبادات كالصلاة والصوم  
بمحركات وسكنات مجردين عن الخشية لا يكفى فى نيل ما أعد للذين آمنوا و عملوا  
الصالحات من الجزاء ، لأن الخشية لم تحل قلوبهم ، ولم تهذب نفوسهم .  
نسأل الله أن يطهر قلوبنا ، ويمير بصائرنا ، حتى لا نهرب سواه ، ولا نخشى  
إلا إياه ، والحمد لله رب العالمين .

### سورة الزلزلة

هى مدنية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة النساء .

ووجه مناسبتها لما قبلها - أنه لما ذكر فيما سلف جزاء المؤمنين والكافرين ،  
بين هنا وقت ذلك الجزاء وعلاماته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)  
وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا؟ (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ  
أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ  
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

## شرح المفردات

الزلزلة : الحركة الشديدة مع اضطراب ، والأثقل : واحده أثقل ؛ وهو في الأصل متاع البيت كما قال : « وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَسْكُونُوا بِأَعْيُنِهِ إِلَّا يَشِقُّ الْأَنْفُسَ » والمراد به هنا ما في جوف الأرض من الدفان كالموتى والكنوز ، وتقول أوحيت له وأوحيت إليه ووحى له ووحى إليه ، أى كلمه خفية أو ألهمه كما جاء في قوله : « وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّجْوَىٰ » يصدر : أى يرجع ، فالوارد هو الآتى للماء ليشرب أو يستقى ، والصادر : هو الراجع عنه ، أشناتا : واحد شم شتيت أى متفرقين متمايزين لا يسير محسنهم ومسيئهم في طريق واحدة ، الذرة : النملة الصغيرة ، أو هى الهباء الذى يرى في ضوء الشمس إذا دخت من نافذة ، ومثقال الذرة : وزنها ، وهو مثل فى الصغر .

## سبب نزول هذه السورة

كان الكفار كثيرا ما يسألون عن يوم الحساب فيقولون : « أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ » ويقولون : « مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ؟ » وما أشبه ذلك ، فذكر لهم فى هذه السورة علامات ذلك فحسب ، ليعلموا أنه لا سبيل إلى تعيين ذلك اليوم الذى يعرض الناس فيه على ربهم لعقاب المذنبين وثواب المؤمنين .

## الإيضاح

( إذا زلزلت الأرض زلزالها ) أى إذا اضطربت الأرض وتحركت حركة شديدة . ونحو الآية قوله : « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا » ، وقوله : « يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » .

وفى ذلك إيماء إلى شدة الحال يومئذ ، وانفت لأنظار الكافرين إلى أن يتدبروا

الأمر ويمتبروا ، وكان يقال لهم : إذا كان الجراد يضطرب لحول هذا اليوم ، فهل لكم أن تستبطلوا من غفلاتكم ، وترجعوا عن عنادكم ؟  
(وأخرجت الأرض أثقالها ؛ أي وأخرجت الأرض مافي جوفها من السكروز والدفائن والأموات ، فانها لشدة اضطرابها يشور باطنها ويقذف مافيها .

ونحو الآية قوله : « وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ » .

ومثال هذا ما نراه في حيتنا الدنيا من جبال النار الثائرة (البراكين) كما حدث في إيطاليا سنة ١٩٠٩ م من ثوران بركان ويزوف وابتلاعه مدينة مسينا ولم يُبق من أهلها دياراً ولا نافع نار .

(وقال الإنسان مالها؟) أي وفال من يكون من الناس مشاهداً لهذا الزلزال الذي يخاف أمثاله في شدته ، ويحار العتل في معرفة أسبابه ، ويصديه الدهش مما يرى ويبصر : مال هذه الأرض ، وما انذى وقع لها مما لم يعهد له نظير من قبل ؟ كما جاء في آية أخرى : « وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى » .

(يومئذ تحدث أخبارها) أي في ذلك الوقت وقت الزلزلة تحدثك الأرض أحاديثها ، والمراد أن حالها وما يقع فيها من الاضطراب والانتقال ، وما لم يعهد له نظير من الخراب ؛ تُفلم السائل وتُفهمه أن ما يراه لم يكن لسبب من الأسباب التي وضعت لأمثاله مما نراه حين استقر نظام هذا السكون .

ثم بين سبب ما يرى فقال :

(بأن ربك أوحى لها) أي إن ما يكون للأرض يومئذ إنما هو بأمر الهى خاص ، فيقول لها : كوني خرابا كما قال لها حين بدء النشأة الأولى كوني أرضا ، وإنما سمي ذلك وحيا ، لأنه أتى على خلاف ما عهد منذ نشأة الأرض ، قاله الأستاذ الإمام .

(يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم) أي يوم يقع الخراب العظيم لهذا العالم الأرضى ، ويظهر ذلك السكون الجديد كون الحياة الأخرى ، يصدر الناس متفرقين

متمايزين ، فلا يكون محسن في طريق واحد مع مسيء ، ولا مطيع مع عاص ، ليربيهم الله جزاء ما قدمت أيديهم ، ويجذبوا ثمر ما غرسته أيانهم .

ثم فصل ذلك بقوله :

( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ) أى فمن يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فانه يجد جزاءه ، ومن يعمل الشر ولو قليلا يجد جزاءه ، لافرق بين المؤمن والكافر .

وحسنات الكافرين لا تخلصهم من عذاب الكفر فهم به خالدون في الشقاء ، وما نطق من الآيات بحبوط أعمال الكافرين وأنها لا تنفعهم ، فالمراد به أنها لا تنجهم من عذاب الكفر وإن خفت عنهم بعض العذاب الذى كان يرتقبهم من السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر فلا يخفف عنهم منه شئ ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى :  
« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ اتِّسَاطًا لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ أُنْزِلْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ » . فقوله : « فلا تظلم نفس شيئاً » صريح فى أن المؤمن والكافر فى ذلك سواء . وأن كلا يوق يوم القيامة جزاءه ؛ وقد ورد أن حاتمًا يخفف عنه نكرمه ، وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبي صلى الله عليه وسلم ، هذا تلخيص مقاله الأستاذ الإمام فى تفسير الآية .

### مقاصد السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على مقصدين :

- (١) اضطراب الأرض يوم القيامة وهشة الناس حينئذ .
- (٢) ذهاب الناس لموقف العرض والحساب ثم مجازاتهم على أعمالهم .

## سورة العاديات

هى مكية ، وآياتها إحدى عشرة ، نزلت بعد سورة العصر .  
 ووجه المناسبة بينها وبين ما قبلها — أنه لما ذكر هناك الجزاء على الخير والشر  
 أتبعه تعنيف الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، ولا يستمدون لحياتهم الثانية ،  
 بتعويدهم أنفسهم فعل الخير .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَأُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَأَلْمَعِرَاتِ صُبْحًا (٣)  
 فَأُورِنَ بِهِ نَقْمًا (٤) فَوْسَطْنَ بِهِ جَمًّا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)  
 وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا  
 بُعِثَ إِلَىٰ الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ  
 يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)

## شرح المفردات

العاديات : واحدها عادية من العدو وهو الجرى ، والضبح : صوت أنفاس  
 الخيل حين الجرى . قال عنقرة :

والخيل تكدح حين تضبح في حياض الموت ضبحا

والموريات : واحدها مورية من الإبراء وهو إخراج النار تقول : أورى فلان  
 إذا أخرج النار بزئد ونحوه ، والقدح : الضرب لإخراج النار كضرب الزناد بالحجر ،  
 والمغيرات : واحدها مغيرة من أغار على العدو إذا هجم عليه بغتة ليقته أو يأمره ،  
 أو يستلب ماله ، والإثارة : التهيج وتحريك الغبار ، والقمع : القهار ، وسطن :

أى توسطن تقول وسطاً القوم أسطهم وسطاً : إذا صرت في وسطهم ، والكنود : الكفور ، يقال كند النعمة أى كفرها ولم يشكرها وأشدوا :

كنودا لنعماء الرجال ومن يكن كنودا لنعماء الرجال يُبَعِّدُ

وأصل الكنود الأرض التى لانتبت شيئاً ، شبه بها الإنسان الذى يمنع الخير ويحسد ما عليه من واجبات ، لشهيد : أى لشاهد على كنفوده وكفره بنعمة ربه ، والخير : المال كما جاء فى قوله : « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » ، نشديد : أى لبيخيل ، بعثر : أى بث وأثير ، وحصل : أى أظهر محصلاً مجموعاً ، مافى الصدور : أى مافى القلوب من العزائم والنوايا .

## الإيضاح

(والعاديات ضبيحا) أى قسما بالخليل التى تعدو وتجرى ويسمع لها حينئذ ضبح أى زفير شديد .

(فاللوريات قدحا) أى والخليل التى تخرج النار بحوافرها ويتطاير منها الشرر أثناء الجرى .

(فالغيرات صبيحا) أى والخليل التى تعدو وتهجم على العدو وقت الصباح ، لأخذه على غير أهبة واستعداد .

(فأثرن به نقما) أى فويجن فى الصبح غبارا لشدة عدوهن .

(فوسطن به جمعا) أى فتوسطن جمعا من الأعداء ففرقته وشتتن شمله .

أقسم سبحانه بالخليل التى لها هذه الصفات ، والتى تعمل تلك الأعمال ، ليعلى من شأنها فى نفوس عباده المؤمنين أهل الجِدِّ والعمل ، وليؤمنوا بتريبتها وتعويدها الكرم والفر ، وليحملهم على العناية بالقروسية والتدرب على ركوب الخيل والإغارة بها ليكون كل امرئ مسلم منهم عاملاً ناصباً إذا جدَّ الجد واضطرت الأمة إلى صدء أو بعثها باعث على كسر شوكته ، يرشد إلى ذلك قوله فى آية أخرى :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » .

وفى قسام الله بها بوصف العاديات المغيرات الموريات - إشارة إلى أنه يجب أن تقنى الخيل لهذه الأغراض والمنافع لا للخيلاء والزينة ، وأن الركوب الذى يحمد ما يكون لكبح جماح الأعداء ، وخضد شوكتهم ، وصد عدواهم .

وقصارى ذلك - إن للخيل فى عدوها فوائد لا يحصى عدّها ، فهى تصلح للطلب ، وتسعف فى الحرب ، وتساعد جد المساعدة فى النجاء ، والسكر والفر على الأعداء ، وقطع شاسع المسافة فى الزمن القليل .

ثم ذكر الخلوفاً عليه بتلك الأيمان الشريفة فقال :

( إن الإنسان لربه لسنود ) أى إن الإنسان طبع على نكران الحق ووجوده وعدم الإقرار بما لزمه من شكر خالقه والخضوع له إلا من عصمهم الله وهم الذين روضوا أنفسهم على فعل الفضائل ، وترك الرذائل ، ما ظهر منها وما بطن .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « السنود الذى يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفقده » أى إنه لا يعطى شيئاً مما أنعم الله به عليه ، ولا يراف بعباده كما راف به ؛ فهو كافر بنعمته ، مجانف لما يقضى به العقل والشرع .

ومر هذه الجملة - أن الإنسان يحصر همه فيما حضره ، وينسى ماضيه ، وما عسى أن يستقبله ؛ فإذا أنعم الله عليه بنعمة غرته غفلته ، وقسا قلبه ، وامتلاً جفوة على عباده .

( وإنه على ذلك لشهيد ) أى وإنه مع كنوده ولجاجته فى الطرفين ، وتماديه فى الإنكار والهمتان ، إذا خلى ونفسه رجع إلى الحق ، وأذعن إلى أنه ما شكر ربه على نعمه - إلى أن أعماله كلها ججود لنعم الله ، فهى شهادة منه على كنوده ، شهادة بلسان الحال ، وهى أفصح من لسان النقال .

(وإنه لحب الخير لشديد) أى وإن الإنسان بسبب محبته للمال وشغفه به وتعلقه بجمعه وادخاره - لبخيل شديد فى بخله ، حريص متناهٍ فى حرصه ، ممسك مبالغ فى إمساكه ، متشدد فيه ، قال طرفة :

أرى الموت بعظام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد  
ثم هدد الإنسان الذى هذه صفاته وتوعده بقوله :

(أفلا يعلم إذا بعثر ما فى الصدور . وحصل ما فى الصدور ؟ . إن ربهم بهم يومئذ  
خبير) أى أفلا يعلم هذا الإنسان المنكر لنعم الله عليه ، الجاحد تفضله وأياديه -  
أنه سبحانه عليم بما تنطوى عليه نفسه ، وأنه مجازيه على جحده وإنكاره يوم يحصل  
ما فى الصدور ويبعث ما فى القبور ؟ ،

وقد عبر سبحانه عن مجازاتهم على ما كسبت أيديهم - بالخبرة بهم والعلم المحيط  
لأعمالهم ، وهذا كثير فى الكلام ، تقول لشخص فى معرض التهديد : سأعرف  
لك عملك هذا مع أنك تعرفه الآن قطعا ، وإنما عرفانه الآتى هو ظهور أثر المعرفة  
وهو مجازاته بما يستحق ، وقد جاء على هذا النسق قوله تعالى : «سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا»  
مع أن كتابة أقوالهم حاصلة فعلا ؛ فالمراد سنجازهم بما قالوا الجزاء الذى هم له  
أهل . والله أعلم .

## سورة القارعة

هى مكية ، وآياتها إحدى عشرة ، نزلت بعد سورة قريش .

ومناسبتها لما قبلها - أن آخر السابقة كان فى وصف يوم القيامة ، وهذه السورة

بأسرها فى وصف ذلك اليوم ، وما يكون فيه من الأحوال .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ  
يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)  
فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ  
مَوَازِينُهُ (٨) فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ (١٠) نَارُ  
حَامِيَةٍ (١١) .

### الإيضاح

( القارعة ) من أسماء القيامة كالخاقة والصاخة والطامة والغاشية ؛ وسميت بذلك لأنها تفرع القلوب بهولها ، كما تسمى الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة قال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ آيٌ كَاتِبَةٌ كَآتَتْهُمُ النَّارُ لَمَّا كَانُوا هَائِلِينَ كَانُوا فِيهَا يَخْتَضِعُونَ لِحُكْمِهَا كَذَلِكَ أَتَتْهُمْ آيَاتُهُمْ لَمَّا صَبَّوْا كَانُوا هَالِكِينَ » .  
حادثة عظيمة تفرعهم وتصك أجسادهم فيألمون لها .

( ما القارعة ؟ ) أى أى شئ هى القارعة ؛ وهذا أسلوب يراد به تهويل أمرها كأنها لشدّة ما يكون فيها من الأهوال ، التى تفرع منها النفوس ، وتدهش لها العقول ، يصعب تصوّرها ، ويتمنر إدراك حقيقتها .

ثم زاد أمرها تعظيماً فقال :

( وما أدراك ما القارعة ) أى وأى شئ يعرفك بها ، كأنه لاشئ يحيط بها ؛ فهما تخيلت أمرها وحدّست شأنها فهى أعظم من تقديرك .

ولما ذكر سبحانه أن إدراك حقيقتها مما لاسبيل إليه ، أخذ يعرف بزمانها الذى تكون فيه ، وما يحدث للناس حينئذ من الأهوال فقال :

( يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ) الفراش : هو الحشرة التي تراها تترامى على ضوء السراج ليلاً ، وبها يضرب المثل في الجهل بالعاقبة قال جرير :  
 إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطلي  
 والمبثوث : المفرق المنتشر ، تقول بثت الشيء : أفرقته .

أى إن الناس من هول ذلك اليوم يكونون منشرين حيارى هائمين على وجوههم لا يدرون ماذا يفعلون ، ولا ماذا يراد بهم كالفراش الذى يتجه إلى غير جهة واحدة ، بل تذهب كل فراشة إلى جهة غير ما تذهب إليها الأخرى .  
 وجاء تشبيههم في آية أخرى بالجراد المنتشر في كثرتهم وتتابعهم فقال : « كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ » .

( وتكون الجبال كالعن المنفوش ) العن ( بكسر العين وسكون الهاء ) الصوف ذو الألوان ، والمنفوش : الذى نفس ففرقت شعراته بعضها عن بعض حتى صار على حال يطير مع أضعف ريح .  
 أى إن الجبال لتفتتها وتفرق أجزائها لم يبق لها إلا صورة الصوف المنفوش فلا تلبث أن تذهب وتتطاير ، فكيف يكون الإنسان حين حدوثها وهو ذلك الجسم الضعيف السريع الانحلال .

وقد كثر في القرآن ذكر حال الجبال يوم القيامة فقال : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ كَمَرٍ مَّرَّةٍ السَّحَابِ » وقال : « فَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً » وقال : « وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا » كل ذلك ليعين أن هذه الأجسام العظيمة التى من طبيعتها الاستقرار والثبات تؤثر فيها هذه القارعة ، فما بالك أيها المخلوق الضعيف الذى لا قوة له ؟

وفي هذا تحذير للإنسان وتخويف له كما لا يخفى .  
 وبعد أن ذكر أوصاف هذا اليوم بما يكون من أحوال بعض الخلائق - أعقب ذلك بذكر الجزاء على الأعمال فقال :

(فأما من ثقلت موازينه . فهو في عيشة راضية) يقال ثقل ميزان فلان إذا كان له قدر ومنزلة رفيعة ، كأه إذا وضع في ميزان كان له به رجحان ، وإنما يكون المقدار والقيمة لأهل الأعمال الصالحة ، والفضائل الراجحة . فهؤلاء يجزون النعيم الدائم ويكونون في عيشة راضية ، تقرّ بها أعينهم ، وتسّرّ بها نفوسهم .  
ويرى بعض المفسرين أن الذى يوزن هو الصحف التى تكتب فيها الحسنات والسيئات .

ولما ذكر نعيم أهل الخير أردفه عقاب أهل الشر فقال :  
(وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ) يقال خف ميزانه : أى سقطت قيمته فكأنه ليس بشيء حتى لو وضع في كفة ميزان لم يرجح بها على أختها ، ومن كان في الدنيا كثير الشر ، قليل فعل الخير ، فدسّ نفسه بالشرك واجترأ المعاصى وعاث في الأرض فسادا - لم يكن شيئا ، فلا ترجح له كفة ميزان لو وضع فيها .  
وعلى الجهة فملينا أن نؤمن بما ذكره الله من الميزان في هذه الآية وفي قوله :  
« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » ومن وزن الأعمال ، وتمييز مقدار لكل عمل . وليس علينا أن نبحت وراء ذلك ، فلا نسأل كيف يزن ، ولا كيف يقدر ؟  
فهو أعلم بغيبه ، ونحن لا نعلم .

أما أن الميزان له لسان وكفتان فهذا لم يرد به نص عن المعصوم يُلزَمنا التصديق به ، وكيف يوزن بهذا الميزان الذى تعلمه الإنسان في مهد البداوة الأولى ، ويُترك ما هو أدق منه مما اخترع فيما بعد وهدى إليه الناس : على أن جميع ما عمله البشر فهو ميزان للأثقال الجسمانية لا ميزان للمعاني المعقولة كالحسنات والسيئات ، فلنفوض أمر ذلك إلى عالم الغيب .

والمراد من كون أمه هاوية - أن مرجعه الذى يأوى إليه هبوة سحيفة في جهنم يهوى فيها ، كما يأوى الولد إلى أمه . قال أمية بن أبى الصلت :  
فالأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد

(لوما أدراك ماهيه ؟) أى وأى شىء يخبرك بماهى تلك الهاوية ، وأنها أى شىء تكون ؟ .

ثم فسرهما بعد إبهامها فقال :

(نار حامية) أى هى نار ملتهبة يهوى فيها ليلقى جزاء ما قدم من عمل ، وما اجترح من سيئات .

وفى هذا إيماء إلى أن جميع النيران إذا قيست بها ووزنت حالها بحالها لم تكن حامية ، وذلك دليل على قوة حرارتها ، وشدة استعمارها .

وقانا الله شر هذه النار الحامية ، وآمننا من سعيها بمنه وكرمه .

## سورة التكاثر

هى مكية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة الكوثر .

ومناسبتها لما قبلها - أن فى الأولى وصف القيامة وبعض أهوالها وجزاء الأخيار والأشرار ، وأن فى هذه ذكر الجحيم وهى الهاوية التى ذكرت فى السورة السابقة ، وذكر السؤال عما قدم المرء من الأعمال فى الحياة الدنيا ، وهذا بعض أحوال الآخرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣)  
 ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ  
 الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ  
 عَنِ النَّعِيمِ (٨) .

## شرح المفردات

اللهو: ما يشغل الإنسان ، سواء أكان مما يسرّ أم لا ، ثم خص بما يشغل مما فيه سرور ؛ وإذا أُلْهِىَ المرء بشيء فهو غافل به عما سواه ، والتكاثر: التباهى بالكثرة بأن يقول كل للآخر أنا أكثر منك مالا ، أنا أكثر منك ولها ، أنا أكثر منك رجال ضرب وحرب ، حتى زرتم المقابر : أى حتى صرتم من الموتى ، قال جرير :

زار القبورَ أبو مالك فأصبح ألامَ زوارها

علم اليقين : أى علم الأمر الميقون الموثوق به ، والجحيم: دار العذاب عين اليقين : أى عين هي اليقين نفسه .

## أسباب نزول السورة

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بريدة قال : نزلت «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ» في قبيلتين من الأنصار وهما بنو حارثة وبنو الحرث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : أفيكم مثل فلان وفلان ؟ وقالت الأخرى : مثل ذلك . تفاخروا بالأحياء ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : أفيكم مثل فلان وتشير إلى القبر ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزله الله هذه السورة .

## الإيضاح

(ألهاكم التكاثر) أى شغلكم التفاخر والتباهى بكثرة الأنصار والأشباع ، وصرفكم ذلك عن الجد في العمل ، فكنتم في لهو بالقول عن الفعل ، وفي غرور وإعجاب بالآباء والأعوان ، وصرفكم ذلك عن توجيه قواكم إلى العمل بما فرض عليكم من الأعمال لأنفسكم وأهلكم . وما زال ذلك ديدنكم ودأبكم الذى سرتم عليه .

وفي صحيح مسلم عن مُطَرِّف عن أبيه قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ : ألهاكم التكاثر قال : يقول ابن آدم مالي ومالك ، وابن آدم ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأنتيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس » وروى عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان : وإن يملأه إلا التراب ويتوب الله على من تاب » .

قال الأستاذ الإمام : وقد يكون معنى التكاثر التغالب في الشهوة ، أى طلب كل واحد منهما أن يكون أكثر من الآخر مالا أو جاهاً ، والسعى إلى ذلك مجرد المغالبة ، لا يبنى الساعى في سعيه إلا أن يكون ماله أكثر من مال الآخر ، أو أن يكون عضده أقوى من عضده . لينال بذلك لذة التعلو والظهور بالقوة كما هو شأن الجمهور الغالب من طلاب الثروة والقوة ، ولا ينظر الدائب منهم في عمله إلى تلك الغاية الرفيعة ، غاية البذل مما يكسب في سبيل الخير . أو النهوض بالقوة إلى نصر الحق ، وحمل المبطلين على معرفته والتبرجه إليه ، ثم المحافظة بعد ذلك عليه .

وهذا معنى مقول ذهب إليه بعض المفسرين ، وهو يتفق كل الاتفاق مع ما يفهم من لفظ (ألهاكم) فإن الذى يلهى الناس عن الحق في كل حال ، ويتصرف وجوههم عنه إلى الباطل ، هو طمع كل واحد منهم أن يكون أكثر من الآخر مالا أو عدد رجال ، ليملو عليه ، أو ليستخدمه لسلطانه . بقدر ما يدخل في إمكانه ، أما التفاهر بالأقوال قائما يلهيهم في بعض الأحوال اهـ .

(حتى زرتم المقابر) أى حتى هلكتم وصرتم من الموتى ، فأضعتم أعماركم فيما لا يجدى فائدة ، ولا يعود عليكم بعائدة ، في حياتكم الباقية الخالدة .

قال العلماء : إن زيارة القبور من أعظم الدواء للقلب القاسى ، لأنها تذكر بالموت والآخرة ، وذلك يحمل على قصر الأمل والزهد في الدنيا وترك الرغبة فيها ،

ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها ترهّد في الدنيا وتذكركم الآخرة » .

كما لا خلاف في منع زيارتها إذا حدث في ذلك منكرات وأشياء مما نهى عنه الدين كاختلاط الرجال بالنساء وحدث فتن لا تحمد عقباها .

ثم نهىهم إلى خطأ ما هم فيه ، وزجرهم عن البقاء على تلك الحال التي لها وخيم العاقبة فقال :

( كلا سوف تعلمون ) أى ازدجروا عن مثل هذا العمل الذى لا تكون عاقبته إلا القطيعة والهجران ، والضعينة والأحقاد ، والجثوا إلى التناصر على الحق ، والتكاتف على أعمال البر ، والتضافر على مافية حياة الأفراد والجماعات ، من تقويم لأخلاق ، وتطهير الأعراق ، وإينكم سوف تعلمون عاقبة ما أنتم فيه من التكاثُر إذا استمر بكم هذا التفاخر بالباطل بدون عمل صحيح نافع لكم فى العقبى .

ثم أكد هذا وزاد فى التهديد فقال :

( ثم كلا سوف تعلمون ) وهذا وعيد بعد وعيد فى مقام الزجر والتوبيخ كما يقول السيد لعبيده : أقول لك لاتفعل ، ثم أقول لك لاتفعل .

( كلا لو تعلمون علم اليقين ) أى ارتدعوا عن تفريكم بأنفسكم ، فإنكم لو تعلمون عاقبة أمركم لشغلكم ذلك عن التكاثُر ، وصرفكم إلى صالح الأعمال ، وإن مائدعونه علما ليس فى الحقيقة بعلم ، وإنما هو وهم وظن لا يلبث أن يتغير ، لأنه لا يطابق الواقع ، والجدير بأن يسمى علما هو علم اليقين المطابق للواقع ، بناء على العيان والحس ، أو الدليل الصحيح الذى يؤيده العقل ، أو النقل الصحيح عن المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وإنما ذكر سبحانه هذا زيادة فى زجرهم لتعزيرهم بأنفسهم ، فقد جرت عادة المنافين أنهم إذا ذكروا بعواقب حالهم أن يقولوا : إنهم يعلمون العواقب ، وأنهم فى منتهى اليقظة وسداد الفكرة .

ثم ذكر لهم بعض ما ينتهي إليه هذا اللهو ، وهو عذاب الآخرة بعد حزى الدنيا فقال :

( لترونَّ الجحيم ) أى إن دار العذاب التى أعدت لمن يلهو عن الحق لاريب فيها ولترونها بأعينكم ، فاجمعوا صورة عذابها حاضرة فى أذهانكم ، لتنبهكم إلى ما هو خير لكم مما تلهون به .

والمراد برؤية الجحيم ذوق عذابها ، وهذا استعمال شائع فى الكتاب الكريم .  
ثم كرر ذلك للتأكيد فقال :

( ثم لترونها عين اليقين ) أى لترونها رؤية هى اليقين نفسه ، إلى أى دين أو إلى أى شخص كانت نسبتكم فلتتمتوا الله ربكم ، ولتنتهوا عما يقذف بكم فيها ، ولتنظروا إلى ما أتم فيه من نعمة ، ولترعوا حق الله فيها ، فاستمعوها فيما أمر أن تستعمل فيه ، ولا تجترحوا السيئات وتقترفوا المنكرات ، وإنكم لتمنون أنفسكم بأنكم ممن يعفو الله عنكم ، ويحزكم من النار بمجرد نسبتكم إلى الدين الإسلامى وتلقيبكم بألقابه ، مع مخالفتكم أحكام القرآن وعملكم عمل أعداء الإسلام .

ثم شدد عليهم وزاد فى تأنيبهم فقال :

( ثم لتسألنَّ يومئذ عن النعيم ) أى إن هذا النعيم الذى تتفاخرون به وتمدونه مما يباهى به بعضكم بعضاً — ستسألون عنه — ماذا صنعتم به ؟ هل أدبتم حق الله فيه وراعيتم حدود أحكامه فى التمتع به ، فإن لم تفعلوا ذلك كان هذا النعيم غاية الشقاء فى دار البقاء .

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « أى نعيم نسأل عنه يارسول الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ظلال المساكين والأشجار ، والأخبية التى تقيكم الحر والبرد ، والماء البارد فى اليوم الحار » .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوتُ يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .  
 اللهم وفقنا لشكر نعمتك وأداء حقها ، لنجد الجواب حاضراً حين سؤالنا عنها ،  
 اللهم آمين .

## سورة العصر

وهي مكية ، وآياتها ثلاث ، نزلت بعد سورة الشرح .  
 ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر في السورة السابقة أنهم اشتغلوا بالتفاخر والتكاثرو بكل ما من شأنه أن يلهي عن طاعة الله ، وذكر هنا أن طبيعة الإنسان داعية له إلى البوار ، وموقعة له في الدمار إلا من عصم الله وأزال عنه شرور نفسه ، فكان هذا تلميح لما سلف — إلى أنه ذكر في السالفة صفة من اتبع نفسه وهواه ، وجرى مع شيطانه حتى وقع في التهلكة ، وهنا ذكر من تجمل بأجل الطباع ، فأمن بالله وعمل الصالحات ، وتواصى مع إخوانه على الاستمسك بعُرى الحق ، والاصطبار على مكارمه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) .

### شرح المفردات

العصر : الدهر ، والإنسان : هو هذا النوع من المخلوقات ، والخسر والخسران : النقصان وذهاب رأس المال ، والمراد به ما ينقص فيه الإنسان من الآفات المهلكة ،

والحق : هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أرشد إليها دليل قاطع ، أو عيان ومشاهدة ، أو شريعة صحيحة جاء بها نبي معصوم ، والصبر : قوة للنفس تدعوها إلى احتمال المشقة في العمل ، الطيب ، وتهون عليها احتمال المكروه في سبيل الوصول إلى الأغراض الشريفة ، والتواصي بالحق : أن يوصى بعضهم بما لا سبيل إلى إنكاره وهو كل فضيلة وخير ، والتواصي بالصبر : أن يوصى بعضهم بعضاً به ويحثه عليه ، ولا يكون ذلك نافعا مقبولاً إلا إذا كمل المرء نفسه به وإلا صدق عليه قول أبي الأسود الدؤلي :

يأبى الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم  
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كما يصح به وأنت سقيم

### الإيضاح

(والعصر) أقسم ربنا سبحانه بالدهر لما فيه من أحداث وعبر يستدل بها على قدرته وبالغ حكمته وواسع علمه ، انظر إلى ما فيه من تعاقب الليل والنهار وهما آيتان من آيات الله كما قال : « وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » وإلى ما فيه : من سراء وضراء ، وصحة وسقم ، وغنى وفقير ، وراحة وتعب ، وحزن وفرح ؛ إلى نحو ذلك مما يسترشد به حصيف الرأي إلى أن للكون خالقاً ومدبراً ، وهو الذى ينبغي أن يوجه إليه بالعبادة ويدعى لكشف الضر وجلب الخير — إلى أن الكفار كانوا يضيفون أحداث السوء إلى الدهر ، فيقولون هذه تامة من نواب الدهر ، وهذا زمان بلاء ، فأرشدهم سبحانه إلى أن الدهر خلق من خلقه ، وأنه ظرف تقع فيه الحوادث خيراً وشرها ، فإن وقعت للمرء مصيبة فبما كسبت يده ، وليس للدهر فيها من سبب .

(إن الإنسان لفي خسر) أى إن هذا الجنس من المخلوقات — لخسر في أعماله ضرباً من الخسران إلا من استثناهم الله ، فأعمال الإنسان هي مصدر شقائه ، لا الزمان

ولا المكان . يحيى اتى توقعه فى الملائك ، فذنب المرء فى حق بارئه ، ومن يمن عليه  
بعمه الجبيلة ، وآلائه الجسيمة . جريمة لانعد لها جريمة أخرى .

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فاعتقدوا اعتقادا صحيحا أن للعالم كله الها  
خالقا قادرا برضى عن المطيع ، ويقضب على العاصى ، وأن هناك فرقا بين الفضيلة  
والزبيلة ، وفهم ذلك إلى عمل البر والتخير — وجماع ذلك نفع المرء نفسه ونفعه  
لنفس أجمعين .

وخلاصة أمرهم — أنهم باعوا الفانى الحسيس ، واشتروا الباقي النفيس ،  
واستبدلوا البقيات الصالحات بالغايات الرأحات ، فبألها من صفقة ما أربحها ، ومتقبة  
جامعة لاخير ، أو شحها .

(وتواصوا بالحق) أى وأوصى بعضهم بعضا بالأمر الثابت الذى لاسبيل إلى  
إنكاره ، إلا رومان فى الدين لحسن آثاره ، وهو الخير كله من يمان بالله عزوجل  
واتباع سكتمه وزنته فى كل عقد وعمل .

(وتواصوا بالصبر) أى وأوصى بعضهم بعضا بالصبر عن المعاصى التى اشتاق إليها  
النفس بحكم الجبلة البشرية ، وعلى الطاعات التى يشق عليها أداؤها ، وعلى ما يبتلى  
الله تعالى به عباده من المصائب ويتلقاها بالرضا ظاهرا وباطنا ، فلا بد للنجاة من  
الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ويمكنوه من قلوبهم ، ثم يحمل  
بعضهم بعضا على سلوك طريقه ، وأن يبعدوا بأنفسهم وبتغيرهم عن الأوهام والخيالات  
التي لاقرار للنفوس عليها ، ولا دليل يهدى إليها .

وخلاصة ماسلف — إن الناس جميعا فى خسران إلا من انصفوا بأربعة أشياء:  
الإيمان ، وامل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ؛ فيعملون الخير  
ويدعون إلى العمل به ، ولا يرحزهم عن الدعوة إليه ما يلافونه من مشقة وبلاء .  
والإنسان جميعه خسر ساعيه وضل مناهجه ، وصرف عمره فى غير مطالبه ،  
فهو قد جاء إلى الأرض ليخلص نفسه من الرذائل ويتملى بالفضائل ، حتى إذا رجع

إلى عالم الأرواح كان أقوى جناحا ، وأمضى سلاحا ، لكنه حين رجع إلى مقره في عالم السموات بالموت لم يجد إلا نقضا يحيط به ، وجهلا يريه ، فندم لإطاعة منه عاشوا في الدنيا مفكرين ، قَامَنُوا بِأَنْبِيَاءِهِمْ وَصَدَقُوا بِرِسَالِهِمْ ، وأحبوا بني جنسهم ، وأحسنوا إلى إخوانهم فساعدوهم بأنفسهم وأموالهم ، وصاروا معهم متعاضدين متعاونين ، وصبروا على ما نزل بهم من الحَدَثَانِ ، ورُمُوا به من البهتان ، فهؤلاء في الدنيا يفوزون بما يريدون ، وفي الآخرة بالنعيم يفرحون .  
جعلنا الله في زمرة أولئك العاملين الذين تواصلوا بالحق وتواصلوا بالصبر .

## سورة الهَمزة

هي مكية ، وآياتها تسع ، نزلت بعد سورة القيامة .  
ومناسبتها لما قبلها — أنه لما ذكر سبحانه في السورة السابقة أن جميع أفراد الإنسان منغمسون في الضلال إلا من عصم الله - ذكر هنا بعض صفات أهل الضلال .

### أسباب نزول هذه السورة

قال عطاء والكلبي : نزلت هذه السورة في الأحنس بن شَرِيْق ، كان يلحز الناس ويغتابهم وبخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
وقال مقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم من ورائه ويطن فيه في وجهه .  
وقال محمد بن إسحاق صاحب السيرة : مازلنا نسمع أن هذه السورة نزلت في أمية بن خلف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) أَيْحَسِبُ  
أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ؟ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ  
مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا  
عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ (٩) .

### شرح المفردات

ويل : أى خزى وعذاب ، وهو لفظ يستعمل فى الذم والتقبيح ؛ والمراد به التوبيه  
على قبح ماسيد كز بعدد من صفاتهم ، والهزمة اللمزة : الذى يطعن فى أعراض الناس  
ويظهر عيوبهم ويحقر أعمالهم ، تاذذا بالخط منهم وترفعا عنهم ؛ وأصل الهمز : الكسر  
يقال همز كذا : أى كسره ؛ وأصل اللمز الطعن ، يقال لمزه بالرمح : أى طعنه ثم شاع  
استعمالها فيما ذكرنا ، قال زياد الأعجم :

إذا لقيتُك عن شحطٍ تكاشرتنى وإن تغيبتُ كنتَ الهامزَ اللمزة

وعن مجاهد وعطاء : الهمزة الذى يغتاب ويطن فى وجه الرجل ، واللمزة :

الذى يغتاب من خلفه إذا غاب ، ومنه قول حسان :

همزتك فاختصمتَ بذلِّ نفس بقافية تاجج كالشواظ

عدده : أى عده مرة بعد أخرى شغفا به ، أخلده : أى ضمن له الخلود فى الدنيا ،  
والنبذ : الطرح مع الإهانة والتحقير ، والحطمة : من الحطم وهو الكسر ؛ يقال  
رجل حطمة إذا كان شديدا لا يبقى على شىء وفى أمثالهم : شرُّ الرعاء الحطمة : أى  
الذى يحطم ماشيته ويكسرها بشدة سوقها قال :

قد لفها الليل بسواق حطمٍ ليس براعى إبلٍ ولا غنمٍ

ولا بجزار على ظهر وصمٍ

والمراد بها النار ، لأنها تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب ،  
تطلع على الأفتدة : أى تملأ أوساط القلوب وتتشاها ، مؤصدة : أى مطبقة من  
أوصدت الباب : أى أغلقتة قال :

نحن إلى أجبال مكة نأتى      وإن دونها أبواب صنعاء مؤصدة  
والعمد : واحداها عمود ، وممددة : أى مطولة من أول الباب إلى آخره .

### الإيضاح

(ويل لكل همزة لمزة) أى سخط وعذاب من الله لكل طعان فى الناس ،  
أكال للحومهم ، مؤذ لهم فى غيبتهم أو فى حضورهم .

ثم ذكر سبب عيبه وطعنه فى الناس فقال :

(الذى جمع مالا وعدده) أى إن الذى دعاه إلى الخط من أقدار الناس والزراية  
بهم هو جمعه للمال وتعليده مرة بعد أخرى ، شغفا به وتلذذا بإحصائه ، لأنه يرى أن  
لا عز إلا به ، ولا شرف بغيره ، فهو كما نظر إلى كثرة ما عنده ظن أنه بذلك قد  
ارتفعت مكانته ، وهزأ بكل ذى فضل ومزية دونه ، ثم هو لا يخشى أن تصيبه  
قارعة همزه ولمزه وتمزيقه أعراض الناس ، لأن غروره أنسا الموت ، وأعمى بصيرته  
عن النظر فى مآله ، والتأمل فى أحواله .

ثم بين خطاه فى ظنه فقال :

(يحسب أن ماله أخذه) أى يظن هذا انهاز العياب أن ما عنده من المال  
قد ضمن له الخلود فى الدنيا ، وأعطاه الأمان من الموت ، فهو لذلك يعمل عمل من يظن  
أنه باق حيا أبدا الدهر ، ولا يعود إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من  
سئ الأعمال .

وبعد أن توعد من هذه صفاته بشديد العقاب ، وأردفه ذكر السبب الذي حمله على ارتكاب هذه الخلال المقرّنة ، من ظنه أن ماله يضمن له الأمان من الموت ، أعقبه بتفصيل ما أعدّه له من هذا العذاب المحتوم فقال :

( كلا لينبذن في الحطمة ) أى ازدجر أيها العيّاب عما خيل إليك من أن المال يخلدك ويبقيك ، بن الذى ينفع هو العلم وصالح العمل ، فإلك والله مطروح في النار لاجحالة ، لا يؤوبه لك ولا ينظر إليك .

وأثر عن عليّ كرم الله وجهه من عظة له : يا كميلُ هلك خزان المال وهم أحياء ، والعلماء ناقون مابق الدهر : أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة . يريد أن خزان الأموال تموتون مكروهون عند الناس ، لأنهم لا ينالون منهم شيئا ، أما العلماء فالثناء عليهم مستمر مابق على الأرض إنسان ينتفع بعلمهم ، ويعترف من بحار فضلهم .

ثم أخذ يهول أمر هذه النار ويعظم شأنها فقال :

( وما أدراك ما الحطمة ) أى إن هذه الحطمة مما لا تحيط بها معرفتك ، ولا يقف على حقيقتها عقلك ، فلا يعلم شأنها ، ولا يقف على كنهها ، إلا من أعدّها لمن يستحقها .

ثم فسر هذه الحطمة بعد إهامها فقال :

( نار الله الموقدة ) أى إنها النار التى لا تنسب إلا إليه سبحانه ، إذ هو الذى أنشأها وأعدّها لعقاب العصاة والمذنبين ، وفي وصفها بالموقدة إيماء إلى أنها لا تخمد أبدا ، بل هى ملتهبة التهايا لا يدرك حقيقته إلا من أوجدها .

ثم وصفها بأوصاف تخالف نيران الدنيا ليؤكد مخافتها لها فقال :

( ١ ) ( التى تطلع على الأفئدة ) أى إنها تتغلب على الأفئدة وتقهرها ، فتدخل في الأجواف حتى تصل إلى الصدور ، فتأكل الأفئدة ، والقلب أشد أجزاء البدن تألما ، فإذا استولت عليه النار فأحرقته ، فقد بلغ العذاب بالإنسان غاية لا يقدرها قدرها .

وقد يكون المراد بالاطلاع المعرفة والعلم ، وكان هذه النار تدرك مافي أفئدة الناس يوم البعث ، فتميز العاصي عن المطيع ، والخبيث عن الطيب ، وتفرق بين من اجتروحا السيئات في حياتهم الأولى ، ومن أحسنوا أعمالهم ، وإنا لنفكل أمر ذلك إلى علام الغيوب .

وفي وصفها بالاطلاع على الأفئدة التي أودعت باطن الإنسان في أخفى مكان منه — إشارة إلى أنها إلى غيره أشد وصولا وأكثر تغلبا .

(٢) (إنها عليهم مؤصدة) أى إنها مطبقة عليهم لا يخرجون منها، ولا يستطيعون الخروج إذا شاءوا ، فهم « كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا » .  
(٣) (في عمد ممددة) قال مقاتل : إن الأبواب أطبقت عليهم ، ثم شدت بأوتاد من حديد ، فلا يفتح عليهم باب ، ولا يدخل عليهم روح اه .

والمراد بذلك تصوير شدة إطباق النار على هؤلاء وإحكامها عليهم ، والمبالغة في ذلك ليودع في قلوبهم اليأس من الخلاص منها .

وعلينا أن نؤمن بذلك ولا نبحث عن كون العمد من نار أو حديد ، ولا في أنها تمتد طولا أو عرضا ، ولا في أنها مشبهة لعمد الدنيا ، بل نكل أمر ذلك إلى الله ، لأن شأن الآخرة غير شأن الدنيا ، ولم يأتنا خبر من الرسول صلى الله عليه وسلم يبين ذلك ، فالكلام فيه قول بلا علم ، واقتراء على الله الكذب .

نسأل الله أن يحفظنا من غضبه ، ويقينا شر النار الموصدة ، بمنه وكرمه .

## سورة الفيل

هى مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة الكافرين .  
ومناسبتها لما قبلها — أنه بين فى السورة السابقة أن المال لا ينفى من الله شيئاً ؛ وهنا أقام الدليل على ذلك بقصص أصحاب الفيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ  
فِي تَضَلُّيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ  
سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) .

## شرح المفردات

الكيد : إرادة وقوع ضرر بغيرك على وجه الخفاء ، والتضليل : التصميم والإبطال ، تقول ضللت كيد فلان إذا جعلته باطلا ضائماً ، والطير : كل ما صار فى الهواء ، صغيراً كان أو كبيراً ، والأبابل : الجماعات ، لا واحد له من لفظه ، والسجيل : الطين الذى تحجر ، والعصف : ورق الزرع الذى يبقى بعد الحصاد ، وتعصفه الرياح : فتأكله الماشية ، مأكول : أى أكلت الدواب بعضه وتناثر بعضه الآخر من بين أسنانها .

## المعنى الجملى

ذكر الله سبحانه نبيه ومن تبلغه رسالته بعمل عظيم دال على بالغ قدرته ، وأن كل قدرة دونها فهى خاضعة لسلطانها — ذاك أن قوما أرادوا أن يتمزوا بفيهم

ليغلبوا بعض عباده على أمرهم ، ويصلوا إليهم بشرّاً وأذى ، فأهلكهم الله ، وردّ كيدهم ، وأبطل تدبيرهم ، بعد أن كانوا في ثقة بعدادهم وعددهم ولم يفدّم ذلك شيئاً .

### قصص أصحاب الفيل كما رواه أرباب السير

حدث الفيل معروف متواتر لدى العرب ، حتى إنهم جعلوه مبدأ تاريخ يحدّدون به أوقات الحوادث ، فيقولون : ولد عام الفيل ، وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ، ونحو ذلك .

وخلاصة ما أجمع عليه رواتهم — أن قائدا حبشيا ممن كانوا قد غلبوا على اليمن أراد أن يعتدى على السكبة المشرفة ويهدمها ، لينزع العرب من الحج إليها ، فتوجه بحش جرار إلى مكة ، واستصحب معه فيلا أوفيلة كثيرة زيادة في الإرهاب والتخويف ، ولم يزل سائرا يغلب من يلاقيه ، حتى وصل إلى «المُعَسّ» وهو موضع بالقرب من مكة ، ثم أرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لخرابهم ، وإنما جاء لهدم البيت ، ففرّعوا منه ، واطلقوا إلى شَعَف الجبال ينظرون ما هو فاعل .

وفي اليوم الثاني فشا في جند الحبشى داء الجدري والحصبية ، قال عكرمة : وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب ، ففعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله ، فكان لهم يتناثر ويتساقط ، فدعّر الجيش وصاحبه وولّوا هاربين ، وأصيب الحبشى ولم يزل لحمه يسقط قطعة قطعة ، وأحمة أمّة ، حتى انصدع صدره ومات في صنعاء .

### الإيضاح

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟) أي ألم تعلم الحال العجيبة والكيفية المائلة الدالة على عظم قدرة الله تعالى وكامل علمه وحكمته ، فيما فعل بأصحاب الفيل الذين قصدوا هدم البيت الحرام ، فتلك حال قد جاءت على غير ما يعرف من

الأسباب والعلل ، إذ لم يهد أن يحى ، طير في جهة فيقصد قومادون قوم ، وهم معهم في جهة واحدة ، فذلك أمانة أنه من صنع حكيم مدبر بعثه لإنفاذ مقصد معين .  
 وإنما عبر عن العلم بالرؤية ، للايماء إلى أن الخبر بهذا القصص متواتر مستفيض ، فالعلم به مساو في قوة الثبوت مع الوضوح — للعلم الناشئ عن الرؤية والمشاهدة .  
 وخلاصة ذلك — إنك قد علمت ذلك علما واضحا لا لبس فيه ولا خفاء .

ثم بين الحال التي وقع عليها فعله فقال :

( ألم يجعل كيدهم في تضليل ؟ ) أى إنك لترى ما كان عليه فعل الله بأولئك

القوم ، فقد ضيع تدبيرهم ، وخيب سعيهم .

ثم فصل تدبيره في إبطال كيد أولئك القوم فقال :

( وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل ) أى إنه تعالى أرسل

عليهم فرقا من الطير تحمل حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش ، فابتلوا بمرض الجدرى أو الحصبة حتى هلكوا .

وقد يكون هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض ، أو تكون هذه الحجارة من الطين اليابس المسموم الذى تحمله الرياح ، فيعاق بأرجل هذا الطير ، فاذا اتصل بجسم دخل في مسامه ، فأثار فيه قروحا تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه .

ولاشك أن الذباب يحمل كثيرا من جراثيم الأمراض ، فوقع ذبابة واحدة ملوثة بالمكروب على الإنسان كافية في إصابته بالمرض الذى يحمله ، ثم هو ينقل هذا المرض إلى الجسم الغفير من الناس ، فإذا أراد الله أن يهلك جيشا كثير العدد ببعوضة واحدة لم يكن ذلك بعيدا عن مجرى الآف والعادة . وهذا أقوى في الدلالة على قدرة الله وعظيم سلطانه ، من أن يكون هسلا كهو بكبار الطيور ، وغرائب الأور ، وأدل على ضعف الإنسان وذل أمام النهر الإلهى ، وكيف لا وهو مخلوق تبليده ذبابة . ونقض مضجعه ببعوضة ، ويؤذيه هبوب الريح .

قال الأستاذ الإمام : فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت ، أرسل الله عليه ما يوصل إليه مادة الجدرى أو الحصبة ، فأهلكته وأهلكته قومه قبل أن يدخل مكة ، وهي نعمة من الله غمر بها أهل حرمة على وثنيهم ، حفظا لبيته حتى يرسل إليه من يحميه بقوة دينه صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت نقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت بدون جرم اجترمه ، ولا ذنب اقترقه اه .

(فجعلهم كعصف مأكول) أى يجعل هؤلاء القوم كعصف وقع فيه الأكل وهو السوس ، أو أكلت الدواب بعضه ، وتناثر بعضه الآخر من بين أسنانها .  
وصل ربنا على محمد الذى قصصت عليه ما فيه العبرة لمن اذكر ، وأوحيت إليه ما فيه مزدجر ، لمن تدبر واعتبر ، إنك أنت العليم الحكيم .

### سورة قريش

هى مكة ، وآياتها أربع ، نزلت بعد سورة التين .  
ومناسبتها لما قبلها — أن كلا منهما تضمن ذكر نعمة من نعم الله على أهل مكة ؛ فالأولى تضمنت إهلاك عدوم الذى جاء ليهدم بيوتهم وهو أساس مجدهم وعزهم؛ والثانية ذكرت نعمة أخرى هى اجتماع أمرهم ، والتثام شملهم ، ليتمكنوا من الارتحال صيفا وشتاء فى تجارتهم ، وجلب الميرة لهم .  
ولوثيق الصلة بين السورتين كان أبى بن كعب يعتبرهما سورة واحدة ، حتى روى عنه أنه لم يفصل بينهما بيسملة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ (١) إِلَّا إِلَافُهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) .

### شرح المفردات

تقول ألفت الشيء إلفاً وإلفاً ، وآلفته إيلافاً : إذا لزمته وعكفت عليه مع الأنس به وعدم النفور منه ، وقريش : اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة ، والرحلة : ارتحال القوم أى شدم الرجال للمسير ، أطعمهم : أى وسع لهم الرزق ، ومهد لهم سبيله ، وأمَّنهم : أى جعلهم فى أمن من التمدى عليهم ، والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم .

### الإيضاح

(لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت) أى فلتعبد قريش ربها شكراله على أن جعلهم قوماً تَجَرَّأَ ذوى أسفار فى بلاد غير ذات زرع ولا ضرع ، لهم رحلتان رحلة إلى اليمن شتاء لجلب الأعطار والأفاويه التى تأتى من بلاد الهند والخليج الفارسى إلى تلك البلاد ؛ ورحلة فى الصيف إلى بلاد الشام لجلب الحاصلات الزراعية إلى بلادهم المحرومة منها .

وقد كان العرب يحترمونها فى أسفارهم ، لأنهم جيران بيت الله وسكان حرمه ، وولاة السكبة ، فيذهبون آمنين ، ويعودون سالمين ، لا يمسهم أحد بسوء على كثرة ما كان بين العرب من السلب والنهب والغارات التى لاتنقطع .

مكان احترام البيت ضرباً من القوة المعنوية التى تحتوى بها قريش فى الأسفار ، ولهذا ألفتها نفوسهم ، وتعلقت بالرحيل ، استدراراً للرزق .

وهذا الإجلال الذي ملك نفوس العرب من البيت الحرام ، إنما هو من تسخير رب البيت سبحانه ، وقد حفظ حرمة ، وزادها في نفوس العرب رَدُّ الحبشة عنه حين أرادوا هدمه ، وإهلاكهم قبل أن ينقضوا منه حجرا ، بل قبل أن يدنوا منه . ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب ، ونقصت حرمة عندهم ، واستطالت الأيدي على سُقَّارهم لنفروا من تلك الرحلات ، فقَلَّتْ وسائل الكسب بينهم ، لأن أرضهم ليست بذات زرع ولا ضرع ، وما هم بأهل صناعة مشهورة يحتاج إليها الناس فيأتوهم وهم في عُقْر ديارهم ، ليأخذوا منها ، فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق ، وتنقطع عنهم ينابيع الخيرات .

( فليعبدوا رب هذا البيت ) الذي حماه من الحبشة وغيرهم ، ومكَّنْ منزلته في النفوس ، وكان من الحق أن يفردوه بالتعظيم والإجلال .

ثم وصف رب هذا البيت بقوله :

( الذي أطعمهم من جوع ) أي إنه هو الذي أوسع لهم الرزق ، ومهد لهم سبله .

ولولاه لكانوا في جوع وضنك عيش .

( وآمنهم من خوف ) أي وآمن طريقهم ، وأورثهم القبول عند الناس ، ومنع

عنهم التمدي والتناول إلى أموالهم وأنفسهم ، ولولاه لأخذهم الخوف من كل مكان فحاشوا في ضنك وجهد شديد .

وإذا كانوا يعرفون أن هذا كله بفضل رب هذا البيت ، فلم يتوسلون إليه

بتعظيم غيره ، وتوسيط سواه عنده ؟ مع أنه لا فضل لأحد ممن يوسطونه في شيء من النعمة التي هم فيها ، نعمة الأمن ونعمة الرزق ، وكفاية الحاجة .

اللهم ألهم قلوبنا الشكر على نعمك التي تترى علينا ، وزدنا بسطة في العلم

والرزق .

## سورة الماعون

هى مكية ، وآياتها سبع ، نزلت بعد سورة التكاثر .  
ووجه مناسبتها لما قبلها :

(١) أنه لما قال فى السورة السابقة : « أَطْعَمَهُمْ مِنْ بُرُوعٍ » ذم فى هذه من لم  
يحضّ على طعام المسكين .

(٢) أنه قال فى السورة السابقة : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » وهنا ذم من  
سها عن صلاته .

(٣) أنه هناك عدد نعمه على قريش وهم مع ذلك ينكرون البعث ويحسدون  
الجزاء ، وهنا أتيه بتهديدهم وتخويفهم من عذابه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أرَأَيْتَ الَّذِي يُكذِّبُ بِالْدينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢)  
وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ  
صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) .

## شرح المفردات

أرأيت : أى هل عرفت وعلمت ؛ والمراد بذلك تشويق السامع إلى تعرف  
ما يذكر بعده مع تضمنه اتمعجب منه ، كما تقول : أرأيت فلانا ماذا صنع ، وأرأيت  
فلانا كيف عرض نفسه للخاطر - أنت فى كل ذلك تريد بعث المخاطب على  
التمعجب مما فعل ، والدين : هو الخضوع لما وراء المحسوس من الشؤون الإلهية التى  
لا يمكن الإنسان أن يعرف حقيقتها ، وإنما يجد آثارها فى السكون باعثة على الإذعان

والتصديق ، كوجود الله ووحدانيته ، وبعثه الرسل مبشرين ومنذرين ، والتصديق بحياة أخرى يعرض الناس فيها على ربهم للجزاء ، يدع اليتيم : أى يدفعه ويزجره زجرا عنيفا كما جاء فى قوله : « يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعْوًا » يحض : أى يحث ويدعو الناس إلى ذلك ، يراءون : أى يفعلون بقدر ما يرى الناس أنهم يفعلون ذلك من غير أن تستشعر قلوبهم خشية الله بها ؛ وحقيقة الرياء طلب ما فى الدنيا بالعبادة ، وطلب المنزلة فى قلوب الناس ، ويكون فعل ذلك على ضروب :

- (١) بتحسين السمات مع إرادة الجاه وثناء الناس .
  - (٢) بلبس الثياب القصار أو الخشنه ليأخذ بذلك هيئة الزهاد فى الدنيا .
  - (٣) بإظهار السخط على الدنيا ، وإظهار التأسف على ما يفوته من فعل الخير .
  - (٤) بإظهار الصلاة والصدقة ، أو بتحسين الصلاة لرؤية الناس له .
- والماعون : ماجرت العادة بأن يسأله الفقير والغنى كالقدر والذلوالفأس .

وقال جار الله : ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فرىضة ، فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها لقوله عليه الصلاة والسلام : « ولا عمّة فى فرائض الله » لأنها أعلام الإسلام ، وشعائر الدين ، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ، فوجب إماطة التهمة بالإظهار ، وإن كان تطوعا فختمه أن يخفى ، لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه ، فإن أظهره قاصدا الاقتداء به كان جميلا ، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فيئتى عليه بالصلاح ؛ وعن بعضهم أنه رأى رجلا فى المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها فقال : ما أحسن هذا لو كان فى بيتك ؟ وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسجعة .

على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص ، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرياء أخفى من ديب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على المسح الأسود » اهـ . المسح : كساء خشن من صوف يلبسه الزهاد .

## الإيضاح

(أرأيت الذي يكذب بالدين) أى هل عرفت ذلك الذى يكذب بما وراء إدراكه من الأمور الإلهية ، والشئون الغيبية ، بعد أن ظهر له بالدليل القاطع ، والبرهان الساطع ، فإن كنت لاتعرفه بذاته ، فأعرفه بصفاته وهى :

- (١) ( فذلك الذى يدعّ اليتيم ) أى فذلك المكذب بالدين هو الذى يدفع اليتيم ويزجره زجرا عنيفا إن جاء يطلب منه حاجة ، احتقارا لشأنه وتكبرا عليه .  
 (٢) ( ولا يحض على طعام المسكين ) أى ولا يبحث غيره على إطعامه ، وإذا كان لا يبحث غيره على ذلك ولا يدعو إليه ، فهو لا يفعله بالأولى .

وفى هذا توجيه لأنظارتنا إلى أنا إذا لم نستطع مساعدة المسكين كان علينا أن نطلب من غيرنا معونته ونحثه على ذلك كما تفعل جماعات الخير : « الجمعيات الخيرية » .  
 وقصارى ماسلف — إن المكذب بالدين صفتين : أولاها أن يحتقر الضعفاء ويتكبر عليهم . وثانيتها أن يبخل بماله على الفقراء والمحاويج ، أو يبخل بسعيه لدى الأغنياء ، ليساعدوا أهل الحاجة ممن تحقق مجرمهم عن كسب ما ينقذهم من الضرورة ، ويقوم لهم بكفاف العيش .

وسواء أكان المحتقر للحقوق ، البخیل بالمال والسعى لدى غيره مصليا أو غير مصلّ فهو فى صف المكذبين ، ولا تحرجه صلاته منهم ، لأن المصدق بشئ ، لا يطاوعه نفسه على الخروج مما صدّق به ، فلو صدّق بالدين حقا لصار منكسرا متواضعا لا يتكبر على الفقراء ولا ينهر المساكين ولا يزجرهم : فمن لم يفعل شيئا من ذلك فهو مرء فى عمله ، كاذب فى دعواه ، ومن ثم قال سبحانه :

( فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون ) أى فعذاب لمن يؤدى الصلاة بجسسه ولسانه من غير أن يكون لها أثر فى نفسه ، ومن غير أن تؤتى ثمرتها التى

شرعت لأجلها ، لأن قلبه غافل عما يقوله اللسان ، وتفعله الجوارح ، فيركع وهو لاهٍ عن ركوعه ، ويسجد وهو لاهٍ عن سجوده ، ويكبر وهو لاهٍ ما يقول ؛ وإنما هي حركات اعتادها ، وكلمات حفظها ، لاتدرك نفسه معناها ، ولا تصل إلى معرفة ثمرتها .  
(الذين هم يراون ) أى إنهم يفعلون أفعالاً ظاهرة بقدر ما يرى الناس ، دون أن تستشعر قلوبهم بها ، أو تصل إلى معرفة حكمها وأسرارها .

(ويعنون الماعون ) أى ويمنعون ما لم تجر العادة بمنعه مما يسأله الفقير والغنى ، وينسب منعه إلى لؤم الطبع وسوء الخلق كالقدر والفأس ، والقدوم ونحو ذلك .

قال الأستاذ الإمام : فأولئك الذين يصلون ، ولا يأتون من الأعمال إلا ما يرى للناس ، مما لا يكلفهم بذل شيء من مالهم ، ولا يخشون منه ضرراً يلحق بأبدانهم ، أو نقصاً يُبليهم بجاههم ، ثم يمنعون ما عونهم ، ولا ينهضون بيباعث الرحمة إلى سدّ حاجة الموزين ، وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم وطمانينتهم - لاتنفعهم صلاتهم ، ولا تخبرهم عن حد المكذبين بالدين ، لافرق بين من وسما أنفسهم بسمة الإسلام أو غيره ، فإن حكم الله واحد ، لا محاباة فيه للأسماء المنتحلة ، التى لا قيمة لها إلا بمعانيها الصحيحة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمال وتقرير الشرائع .

فخاصة المصدق بالدين التى تميزه عن سواه من المكذبين هو العدل والرحمة وبذل المعروف للناس ، وخاصة المكذب التى يمتاز بها عن المصدقين هى احتقار حقوق الضعفاء وقلة الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة ، وحب الأثرة بالمال ، والتعزز بالقوة ، ومنع المعروف عن يستحقه من الناس .

فهل للمسلمين الذين يزعمون أنهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به أن يقيسوا أحوالهم وما يجدونه من أنفسهم بما يتلون فى هذه السورة الشريفة ؟ ليعرفوا هل هم من قسم المصدقين أو المكذبين ؟ وليُقَاموا عن الغرور برسم هذه الصلاة التى لا أثر لها إلا فى ظواهر أعضائهم ، وبهذا الجوع الذى يسمونه صياماً

ولا أثر له إلا في عبوس وجوههم ، وبداذة ألسنتهم ، وضياع أوقاتهم في اللهو والبطالة ، ويرجعوا إلى الحق من دينهم ، فيقيموا الصلاة ، ويحيوا صورتها بالخشوع للعلی الأعلى ، فلا يخرجون من الصلاة إلا وهم ذاكرون أنهم عبيد لله يلمسون رضاه في رعاية حقوقه بما يراه ، ويجعلوا من الصوم مؤدبا للشهوة ، ومهذبا للرغبة ، رادعا للنفس عن الأثرة ، فلا يكون في صومهم إلا الخير لأنفسهم ولقومهم ، ثم يؤدون زكاة المفروضة عليهم ، ولا يبخلون بالمعونة فيما ينفع الخاصة والعامة اه والله أعلم .

## سورة الكوثر

هي مكية ، وآياتها ثلاث ، نزلت بعد سورة العاديات .

ومناسبتها لما قبلها - أنه وصف في الأولى الذي يكذب بالدين بأمر أربع :  
البخل . الإعراض عن الصلاة . الرياء . منع المعونة - وهنا وصف ما منحه رسوله صلى الله عليه وسلم من الخير والبركة ، وذكر أنه أعطاه الكوثر وهو الخير الكثير ، والحرص على الصلاة ودوامها ، والإخلاص فيها والتصديق على الفقراء .

### أسباب نزول هذه السورة

كان المشركون من أهل مكة والمنافقون من أهل المدينة يعيبون النبي صلى الله عليه وسلم ويلمزونه بأمر :

(١) أنه إنما اتبعه الضعفاء ولم يتبعه السادة الكبراء ، ولو كان ما جاء به الدين صحيحا لكان أنصاره من ذوى الرأى والمكانة بين عشائهم ، وهم ليسوا ببدع في هذه المقالة . فقد قال قوم نوح له فيما قصه الله علينا : « وَمَا تَرَاكَ أَنْتَبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَادِبُوا بِرَأْيِهِ ، وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » .

وقد جرت سنة الله في خلقه أن يسرع في إجابة دعوة الرسل الضعفاء ، من قبل أنهم لا يملكون مالا فيخافوا أن يضيع في سبيل الدعوة الجديدة ، ولا جاها ونفوذا فيخافوا أن يضيعا أمام الجاه الذي مُنِحَ صاحب الدعوة - وأن يتخلف عنها السادة الكبراء حتى يدخلوا في دين الله وهم له كارهون ، ومن ثم يظل الجدل بين أولئك الصناديد ورسول الله ، ويأخذون في انتقاصهم ، وكييل التهم لهم تهمة بعد تهمة ، والله ينصر رسله ويؤيدهم ويشد أزرهم .

وعلى هذا السنن سار أهل مكة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد تخلف عنه ساداتهم وكبرائهم حسدا له ولقومه الأذنين .

(٢) إنهم كانوا إذا رأوا أبناء يمتون ، يقولون : انقطع ذكر محمد وصار أبترا ، يحسبون ذلك عيبا فيلزمونه به ويحاولون تفتير الناس عن اتباعه .

(٣) إنهم كانوا إذا رأوا شدة نزك المؤمنين طاروا بها فرحا وانتظروا أن تدول اللؤلؤ عليهم وتذهب ربحهم ، فتمود إليهم مكاتبتهم التي زعزعتها الدين الجديد .  
فجاءت هذه السورة لتؤكد لرسوله أن ما يرجف به المشركون وهم لاحقية له ، ولتمحص نفوس الذين لم تصلب قناتهم ، ولترد كيد المشركين في نحورهم ، ولتعلمهم أن الرسول منتصر لا محالة ، وأن أتباعه هم المفلحون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ

هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) .

## شرح المفردات

الكوثر : المفرط في الكثرة ، قيل لأعرابية رجعت إليها من السفر : بم آب  
ابنك ؟ قالت : آب بكوثر ، ويقال للرجل الكثير العطاء هو كوثر ، قال السكّيت  
الأسدي :

وأنت كثير يا بن مروان طيبٌ وكان أبوك ابن العقائل كوثرًا  
والمراد به هنا النبوة والدين الحق والهدى وما فيه سعادة الدنيا والآخرة ،  
والشأنى : المبعوض ، وأصل الأبتَر : الحيوان المقطوع الذنب ، والمراد به هنا ما لا يبقى  
له ذكر ولا يدوم له أثر - شبه بقاء الذكر الحسن واستمرار الأثر الجميل بذب  
الحيوان من حيث إنه يتبعه وهو زينة له ، وشبه الحرمان منه ببت الذنب وقطعه .

## الإيضاح

( إنا أعطيناك الكوثر ) أى إنا أعطيناك من المواهب الشيء الكثير الذى  
يعجز عن بلوغه العبد ، ومنحناك من القضايل ما لا سبيل للوصول إلى حقيقته ،  
وإن استخف به أعداؤك واستفرد ، فإنما ذلك من فساد عقولهم ، وضعف إدراكهم .  
( فصل لربك وانحر ) أى اجعل صلاتك لربك وحده ، وانحر ذبيحتك  
وما هو نسك لك لله أيضا ، فإنه هو الذى ربك وأسبغ عليك نعمه دون سواه كما  
قال تعالى أمره له : « قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَأَسْبَغْتُ وَنَحَّيْتُ وَمَنَّمَنِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .  
لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » .

وبعد أن بشر رسوله صلى الله عليه وسلم بأعظم البشارة ، وطالبه بشكره على  
ذلك ، وكان من تمام النعمة أن يصبح عدوه مقهورا ذليلا ، أعقبه بقوله :  
( إن شانتك هو الأبتَر ) أى إن مبغضك كأننا من كان هو المقطوع ذكره من

خيري الدنيا والآخرة، وأما أنت فستبقى ذريتك ، ويبقى حسن صيتك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة .

وشأنوه ما كانوا يبعضونه لشخصه ، لأنه كان محبباً إلى نفوسهم ، بل كانوا يفتنون ماجاء به من الهدى والحكمة ، لأنه سقاه أحلامهم . وعاب معبوداتهم ، ونادى بفراق ما ألفوه ونشئوا عليه .

وقد حقق الله في شأنه من العرب وغيرهم في زمنه صلى الله عليه وسلم ما يستحقونه من الخذلان والخسران ، ولم يبق لهم إلا سوء الذكر ؛ أما النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن اهتدى بهديه فان الله رفع منزلتهم فوق كل منزلة ، وجعل كلهم هي العليا .

قال الحسن رحمه الله : عنى المشركون بكونه أبتر : أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه . والله بين أن خصمه هو الذى يكون كذلك اهـ .

وصل ربنا على نبيك محمد الذى أعليت ذكره ، وأدلت شأنه ، صلاة تبقى مابقي الدهر .

## سورة الكافرون

هي مكية ، وآياتها ست ، نزلت بعد سورة الماعون .

ومناسبتها لما قبلها — أنه في السورة السابقة أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بعبادته ، والشكر له على نعمه الكثيرة ، بإخلاص العبادة له ، وفي هذه السورة التصريح بما أشير إليه فيما سلف .

## أسباب نزول السورة

روى أن الوليد بن المغيرة والعماص بن وائل السهمي والأسود بن عبد المطالب وأمية بن خنفة في جماعة آخرين من صناديد قريش وساداتهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : هلم يا محمد فاتبع ديننا وندع دينك ، ونشركك في أمرنا كله ، تعبد آلهتنا سنة ، وتعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيرا كنا قد شركناك فيه ، وأخذنا حظا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيرا كنت قد شركتنا في أمرنا ، وأخذت حظك منه ، فقال : معاذ الله أن نشرك به غيره ، وأنزل الله ردا على هؤلاء هذه السورة ، ففدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام وفيه الملائكة من قريش ، فقام على ربوسهم ، ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك ، وطلقوا يؤذونه ويؤذون أصحابه حتى كانت الهجرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ  
مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَتَمُّ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)  
لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) .

## الإيضاح

(قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون) أى قل لهم : إن الإله الذى تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذى أعبده ، لأنكم تعبدون من يتخذ الشفعاء أو الولد ، أو يتجلى فى شخص أو يتجلى فى صورة معينة أو نحو ذلك مما تزعمون ، وأنا أعبد إلهاً لا مثيل له ولا نداء ، وليس له ولد ولا صاحبة ، ولا يحل فى جسم ، ولا تدرك

كنهه العقول ، ولا تحويه الأمكنة ، ولا تمر به الأزمنة ، ولا يتقرب إليه بالشفعاء ، ولا تقدم إليه الوسائل .

وعلى الجلة فبين ما تعبدون وما أعبد ، فارق عظيم ، و بون شاسع ، فأتم تصفون معبودكم بصفات لا يحمل بمعبودى أن يتصف بها .

( ولا أنتم عابدون ما أعبد ) أى إنكم لستم بعابدين إلهى الذى أدعو إليه لخالفه صفاته لإلهكم ، فلا يمكن التوفيق بينهما بحال .

وبعد أن نفي الاختلاف فى المعبود نفي الاختلاف فى العبادة ، من قبل أنهم كانوا يظنون أن عبادتهم التى يؤدونها أمام شفعاتهم ، أو فى المعابد التى أقاموها لها أو فى خلواتهم وهم على اعتقادهم بالشفعاء عبادة خالصة لله ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يفضلهم فى شيء فقال :

( ولا أنا عبد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد ) أى ولا أنا بعابد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتى قاله أبو مسلم الأصفهاني .

وخلاصة ماسلف — الاختلاف التام فى المعبود ، والاختلاف البين فى العبادة فلا معبودنا واحد ، ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى منزه عن الندب والنظير ، متعال عن الظهور فى شخص معين ، وعن الحيازة لشعب أو واحد بعينه ، والذى تعبدونه أتم على خلاف ذلك .

كما أن عبادتى خالصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك . مصحوبة بانغلة عن الله تعالى ، فلا تسمى على الحقيقة عبادة .

ثم هددهم وتوعدهم فقال :

( لكم دينكم ولى دين ) أى لكم جزاؤكم على أعمالكم ولى جزائى على عملى كما جاء فى قوله تعالى : « لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ » .

وصل ربنا على محمد الذى جعل الدين لك خالصا ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

## سورة النصر

هي مدنية ، وآياتها ثلاث ، نزلت بعد سورة التوبة .  
ومناسبتها لما قبلها — أنه لما ذكر في السورة السابقة اختلاف دين الرسول الذي يدعو إليه ، ودين الكفار الذي يكفون عليه — أشار في هذه السورة إلى أن دينهم سيضمحل ويزول ، وأن الدين الذي يدعو إليه سيغلب عليه ، ويكون هو دين السواد الأعظم من سكان العمورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) .

## شرح المفردات

النصر: العون؛ يقال نصره على عدوه ينصره نصرا : أى أعانه ، ونصر الغيث الأرض : إذا أعان على إظهار نباتها ومنع من قحطها ، قال شاعرهم :  
إذا دخل الشهر الحرام تجاوزى بلاد تيم وانصرى أرض عاص  
والفتح : الفصل بينه وبين أعدائه وإعزاز دينه وإظهار كلمته ، والأفواج : واحد فوج ؛ وهو الجماعة والطائفة ، واستغفره : أى أسأله أن يغفر لك ذنوبك ولقومك الذين اتبعوك ، توابا : أى كثير القبول لتوبة عباده .

## المعنى الجملى

كان للمؤمنون أيام قلاتهم وقرهم وكثرة عدد عدوهم وقوته ، يمر الضجر بنفوسهم ويُقبض مضاجعهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزن ويضيق صدره ،

لتكذيب قومه له على وضوح الحق وسطوع البرهان . كما قال تعالى مخاطباً رسوله :  
 « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » وقال :  
 « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ  
 عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَائِكَةٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » وقال :  
 « قَدْ نَعَلْتُمْ إِيَّاهُ لِيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ . فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ  
 بآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ » .

وفي هذا القلق والضجر استبطاء لنصر الله للحق الذي بعث به نبيه ، بل فيه سهو عن وعد الله بتأييد دينه ، كما جاء في قوله : « وَرَأَوْا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ  
 وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ؟ » .

هذا الضجر ليس بنقص يعاب به النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن الله يعده  
 على أقرب عبادته إليه ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المنقر بين ، وقد يراه النبي  
 صلى الله عليه وسلم إذا رجع إلى نفسه وخرج من غمرة شدته ذنباً يتوب إلى الله  
 منه ويستغفره ، ومن ثم ورد الأمر الإلهي بالاستغفار مما كان منه من حزن وضجر  
 في أوقات الشدة حين يجيء الفتح والنصر .

## الإيضاح

( إذا جاء نصر الله والفتح ) أى إذا رأيت نصر الله لدين الحق ، وانهمزام أهل  
 الشرك وخذلانهم ، وفتح الله بينك وبين قومك ، بجمل الغلبة لك عليهم ، وإعزاز  
 أمرك ، وإعلاء كلمتك .

( ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ) أى ورأيت الناس يدخلون  
 في دينك ، وينضوون تحت لوائك جماعات لا أفراداً كما كان في بدء أمرك  
 وقت الشدة .

(فسبح بحمد ربك) أى إذا تم لك كل ذلك فتره ربك وقدسه عن أن يهمل الحق ، ويدعه للباطل يتغلب عليه ، وعن أن يخلف وعده الذى وعدك به ، بأن يجعل كتتك العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ويتم نعمته عليك ولو كره الكافرون .

ولیکن تنزيهه بحمده على ما أولاك من نعم ، وشكره على ما منحك من خير، والثناء عليه بما هو له أهل ، فإنه هو القادر الذى لا يقبله غالب ، والحكيم الذى إذا أهمل الكافرين ، فلن يضيع أجر العاملين .

(واستغفره) أى واسأله أن يغفر لك ولمن اتبعك من أصحابك ما كان منهم من القلق والضجر والحزن والأسى لتأخر النصر .

والتوبة من هذا القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعده الله ، وتغليبها على خواطر النفس التى نحدثها الشدائد ، وإن كان ذلك مما يشق على نفوس البشر، ولكن الله قد علم أن نفس رسوله قد تبلغ ذلك الكمال ، ومن ثم أمره به ، وهكذا يحدث فى نفوس الكملة من أصحابه وأتباعه ما يقارب ذلك ، والله يتقبله منهم .

ثم علل طلب الاستغفار بقوله :

(إنه كان تواباً) أى إنه سبحانه كثير القبول لتوبة عباده ، لأنه يربى النفوس بالحن ، فإذا وجدت الضعف أنهضها إلى طلب القوة ، وشدّد عزيمتها بحسن الوعد ، ولا ينزل بها حتى تبلغ مرتبة الكمال .

وخلاصة ما سلف - إذا حصل الفتح وتحقق النصر ، وأقبل الناس على الدين الحق فقد زال الخوف ، فعليك أن تسبح ربك وتشكره وتنزع عما كان من خواطر النفس وقت الشدة ، فلن تعود الشدائد تأخذ نفوس المحضين من عباده ماداموا على تلك الكثرة ، ينزل بساحتهم الإخلاص وتجمعهم الألفة .

وقد فهم النبي صلى الله عليه وسلم من هذا أن الأمر قد تم ، ولم يبق إلا أن يلحق بالرفيق الأعلى ، فقل فيما روى عنه : إنه قد نُعِيَتْ إليه نفسه .

قال ابن عمر : نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ، ثم نزلت « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » فعاش بعدها ثمانين يوماً ، ثم نزلت آية الكلالاة فعاش بعدها خمسين يوماً ، ثم نزلت : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً ، ثم نزلت : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » فعاش بعدها واحداً وعشرين يوماً .

وصلَّ وسلَّم ربنا على محمد وآله وأصحابه الذين هاجروا وجاهدوا ورابطوا في سبيل الله .

## سورة المسد

هي مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة الفتح .

ومناسبتها لما قبلها — أنه ذكر في السورة السابقة أن ثواب المطيع حصول النصر والاستعلاء في الدنيا ، والثواب الجزيل في العقبى . وهنا ذكر أن عاقبة العاصي الخسار في الدنيا والعقاب في الآخرة .

### أسباب نزول هذه السورة

روى البخارى عن ابن عباس أنه قال : « خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى (يا صباحاه) فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى ؟ فالوا نعم ، قال : فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب : ألماذا جمعتمنا ؟ تبأ لك !! وفي رواية : إنه قام ينفض يديه ويقول : تبأ لك سائر اليوم ، ألماذا جمعتمنا ؟ فأنزل الله « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢)  
سَيَصِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَإِمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا  
حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) .

### شرح المفردات

التياب : الهلاك والخسران قال تعالى : « وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ »  
وأبو لهب : أحد أعمام النبي صلى الله عليه وسلم ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ،  
وتب : أى قد تب وخسر ، يصلى نارا : أى يجد حرها ويذوقه ، ولهب النار : ما يسطع  
منها عند اشتعالها وتوقدها ، والجيد : العمق ، والمسد : الليف .

### الايضاح

(تبت يدا أبى لهب) هذا دعاء عليه بالخسران والهلاك ، ونسب الهلاك إلى  
اليدين ، لأنهما آلة العمل والبطش ، فإذا هلكتا وخسرتا كان الشخص كأنه  
معدوم هالك .

(وتب) أى وقد تب وهلك .

والجملة الأخرى دعاء عليه بالخسران والهلاك ، والجملة الثانية إخبار من الله بأن  
هذا الدعاء قد حصل ، وقد خسر الدنيا والآخرة .

ثم ذكر أن ما كان يعتره به فى الدنيا من مال وجاه لم يغن عنه من الله شيئا يوم  
القيامة فقال :

( ما أغنى عنه ماله وما كسب ) أى لم يفده حينئذ ماله ولا عمله الذى كان يأتيه  
فى الدنيا من معاداته رسول الله طيبا للعلو والظهور ، فكما أن ذلك لم يجده شيئا

في الدنيا ، إذ لم يتغلب على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يقطع ما أراد الله أن يوصل - لم يفده في الآخرة ، بل لحقه البوار والنكال وعذاب النار .

وقد كان أبولهب شديد العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم ، شديد التحريض عليه ، شديد الصدّ عنه .

روى أحمد عن ربيعة بن عباد قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضى الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابئ كاذب ، يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبولهب » .

ومن ذلك تعلم أن أبالهب كان يصدّ عن الحق ، وينفّر عن اتباعه ، وذاع عنه تكذيبه للرسول صلى الله عليه وسلم وتحديّه واتباع خطواته لدحض دعوته ، والخط من شأن دينه وما جاء به .

( سيصلى نارا ذات لهب ) أى سيذوق حر النار ويعذب بلظاها .

وخلاصة ماسلف — خسر أبولهب وضل عمله ، وبطل سعيه الذى كان يسمعه للصد عن دين الله ، ولم يقن عنه ماله الذى كان يتباهى به ، ولا جدّه واجتهاده في ذلك ، فان الله أعلى كلمة رسوله ، ونشر دعوته ، وأذاع ذكره ، وأنه سيعذب يوم القيامة بنار ذات شرر وهيب ، وإحراق شديد ، أعدها الله لمنه من الكفار المعاندين ، فوق تعذيبه في الدنيا بإبطال سعيه ، ودحض عمله ؛ وستعذب معه امرأته التى كانت تعاونه على كفره وجحده ، وكانت عضده في مشاكة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيذائه ، وكانت تمشى بالنميمة للإفساد ، وإيقاد نار الفتنة والعداوة كما قال :

( و امرأته حمالة الحطب ) أى وستعذب أيضا بهذه النار امرأته أروى بنت حرب أخت أبى سفيان بن حرب ، جزاء لها على ما كانت تجترحه من السعى بالنميمة إطفاء لدعوة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ والعرب تقول لمن يسعى في الفتنة ويفسد

بين الناس ، هو يحمل الحطب بينهم ، كأنه بعمله يحرق ما بينهم من صلوات .  
وقيل إنها كانت تحمل حُزَم الشوك والحَسَك والسَعْدَان ، وتنتثرها بالليل  
في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم لإيذائه .

وقد زاد سبحانه في تشجيع عملها وتقبيح صورته فقال :

( في جيبها حبل من مسد ) أى في عنقها حبل مما مُسِد من الجبال أى أحكم  
فتله ، وقد صورها الله بصورة من تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيبها  
كبعض الخطأبات المتهنئات احتقارا لها ، واحتقارا لبعليها ، حين اختارت  
ذلك لنفسها .

وقصارى أمرها — إنها في تكليف نفسها المشقة الفادحة ، للإفساد بين الناس  
وإيقاد نيران العداوة بينهم ، بمنزلة حاملة الحطب التي في عنقها حبل خشن تشد به  
ماتحمله إلى عنقها حتى تستقل به ، وهذه أبشع صورة تظهر بها امرأة تحمل الحطب  
وهي على تلك الحال .

ويرى بعض العلماء أن المراد بيان حالها وهي في نار جهنم ، إذ تكون على  
الصورة التي كانت عليها في الدنيا ، حين كانت تحمل الشوك إيذاء لرسول الله صلى  
الله عليه وسلم : فهي لا تزال تحمل حزمة من حطب النار ، ولا يزال في جيبها حبل  
من سلاسلها ، ليكون جزاؤها من جنس عملها ؛ فقد روى عن سعيد بن المسيب أنه  
قال : كانت لأم جميل قلادة فاخرة فقالت : لأنفقته في عداوة محمد ، فأعقبها الله  
حبلا في جيبها من مسد النار .

نسأل الله الوقاية من النار ، والبعد من الصدء عن دينه وكتابه ، إنه  
هو السميع العليم .

## سورة الإخلاص

هي مكية ، وآياتها أربع ، نزلت بعد سورة الناس .

### أسباب نزولها

روى الضحاك أن المشركين أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصم ابن الطميلي فقال له عنهم : شقت عصانا (فرقت كلمتنا) . وسببت آلهتنا ، وخالفت دين أبائنا ، فإن كنت فقيرا أغنيناك ، وإن كنت مجنونا داويناك ، وإن كنت قد هويت امرأة زوجنا كها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لست بفقير ، ولا مجنون ، ولا هويت امرأة ، أنا رسول الله ، أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته ، فأرسلوه ثانية وقالوا : قل له : بين لنا جنس معبودك ، أمن ذهب أم من فضة ؟ فأُنزل الله هذه السورة .

### المعنى الجملي

هذه السورة تضمنت أهم الأركان التي قامت عليها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي توحيد الله وتنزيهه ، وتقرير الحدود العامة للأعمال ، بيان الصالحات وما يقابها ، وأحوال النفس بعد الموت من البعث وملافة الجزاء من ثواب وعقاب ، وقد ورد في الخبر : « إنها تعدل ثلث القرآن » لأن من عرف معناها ، وتدبر ما جاء فيها حق التدبر ، علم أن ما جاء في الدين من التوحيد والتنزيه تفصيل لما أجمل فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ

يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) .

## شرح المفردات

أحد : أى واحد لا كثرة فى ذاته ، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة مادة  
ولا من أصول متعددة غير مادة ، والضمد : الذى يقصد فى الحاجات كما قال :  
نقد بكر الناعى بخير بنى أسد بعمر بن مسعود والسيد الضمد  
والكفاء والمكافى : النظير فى العمل والقدرة .

## الإيضاح

( قل هو الله أحد ) أى قل لمن سألتك عن صفة ربك : الله هو الواحد المنزه  
عن التركيب والتعدد ، لأن التعدد فى الذات مستلزم لانتقار المجموع إلى تلك الأجزاء  
والله لا يفتقر إلى شيء .

( الله الضمد ) أى هو الله الذى يقصده العباد ويتوجهون إليه ، لقضاء ما أهمهم  
دون واسطة إلى شفيق ، وبهذا أبطل عقيدة مشركى العرب الذين يعتقدون بالوسائط  
والشفعاء ، وعقيدة غيرهم من أهل الأديان الأخرى الذين يعتقدون بأن رؤسائهم  
منزلة عند ربهم ينالون بها التوسط لهم فى نيل مبنغهم ، فيلجئون إليهم  
أحياء وأمواتا ، ويقومون عند قبورهم خاضعين خاشعين ، كما يخشعون لله  
أو أشد خشية .

( لم يلد ) أى تنزه ربنا عن أن يكون له ولد ، وفى هذا رد لمزاعم مشركى  
العرب الذين زعموا أن الملائكة بنات الله ، ومزاعم النصارى الذين قالوا : المسيح ابن  
الله ، اقرأ إن شئت قوله تعالى : « فَاَسْتَفْتِيهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا  
لِلْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ؟ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِسْكَرِمٍ لَيَقُولُونَ : وَلَدَ اللَّهُ وَإِلَهُهُمْ  
نُكَالِبُونَ » .

( ولم يولد ) لأن ذلك يقتضى مجانسته لسواه ، وسبق العدم قبل الوجود -

تنزه ربنا عن ذلك .

وأثر عن ابن عباس أنه قال : لم يلد كما ولدت مريم ، ولم يولد كما وُلد عيسى وعُزَيْر ، وهو ردّ على النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، وعلى اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله .

( ولم يكن له كفوا أحد ) أى ليس له نِدٌّ ولا مماثل ، وفي هذا نفي لما يمتقده بعض المبطلين من أن الله ندٌّ في أفعاله كما ذهب إلى ذلك مشركو العرب حيث جعلوا الملائكة شركاء لله .

والخلاصة — إن السورة تضمنت نفي الشرك بجميع أنواعه ، فقد نفي الله عن نفسه أنواع الكثرة بقوله : « الله أحد » ونفي عن نفسه أنواع الاحتياج بقوله : « الله الصمد » ونفي عن نفسه المجانسة والمشابهة لشيء بقوله : « لم يلد » ونفي عن نفسه الحدوث والأولية بقوله : « ولم يولد » ونفي عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله : « ولم يكن له كفوا أحد » تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

### سورة الفلق

هى مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة الفيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) .

### شرح المفردات

أعوذ : أى ألبأ ، والفلق : شق الشيء وفصل بعضه من بعض ، تقول فلقت الشيء فانفلق كما قال تعالى : « فَالِقُ الْإِصْبَاقِ وَالنَّوَى » والشيء المنفلق يسمى فلقا ،

والمراد به كل ما يفلقه الله كالأرض التي تنفلق عن النبات ، والجبال التي تنفلق عن عيون الماء ، والسحاب التي تنفلق عن ماء الأمطار ، والأرحام التي تنفلق عن الأولاد ، والغاسق : الليل إذا اعتكر ظلامه ، ووقب : دخل ظلامه في كل شيء ، ويقال وقبت الشمس إذا غابت ، والنفائات : واحدهم نفائة كملامة ، من النفث وهو النفث من ريق يخرج من الفم ، والعقد : واحدها عقدة ، والحاسد : هو الذي يتمنى زوال نعمة المحسود

### الإيضاح

( قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق ) أى قل : أستعيذ برب المخلوقات ، ومبدع الكائنات ، من كل أذى وشر يصيبني من مخلوق من مخلوقاته طرّاً . ثم خصص من بعض ما خلق أصنافاً يكثر وقوع الأذى منهم فطلب إليه التعمود من شرهم ودفع أذاهم ، وهم :

( ١ ) ( ومن شر غاسق إذا وقب ) أى ومن شر الليل إذا دخل وغمر كل شيء بظلامه ، والليل إذا كان على تلك الحال كان مخوفاً باعثاً على الرهبة - إلى أنه ستار يختفي في ظلامه ذوو الإجمام إذا قصدوك بالأذى - إلى أنه عون لأعدائك عليك .

( ٢ ) ( ومن شر النفاثات في العقد ) أى ومن شر النمامين الذين يقطعون روابط المحبة ، ويبددون شمل المودة ، وقد شبه عنهم بالنفث ، وشبهت رابطة الوداد بالعقدة ، والعرب تسمى الارتباط الوثيق بين شيئين عقدة ، كما سمى الارتباط بين الزوجين : ( عُقْدَةُ النِّكَاحِ ) .

فالنميمة نحو آل ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بالوسائل الخفية التي تشبه أن تكون ضرباً من السحر ، ويصعب الاحتياط والتحفظ منها ، فالتمام يأتي لك بكلام يشبه الصدق ، فيصعب عليك تكذيبه ، كما يفعل الساحر المشعوذ إذا أراد

أن يحل عقدة المحبة بين المرء وزوجه ، إذ يقول كلاما ويعقد عقدة وينفث فيها ، ثم يحلها إيهاما للامة أن هذا حل للعقدة التي بين الزوجين .

قال الأستاذ الإمام ما خلاصته : قد رووا هاهنا أحاديث في أن النبي صلى الله عليه وسلم سحره لبيد بن الأعصم ، وأثر سحره فيه حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، أو يأتي شيئا وهو لا يأتيه . وأن الله أنبأه بذلك ، وأخرجت مواد السحر من بئر ، وعوفى صلى الله عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك ونزلت هذه السورة .

ولا يخفى أن تأثير السحر في نفسه عليه السلام - ماس بالعقل آخذ بالروح ، فهو مما يصدق قول المشركين فيه : « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا » .

والذي يجب علينا اعتقاده أن القرآن المتواتر جاء بنفي السحر عنه عليه الصلاة والسلام ، حيث نسب القول بآيات حضوره له إلى المشركين ووجههم على ذلك . والحديث على فرض صحته من أحاديث الأحاد التي لا يؤخذ بها في العقائد ، وعصمة الأنبياء عقيدة لا يؤخذ فيها إلا باليقين ، ونفي السحر عنه صلى الله عليه وسلم لا يستلزم نفي السحر مطلقا ، فر بما جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون ، ولكن من الحال أن يصيبه صلى الله عليه وسلم ، لأن الله عصمه منه .

إلى أن هذه السورة مكية في قول عطاء والحسن وجابر ، وما يزعونه من السحر إنما وقع بالمدينة ، فهذا مما يضعف الاستجاج بالحديث ، ويضعف التسليم بصحته .

وعلى الجملة فعلمنا أن تأخذ بنص الكتاب ، ونفوض الأمر في الحديث ، ولا نحكمه في عقيدتنا .

(٣) (ومن شر حاسد إذا حسد) أي ونستعيذ بك ربنا من شر الحاسد إذا أخذ حسده ، بالسعي والجِدِّ في إزالة نعمة من يحسده ، فهو يُعْمَلُ الحيلة ، وينصب

شباكه ، لايقاع المسود في الضرر ، بأدق الوسائل ، ولا يمكن إرضاءه ، ولا في الاستطاعة الوقوف على ما يدبره ، فهو لا يرضى إلا بزوال النعمة ، وليس في الطوق دفع كيده ، وردّ عواذيه ، فلم يبق إلا أن نستعين عليه بالخالق الأكرم ، فهو القادر على رد كيده ، ودفع أذاه ، وإحباط سعيه .

نسألك اللهم وأنت الوزر والنصير ، أن تقينا أذى الحاسدين ، وتدفع عنا كيد الكائدين ، إنك أنت الملجأ والمعين .

## سورة الناس

هي مكية ، وآياتها ست ، نزلت بعد سورة الفلق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) .

## شرح المفردات

رب الناس : أي مربيهم ومنمهم ومراعي شؤونهم ، الوسواس : أي الموسوس الذي يلقي حديث السوء في النفس ، والخناس : من الخنوس وهو الرجوع والاختفاء ، والجنّة : واحدهم جنّ ، كإنس وإنسى .

## الإيضاح

( قل أعوذ برب الناس ) أمر رسوله أن يستعين بمن يربي الناس بنعمه ، ويؤدبهم بقمه .

(ملك الناس) أى مالكمهم ومدبر أمورهم ، وواضع الشرائع والأحكام التى فيها سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

(إله الناس) أى المستولى على قلوبهم بعظمته ، وهم لا يحيطون بكنهه سلطانه بل يخضعون بما يحيط منها بنواحي قلوبهم ، ولا يدرون من أى جانب يأتهم ، ولا كيف يسلط عليهم .

وإنما قدم الربوبية ، لأنها من أوائل نعم الله على عباده ، ثم تبنى بذكر الملكية لأن العبد إنما يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلاً مفكراً ، ثم تلت بذكر الألوهية ، لأن المرء بعد أن يدرك ويعقل يعلم أنه هو المستوجب للخضوع والعزة والمستحق للعبادة ، وإنما قال : رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، وهو رب كل شئ ومالك كل شئ وإله كل شئ من قبل أن الناس هم الذين أخطأوا فى صفاته وضلوا فيها عن الطريق السوى ، فجعلوا لهم أرباباً ينسبون إليهم بعض النعم ، ويلجئون إليهم فى دفع النقم ، ويلقبونهم بالشفعاء ، ويظنون أنهم هم الذين يدبرون حركاتهم ، ويسمون لهم حدود أعمالهم .

وبحسبك أن تقرأ قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهَيْبَاتِهِمْ أَرْبَابًا وَنَدُّوا اللَّهَ وَمَسِيحَ بَنِ مَرْيَمَ ، وَمَنَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا الْإِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » وقوله : « وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ »

والخلاصة — إنه سبحانه أراد أن ينبه الناس بأنه هو ربهم ، وهم أناس مفكرون ، ومالكهم وهم كذلك ، وإلههم وهم هكذا ، فباطل ما اخترعوا لأنفسهم من حيث هم بشر .

(من شر الوسواس الخناس) أى الجأ إليك رب الخلق وإلههم ومعبودهم أن تفتجنا من شر الشيطان الوسوس الكثير الخنوس والاختفاء ، لأنه يأتى من ناحية

الباطل ، فلا يستطيع مقاومة الحق إذا صدمه ، ولكنه يذهب بالنفس إلى أسوأ مصير ، إذا انجرت مع وسوسته ، وانسأقت معه إلى تحقيق ما خطر بالبال وهذه الأحاديث النفسية إذا سلط عليها نظر العقل خفيت واضمحلت وسكن الموسوس عند الفأها .

وحديث النفس بالفواحش وضروب الأذى للناس ، يذهب هباء إذا تذهبت النفس لأوامر الشرع ، وهكذا إذا وسوس لك امرؤ وبعثك على فعل سوء ثم ذكرته بأوامر الدين يخنس ويمسك عن القول ، إلى أن تسنح له فرصة أخرى . وقد وصف الله هذا الوسواس الخناس بقوله :

(الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس) أى إن هذا الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور البشر ، قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس ، كما جاء فى قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » فشياطين الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى ، وشيطان الإنس كذلك ، فكثيرا ما يريك أنه ناصح شفيق ، فإذا زجرته خنس وترك هذه الوسوسة ، وإذا أصغيت إلى كلامه استرسل واستمر فى حديثه وبالغ فيه ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به » رواه أبوهريرة وخرجه مسلم .

وإنما جعل الوسوسة فى الصدور من قبل أنه عهد فى كلام العرب أن الخواطر فى القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، ألا تراهم يقولون : إن الشك يحوك فى صدرك ، ويحيش فى صدرى كذا ، ويختلج ذلك بخاطرى ، وما الشك إلا فى نفسه وعقله ، وأفاعيل العقل تكون فى الخنج ، ويظهر لها أثر فى حركات الدم ، وضربات القلب ، وضيق الصدر وانبساطه .

قال الأستاذ الإمام الموسوسون قسمان :

(١) قسم الجنة وهم الخلق المستترون الذين لانعرفهم ، وإيما نجد فى أنفسنا

أترأينسب إليهم ، ولكل واحد من الناس شيطان ، وهي قوة نازعة إلى الشر ، ويحدث منها في نفسه خواطر السوء .

(٢) . قسم الناس ، ووسوستهم ما شاهدته ونراه بأعيننا ، وسمعه بأذاننا .  
وما أوردوه في خرطوم الشيطان وخطمه ومنقاره وجثومه على الصدر أو على القلب ونحو ذلك ؛ فهو من قبيل التمثيل والتصوير اه ملخصا .  
وقد بدئت السورة رب الناس ، ومن كان مريهم فهو القادر على دفع إغواء الشيطان ووسوستهم .

وقد أرشد في هذه السورة إلى الاستعانة به تعالى شأنه ، كما أرشد إليها في الفاتحة ، للإشارة إلى أن ملاك الأمر كله هو التوجه إليه وحده ، والإخلاص له في القول والعمل ، والانتجاع فيما لا قدرة لنا على دفعه .

\* \* \*

اللهم اجعلنا من المختصين في أعمالنا ، وادفع عنا أذى شياطين الإنس والجن ،  
وأبعد عنا شر الموسوسين ، وقنا عذاب جهنم ، ولا تفضحنا يوم العرض .  
وصل ربنا على محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الذين زادوا عن دينك ،  
بقدر ما غرست في قلوبهم من برء اليقين ، وأثابجت صدورهم بحجة هذا الدين .

## خاتمة التفسير

حمداً لك اللهم على نعمائك ، وشكراً لك على جزيل آلائك ، سبحانك رب  
 ووقتى لتفسير كتابك الكريم ، وبيان أسرارهِ ومغازيه لجمهرة المسلمين ، بعد أن  
 كانت تقوم أمامهم عقبات تو عقبات ؛ فمن مصطلحات العلوم لا تستسيغها  
 إلا طوائف ممن تخصصوا لدرسها ، ومن تفسير انظريات طيبة أو فلكية دلت أبحاث  
 العلماء المحدثين على أن تفسير العلماء القدامى لها كان مجازياً للحقائق التي أثبتتها  
 العلم الحديث ، ومن قصص دون في كتب التفسير يفوزه الدليل النقلى الصحيح ،  
 ولا يوافق على صدقه العقل الرجيح ، ولا سيما قصص الأنبياء وأخبار الأمم البائدة ،  
 وبدء التكوين ، وخلق السموات والأرض .

وكم سهرت الليالى الطوال فى أيام القُرْب ، وإبان الحرِّ ، لا تؤنسى إلا معونة الله  
 وجميل توفيقه ، وما أشعر به من لذة تخفف عنى ما أتقض ظهري .

وحينما كنت أحس بسأم من العمل المضى — آانس أن نفحة من روح الله  
 يهب نسيمها على قلبى ، فأنشط للعمل ، وأدأب على المضى قُدماً ، لمواصلة الدرس  
 والتأليف .

وهكذا كانت تمر الليالى والأيام ، فلا أجد مع ذلك الجهد إلا انشراحاً وسروراً  
 بمواصلة العمل . وقد أعاننى الله على إتمامه بعد سبع سنين دائماً العمل ليل نهار ،  
 صباح مساء .

وكان مسك الختام ، وإنجاز التفسير فى سلخ ذى الحجة من سنة ١٣٦٥  
 خمس وستين بعد الثلاثمائة والألف من هجرة سيد ولد عدنان بمدينة حيوان من أرباض  
 القاهرة قاعدة الديار المصرية .

ولله الحمد فى الآخرة والأولى ، وإليه المرجع والمآب ؟  
 المؤلف

## خاتمة الطبع بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمدا لمن أنزل القرآن تبيانا للناس وهدى وموعظة للمتقين ، وأرسل سيدنا محمدا بشيرا ونذيرا ورحمة للعالمين ، صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه مصاييح الهدى وترجمان القرآن الذي هو حجة الله على الناس أجمعين .

أتى رب العالمين فيه بالبراهين الساطعة ، والحجج الدامغة على انفرادة سبحانه بالألوهية ، واختصاصه جل ذكره بالمعبودية . دمع به الباطل وأزهقه ، وزيف به عقائد العرب وبين لهم الجدين ، فمنهم من مال إلى الإسلام ، ومنهم من خضع بالسيف والسنان . ولقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاصده ، وبين مراميه وفسر بعض آياته ، وافتدى به الصحابة ومن بعدهم في ذلك .

ولله در حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ «أحمد مصطفى الراغى بك» حيث خاض لجة بحر علم تفسير القرآن ، فشرح الألفاظ المفردة التي يصعب على القارى فهمها لأول وهلة ، ثم تلاها بالمعنى المراد من الآيات في عبارة مختصرة ، ثم ثلثها بإيضاح للمانى إيضاحا شاملا شافيا ، مع تجنب القصص الإسرائيلية المدسوسة والحرفات الدخيلة على هذا العلم النفيس ، فذكر منها الصريح والقل الصحيح . اهتدى إلى مالم يهتد إليه الفحول من متقدميه ، واستدل بأحاديث الرسول في بعض المواضع ، وبأشعار العرب ، وبأقوال أهل اللغة والعلماء الوثوق بعلمهم وتقلهم ، فهو كما قال القائل :

إنى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

وقد قام بطبعه طبعا متقا ونشره بين الأنام السادة النبلاء من نشروا كتب الجهادية الأعلام في أنحاء المعمورة ، أصحاب :

[ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر ]

فله درهم حيث قدموه للجمهور القراء بهذا الشكل البديع مع الاعتناء بتصحيحه بمعرفة لجنة من علماء الأزهر الشريف برياسة الأستاذ الشيخ «أحمد سعد على» وإشراف صاحب الفضيلة الشيخ «على محمد الضباع» شيخ القراء والمفارى بالديار المصرية .

القاهرة في يوم الخميس } ٢٩ من ربيع الثانى ١٣٦٩ هـ  
١٦ من فبراير ١٩٥٠ م

مدير المطبعة  
رستم مصطفى الحلبي

ملاحظ المطبعة  
محمد أمين عمران

## فِيهِ سِتُّ

## أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٥	كان المشركون كثيرا ما يتحدثون في شأن البعث والحساب فنزلت سورة عمّ .
٨	للظلمة فوائد وللنور فوائد .
٩	في الشمس سر الحياة .
١١	أمر الكائنات في يوم الفصل على غير ما نهى .
١٤	ذكر جرائم الكفار التي استحقوا عليها العذاب .
١٧	التمتع بالنساء في الآخرة يكون على نهج يشاكل العالم الأخرى .
١٩	الملائكة مخلوقات غيبية تصدق بما جاء في الكتاب من أوصافها .
٢٠	في يوم القيامة تتجلى للمرء أعماله التي كانت في حياته الأولى .
٢٣	الإقسام ببعض مخلوقات في الكتاب الكريم يكون لأحد أمرين .
٢٥	استبعد المشركون أمر البعث لأسباب ثلاثة .
٢٧	قصص موسى مع فرعون طاغية مصر .
٣٠	البعث حين إذا قيس بخلق السموات والأرض .
٣١	تعاقب الليل والنهار يهيئ الأرض للسكنى .
٣٣	يوم القيامة يتذكر كل امرئ ما عمل في الدنيا .
٣٥	كان المشركون يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة فأمره أن يقول لهم : علمها عند ربى .
٣٧	يوم القيامة يظن المشركون أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا عشية أروضها .

الصفحة	المبحث
٣٩	عتاب الله لنبيه على الإعراض عن هذا الأعمى .
٤٢	الهداية تذكرة يقصد بها تنبيه الغافل .
٤٧	آيات المذبذبة في الآفاق والأنفس .
٤٩	ذكر بعض أهوال يوم القيامة التي توجب الفرع .
٥٠	الناس فريقان : سعداء وأشقياء .
٥٣	حين تقع أحداث القيامة تعلم كل نفس ماقدّمت من عمل .
٥٥	افتنّ العرب في وأد البنات .
٥٦	لا يتقبل الله من الأعمال إلا ما كان عن قلب مليء بالإيمان .
٥٩	أوصاف جبريل عليه السلام .
٦٠	صفة النبي عليه الصلاة والسلام .
٦١	على مشيئة المكلف تتوقف الهداية .
٦٥	في يوم الحشر يسأل الإنسان عما دعاه إلى مخالفة خالقه .
٦٦	الإنسان لا يعيش كما يعيش سائر الحيوان .
٦٧	لا يمنع الإنسان من التصديق بالبعث إلا العناد .
٧١	جزاء التطفيف في السكيل والميزان .
٧٣	التطفيف يكون في غير السكيل والميزان .
٧٥	مقالة المشركين في القرآن .
٧٦	لا يكذب بيوم الدين إلا المعتدى الأثيم .
٧٨	ما يقال للكفار يوم القيامة .
٨٠	أعمال الأبرار في كتاب يسمى علمين وأعمال الفجار في كتاب يسمى سجيناً .

الصفحة	المبحث
٨١	أثر النعيم في أهل الجنة .
٨٣	ما كان الكفار يقابلون به المؤمنين في الدنيا .
٨٤	من شأن القوى أن يضحك ممن يخالفه .
٨٨	الناس في الآخرة فريقان : بررة وفجرة .
٨٩	حين اختلال نظام هذا العالم تمد الأرض نمد الأديم العكاظي .
٩١	كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم حاسبنى حسابا يسيرا .
٩٢	إتناء الكتاب باليمين أو بالشمال تصوير وتمثيل .
٩٤	إقسام الله تعالى بآياته الباهرات في هذا الكون .
٩٨	الإقسام بما فيه غيب وشهود .
٩٩	تعذيب المشركين المؤمنين شنشنة قديمة .
١٠٠	حديث أصحاب الأخدود .
١٠٢	ما أعد الله للكافرين من العذاب الأليم .
١٠٤	ما يعظم به الملك في الدنيا .
١٠٦	في قصص أصحاب الأخدود تسليية للنبي وصحبه .
١٠٧	أحوال الكفار متشابهة في كل عصر .
١٠٩	إقسام الله تعالى بأن النفوس لم تخلق سدى .
١١٢	كيفية خلق الجنين ونمو الحمل كما أثبتته العلم حديثا .
١١٤	الماء الدافق يكون من كل من الرجل والمرأة .
١١٨	في الحديث « كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم الخ » .
١٢١	اسم الله ما يعرف به .

الصفحة	المبحث
١٢٣	وعد الله رسوله صلى الله عليه وسلم أنه سيقرته من كتابه ما فيه تنزيهه .
١٢٥	أمره صلى الله عليه وسلم بتذكير عباده بما ينفعهم في دينهم ودنياهم .
١٢٦	الناس بالنظر إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم أقسام ثلاثة .
١٢٧	وعد من زكى نفسه بالفوز والفلاح والظفر بالسعادة .
١٢٩	الرسول صلى الله عليه وسلم ما جاء إلا مذكرا بما نسيته الأجيال من شرائع المرسلين .
١٣٤	وصف الجنة وما فيها .
١٣٦	إقامة الحججة على المنكرين ليوم البعث .
١٣٧	ضرب أمثلة دالة على قدرته تعالى .
١٤١	نعمة الله على عباده بتعاقب الليل والنهار .
١٤٣	ذكر قصص الأمم الماضية وما فيها من سلوى لرسوله صلى الله عليه وسلم .
١٤٣	الإنسان لا يهتم إلا بشئون الدنيا .
١٤٨	توبيخ الإنسان على زجر اليتيم والمسكين .
١٥٠	إيثار الناس للحياة الدنيا على الآخرة .
١٥١	يندم الإنسان على ما فرط منه حين لا يجدى الندم .
١٥٢	وصف يوم القيامة وما فيه من أحداث .
١٥٧	خلق الإنسان في عناء .
١٦١	الحض على مواساة اليتيم وإطعام المسكين .
١٦٣	فعل البر لا يجدى نفعا إلا مع الإيمان واطمئنان القلب .
١٦٦	الحكمة في القسم بالشمس والتمر والليل والنهار .

- الصفحة المبحث
- ١٦٨ ألهم الله تعالى النفوس الفجور والتقوى وعرفها حالها .
- ١٧٠ ذكر بعض أخبار الأمم الماضية وما جوزوا به .
- ١٧٤ اختلاف الأجنحة في الذكورة والأنوثة دليل على أن واضع النظام عليم بما يفعل .
- ١٧٨ أعذر الله إلى عباده فأبان لهم الخير والشر وأرشد إلى عاقبتهم .
- ١٨٠ الناس أصناف ثلاثة .
- ١٨٢ سبب نزول سورة الضحى .
- ١٨٤ تعداد ما أنعم الله به على رسوله قبل النبوة .
- ١٨٦ مطالبته عليه السلام بشكر هذه النعم .
- ١٨٧ كان صلى الله عليه وسلم كثير الإنفاق على الفقراء عظيم الرأفة بهم .
- ١٨٩ لا تخار أعظم من ذكره صلى الله عليه وسلم في كلمة الإيمان مع العلي الرحمن .
- ١٩١ استخرج النفس ظافرة فمما اشتد العسر إذا اعتصمت بالصبر وتوكلت على ربها .
- ١٩٤ أقسم ربنا باليهود الأربعة التي كان لها أثر بارز في تاريخ البشر .
- ١٩٧ صدر سورة اقرأ أول القرآن نزولا .
- ٢٠٠ نعم الله على عباده .
- ٢٠١ أسباب طغيان الإنسان .
- ٢٠٥ ما دار من الحوار بين النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل .
- ٢٠٦ أشار القرآن إلى نزول القرآن في أربعة مواضع .
- ٢٠٨ فضل ليلة القدر .
- ٢١٥ النعمى على المسلمين فيما أحدثوا من البدع .
- ٢١٨ علامات يوم القيامة .

الصفحة	المبحث
٢٢٣	أقسم الله سبحانه بالخيل ليعلى من قدرها .
٢٢٧	نحن نؤمن بالميزان يوم القيامة لكننا لانعرف حقيقته .
٢٣٠	زيارة القبور أعظم دواء للقلب القاسى .
٢٣٢	يسأل الكفار عن النعيم الذى كانوا يتمتعون به فى الدنيا .
٢٣٤	الدهر خلق من خلق الله تقع فيه الحوادث خيرها وشرها .
٢٣٥	الناس فى خسر إلا من اتصفوا بأربع صفات .
٢٣٨	سخط الله وعذابه لكل طعام فى الناس أكل للحوم .
٢٤٢	قصص أصحاب الغيل كما رواه الثقات .
٢٤٣	البعوض الذى أهلك أصحاب الغيل .
٢٤٥	تعداد النعم على قريش .
٢٤٨	الرياء على ضروب .
٢٥١	أسباب نزول سورة الكوثر .
٢٥٧	كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيق صدره لتكذيب قومه له .
٢٦٢	كان أبو لهب يصد عن الحق وينفر الناس عن اتباعه .
٢٦٤	ورد أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن .
٢٦٤	سورة الإخلاص تضمنت نفي الشرك بجميع أنواعه .
٢٦٧	علمنا الله أن نعوذ به من أصناف من الخلق .
٢٦٨	نفي تأثير السحر فى النبي صلى الله عليه وسلم .
٢٧١	الموسوسون قسمان .
٢٧٣	خاتمة التفسير .
٢٧٤	« الطبع .